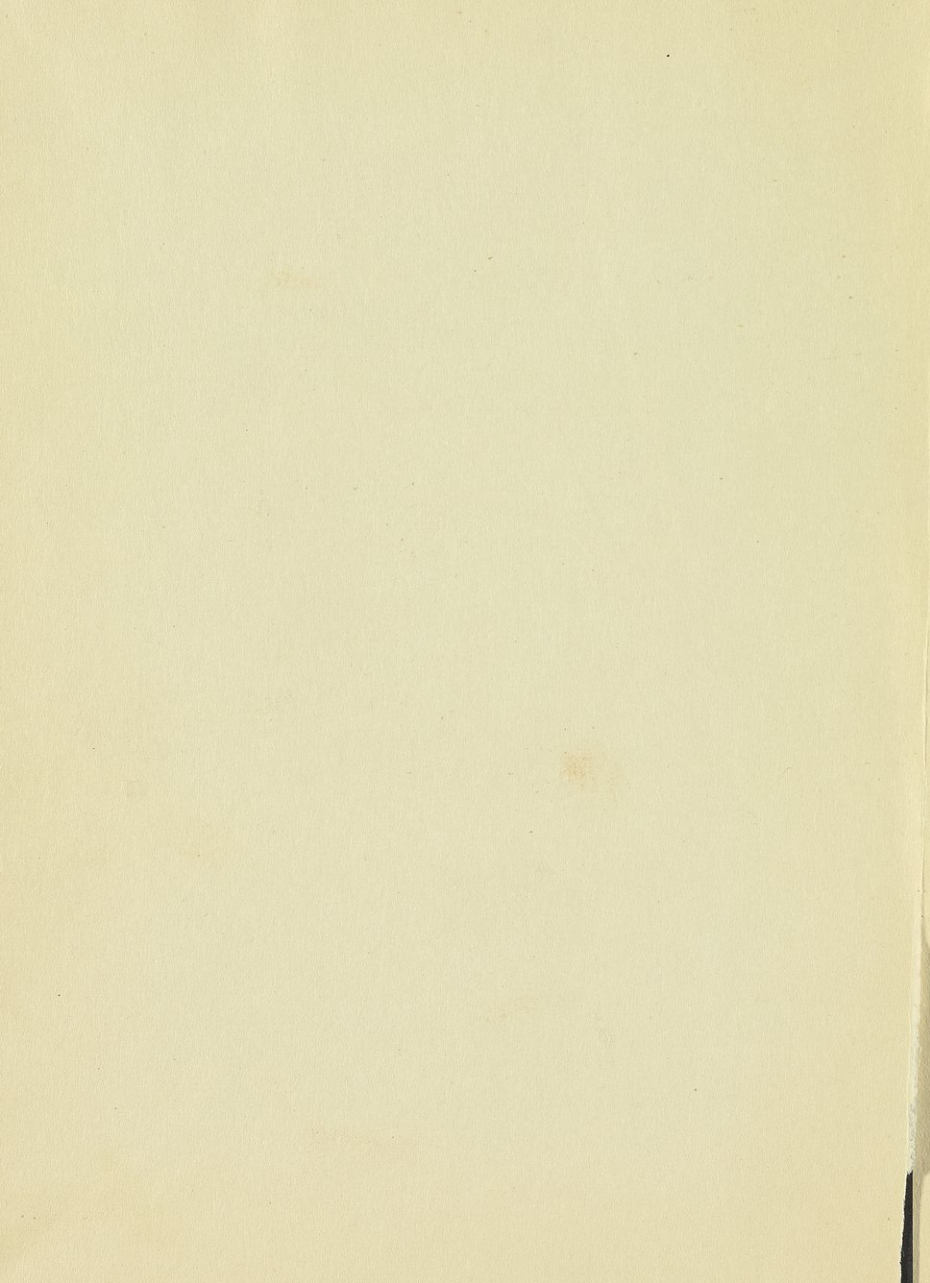


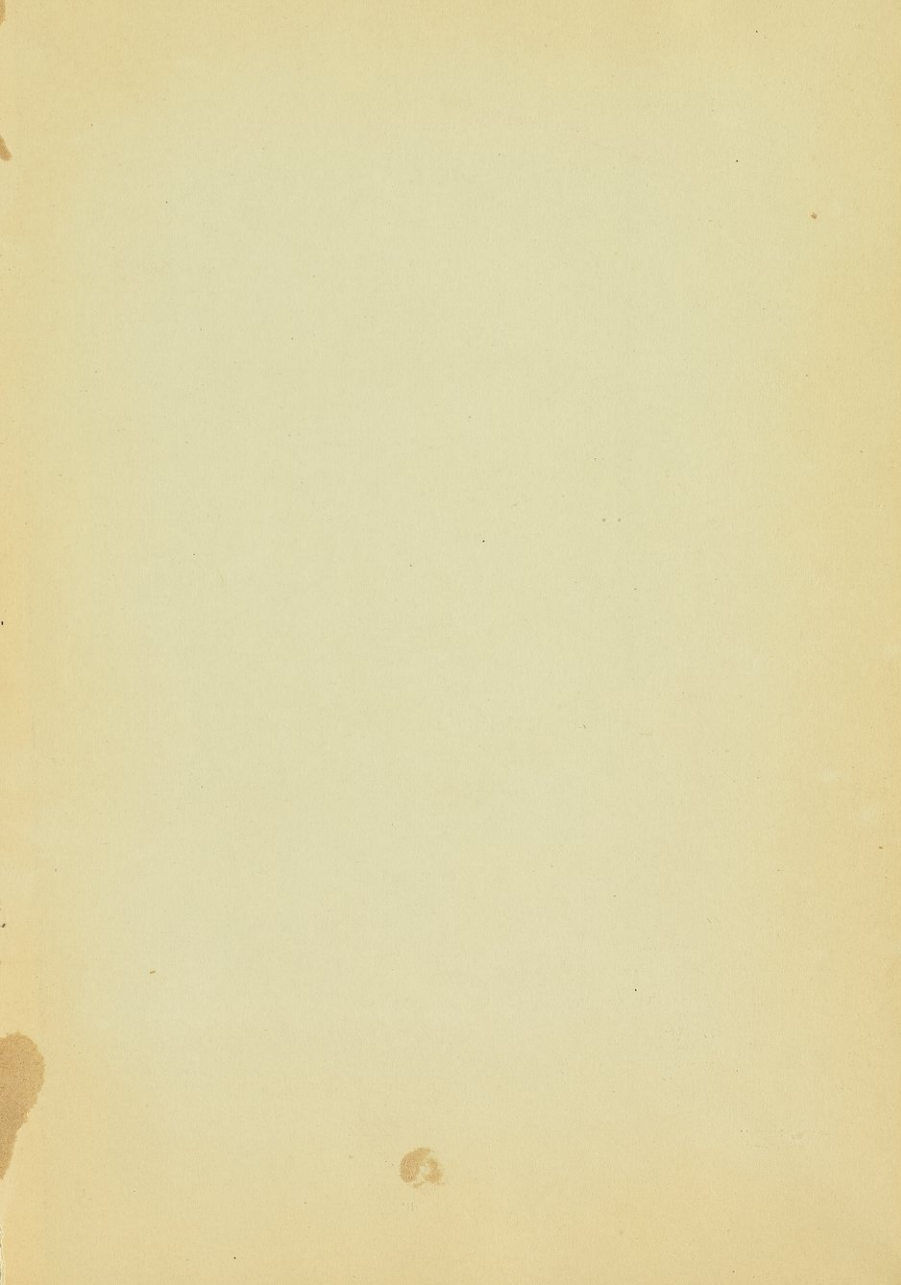


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







4
A 73

السفر إلى ألمانيا

(وهي الرسائل التي كتبها)

أحمد زكي

(مترجم مجلس النظار)

أنباء سياحته بأوروبا وأحيمما توجه إلى لوندرة للنيابة عن الحكومة المصرية

في مؤتمر المستشرقين الدولي التاسع

سافروا وتصحوا وتغنموا

حديث كريم

(حقوق الطبع والترجمة محفوظة)

الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق

س ١٣١١ هـ
١٨٩٣ م



بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد
الاقصى وصلاة وسلاما على نبي الهجرة الذي اختصه مولاه بمعامد
لا تستقصى وعلى آله وصحبه الذين انتشروا في الامصار وطافوا
الاقطار فرفعوا للعالم أعلى منار وضربوا للناس الامثال فاصبح
التمدن كما تراه جليل المقدار ساعى الاعتبار

(وبعد) فان لكل عامل غاية يتوخاها ولكل مرتاد ضالة
ينشدها وضالتي التي نشدها في هذه المجموعة العناية بتخييل
ماشاهده العيان من المناظر الشائقة والمراني الرائقة تخيلا
تجلى به للقارئ موائل يتقراها بيده ويسبرها بساعده فاني
حاوت ان أمثل له تأثير الحس وانفعال النفس اذ الباصرة
تمقل والخيال ينقل والمفكرة تحبب والضمير على ما يسبر فتمنفع

الحواس فتنبئ بحسب ما يقع عليها من التأثير وحكمها في ذلك راجع
الى مزاج الانسان وطبيعته ومشربه وتريقه فقد كنت أعرف قبل
تطوافي ببعض البلدان أمورا كثيرة ولكنني لما طوحت بي الايام الى
تلك الفواحي تناسيت الصور التي كانت مرسومة في مخيلتي فمثلها الى
الانفعال النفساني بصورة توافق أو تخالف ما كنت أعرفه فهذا
هو التأثير النفساني الذي ابتغيت المبادرة بتخطيطه بوقته في رسائل
هذه قبل ان يضيع شيء منه أو يعرض مؤثر آخر عليه حتى اني
كنت اكتب رسائلها هذه وأنا بين حل وترحال تطوح بي الاسفار
ولا يستقر لي قرار وليس لي من الوقت ما يكفي للمراجعة والتنقيح واعادة
الغظر والترجيح فقد كنت أخذت على نفسي قبل السفر ان أمضي
نهاري في التنقل من مكان الى مكان أصعد الى أعالي كل مدينة
نزلت بها وأدخل في جميع آثارها وأطوف كل شوارعها وأزور كافة
متاحفها وبالجملة أشاهد كل ما يمكن مشاهدته في اليوم وأقضي
شظرا من الليل ليس بقليل في إتمام ما يتسنى رؤيته بالليل وتعليق
المفكرات وكتابة البريد وكنت في كل لحظة متخوفا من فوات
القطار حتى لقد صدق علي قول بديع الزمان الهمداني

اسكندرية داري * لو قر فيها قراري

لكن بالشام ليلى * وبالعراق نهاري

Nov 15 1955

أوما قاله السعد التفتازانى

يوماً بجدوى ويوماً بالعقيق وبأ * مذهب يوماً ويوماً بالخليصاء
بل قد كان وقى من أقصر ما يكون مع مالا ينفك عن المسافر
من قلق البال وتشتت الافكار ولقد كنت أسعى في توفير الزمن
وتكثيره باتعاب نفسى وحرمانها من الراحة حتى انى كنت أفضل
السفر ليلاً في أغلب الاحيان الا اذا لم يكن ذلك فى الامكان ولقد
صدق رسول الله الكريم فى قوله (عليكم بالبلجة فان الارض تطوى
بالليل مالا تطوى بالنهار)

وقد أفرغت وسعى فى التحقيق والتدقيق كما يشهد به المنصف
الذى ينظر فى هذه الرسائل التى يعلى من رايها ويرفع من ذكرها
انى حررتها وأنا أنظر الاشياء بعينى مصرى بحيث يتفعل بانفعال
المصريين ويكتب للمصريين فلم أعبأ بقول مصنف غريبى ولم
ألتفت الى نبأ مؤلف عربى الا حينما تدعو الضرورة الى تحقيقات
جغرافية أو علمية وذ كر بعض الاحصائيات وفيما عدا ذلك أشهد
الله انى لم يكن لى من معتد فى استسكاه الحقائق واستجلاء الماهيات
سوى شعورى المصرى الخالص من أثر الشوائب والاستفسار ممن
يوثق بعلمه وخبرته من أهل هاتيك الديار هذا وقد باشرت طبعها
بغاية العناية مع اصلاح الكثير من غلطات المطبعة وارىاد بعض
الجل التى كانت حذفتم فى غيبتي لاسباب اقتضاها الزمان فردتها

كما كانت يوم كتبها باوروبا بالتمام غيرانى أضفت كثيرا من الحواشى
والتعليقات لزيادة التحقيق والتدقيق في بعض المواضع
وهنا انبه القارئ الى ان الرسالة الكبيرة على باريس لم يسبق
طبعها قبل الآن هي وكلمة الرسالة الاندلسية في بيان امتزاج
العرب بالعجم في اسبانيا والاستشهاد على ذلك بالاعلام وكذلك
الخاتمة وانى استلفت النظر بنوع خصوصى الى رسالة باريس
الثانية فانها تصور هذه المدينة للقارئ تصويرا وافيا جامعاً
بحيث ان من تمنعها وصبر على قراءتها يمكنه ان يقول انه يعرف
باريس وما فيها مما قد لا يعرفه كثير من المقيمين فيها سواء كانوا من
أهلها أو النازلين بها وأكثر مما يقف عليه السامع الذى قد يقيم فيها
شهر أو أكثر من شهر وأما كلمة الرسالة الاندلسية فهي تستحق من
العناية ما لا يقل عن ذلك وحسبى انى طرقت بها بابا جديدا
توصلت منه الى منهاج من التحقيق يشهد الله بمقدار ما عانيت فيه
من التعب والتنقيب والمراجعة وكل ذلك لا يخفى على فطانة أهل
الانصاف ومحبي الحقائق العلمية

وأقول ان مادونته في هذه الرسائل هو شئ قليل في جانب
ما عندي من البيانات والمعلومات التى عنيت بتعاينها وجمعها
لتدوينها في الرحلة الكبرى وغاية سوء الى الملك المتعالى ان يقدرنى

على اتمام تدوينها وييسر الطريق الى طبعها وتعميمها فانني عزمتم
على ادارة سياجها وانتهاج منهاجها وجعل موضوعها فلسفيا
محضا أتحرى البحث فيها بصفة كوني مسلما شرقيا يعني من عملي
التعقيب عن آداب الشرقيين والغربيين والمقارنة بين اخلاقهم
وعلمهم ومذاهبهم ونحلهم ومبلغ ارتقائهم ومقدار تأثير الاولين
على الاخرين أو الاخرين على الاولين في القديم أو الحديث
ومرجع ذلك في الاغلب الى دواوين الفلاسفة ومصنفات الجهابذة
من الفريقيين والله الهادي الى سواء السبيل

احمد زكي

(الرسالة الأولى)

عن نابولي في يوم السبت ٢٧ محرم سنة ١٣١٠ - ٢١ أغسطس
سنة ١٨٩٢

حقا لقد صدق من قال انه اذا كان للعلم مجال فللعمل ألف مجال
فراق الوطن
وان حقائق الاشياء وهى فى عالم القوة أقل منها بكثير حينما تبرز
الى حيز الوجود وتبجل فى مظاهر الشهود فطالما قرأت ما أتى به
الكتاب من الآيات البينات وما ترنم به الشعراء من الابيات الابيات
فى الحنين الى الاوطان والتشوق الى الاهل والخلان والتوجع
من مفارقة المؤلف والتفجع من مبارحة الديار والرروع ولم تكن
نفسى تتأثر من ذلك الا بقدر اعجابها ببراعة الكاتب واقترار الناظم
على صوغ المعانى فى أبجل القوالب وسبك الالفاظ على أبداع طراز
وتتميل التخيل بما ترتاح له النفس وينشرح منه الفؤاد وكنت
اظن ان ذلك انما مصدره تميمى الكتاب وتزويق الشعراء حتى قضى
على طلب المعالى بمفارقة مصر السعيدة المحروسة وديارها المحبوبة
المأنوسة فانجلى لى هذه العواطف الجميلة فى أجلى جلبابها وحلت
هذه الشعائر الجميدة فى فؤادى باحلى معانيها فتمنيت حينئذ لو كنت
من المنتمين المجيدين لاصورلك أيها القارئ العزيز والمواطن الفطين
حب الوطن مجسما فى أبجل حال وعلى أكمل منوال ليكون ذلك

باعثا يدفعك الى تعزيز شأنه والسعي بما في قدرتك على رفع مناره
والاجتهاد بما قسمه الله لك من العرفان في تهذيب ابناؤه وبتنه
العلم في انحاءه فاني وعينيك حينما اقترب الوقت المضروب لمبا
القاهرة (يوم السبت ١٣ أغسطس سنة ١٨٩٢) كنت أ
الطرف وأزود الناظر بما في القاهرة من باهر المناظر وأجتمعي محاس
الكرة بعد الكرة وأتملى من رؤية معاهدتها المرة بعد المرة ليكون لي
ذخر منها الى أن أعود اليها بسلامة الله وحسن توفيقه وما زلت
على هذه الحال مشغول البال مشتت البلبال وأنا كالباهت الحيران
حتى حان وقت السفر

احتفال
الاخوان

فاحتشد الاخوان الافاضل والخلان الامثال لتوديعي على
محطة العاصمة وكان الكثير منهم يقول «انما جئنا لتودعك حتى
تتقوى بنا عزيزتمك وينشرح برويتنا صدرك فتبذل قصارى
ماعندك في حسن القيام بالمأورية الجميلة التي عهدت اليك
وتأقنى باصدق برهان على ان في مصر من الشبان من اذا شملهم
بنظره الكريم أمير مصر مولانا العباس أصبحوا من افاضل
الناس وجعلوا للوطن العزيز بين الامم المتمدنة مقاما محمودا وفضلا
مشهودا»

فكنت أنظر الى نفسي ومن أنا ثم أردد الفكرة في هذا

الاحتفال وفي أمثال هذا المقال فأرى أن هذا النظار العظيم وان
هذا الاحتفال والتكريم انما يقصد به اعلاء كلمة الوطنية واتحاد
الرب على تنشيط كل من يقوم بعمل يربح منه نفع البلاد بقطع النظر
بمقام القائم بهذا العمل في هيئتنا الاجتماعية صغيرة كان أو
كبيرة فاني لم أباغ الى الآن من مناصب الرأسة ومراتب العظمة
والوجاهة ما يجعل القوم يتقاطرون على التقرب مني والتزلف الى
من باب الرهبة أو من باب الرغبة فلا ريب في ان الباعث لذلك
الاحتفال والاجلال هو الاخلاص في التكاتف على تأييد كل
مسعى علمي وتعضيد كل عمل وطني وان اخواننا أيدهم الله بروح
منه قد احسوا بوجوب الدعوة الى رفع شأن الوطن وتعزيزه فلهم
من وطنهم أخلص الشكر واجزل الثناء اذ ليس في وسعي ان أوفيهم
حقهم من الاعتراف بجميل فضلهم

ولقد لاقيت في الاسكندرية (عروس المشرق وعنوان المغرب)
عند مقدمي اليها وقيامي منها مثل مالقيت في القاهرة وفي ذلك
برهان قاطع على ان الشعور بحب الوطن والدأب على استمرار
حركة النهضة الوطنية قد سرى في عامة الفضلاء سريان الارواح في
الاجساد وكيف لا يكون الامر كذلك وأميرنا الهمام وولي نعمتنا
المقدام مولانا العباس وطد الله دعائم ملكه ونشر في الخافقين ألوية

مجده لنا به أحسن اسوة وأتم قدوة فإنه أول من يسعى في
النهوض بالوطن المحبوب الى ذروة العز ومنصة الشرف
وقد قال لي حينما تشرفت بلملم أيديه الكريمة وشكر ايديه
العميمة ان بعضهم اعترض على تعييني في هذه المأمورية العلمية
العلمية بانى مازلت في دور السببية والغموة فأجاب بلفظه الفاخر
المنيف

شرف المشول
بين يدي ولي
النعم

«ان هذا هو ذات الواجب وعين الصواب فان زكي من نوابغ
الشبان وبه يمكننا أن نبرهن لعلماء أوروبا على ان عندنا من
الشبان من يجارونهم في ميادين الفضل والعرفان»
فكيف لأتية فخارا واختال ابتهاجهم هذا القول الذي هو
أفضل من جميع علامات التشريف ودرجات التكريم وكيف
لأدأب على البحث والاجتهاد حتى يبقى اعتقاد ولي النعم في عبده
المخلص هكذا على الدوام وكيف لا يكون في ذلك المقال أعظم
تنشيط لامثالي من الشبان يدعوهم الى اطراح الكسل وترك الخمول
والاقبال على كل عمل يرفع شأن وطنهم ويستوجب رضا ولي
نعمتهم ولمثل هذا فليعمل العاملون ويمثل هذا فليتنافس المتنافسون
تقت من الاسكندرية في صباح يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة
١٩٢٢ في باخرة من بواخر شركة اللويد النمساوية اسمها فورورود قد

ركوب البحر
وزيادة الاشجان

جمعت الى النظافة أسباب الراحة بحيث لم يكن ينقصنا فيها شيء مما
نراه في المدائن سوى قرب تناوله وسهولة الحصول عليه بمجرد الضغط
على الجرس الكهربائي ولم يكن فيها كثير من السواح ولكنها
أقلعت (أو أخرجت من البخار) بعد الوقت المضروب بربيع ساعة على
التقريب وسارت الى ان خرجت من بوغاز الاسكندرية وابتعدت
عن الشطوط المصرية في كنت أحرق النظر المجرد ومستعينا
بالنظارة المقربة إلى رؤية اطراف الاراضي المصرية حتى سترها
حجاب الافق واذنالك أخذتني كآبة وتولاني حزن وتملكني انقباض
مما لم يكن لي به عهد من ذي قبل فاعرورقت الدموع في قلب
فؤادي وتلهفت نفسي الى معاهد بلادي ولم تذهب عني هذه
اللوعة الا بعد ان أطلت الفكرة في اني أسعي الى مجد مؤثر قد
يدركه أمثالي وأعود الى وطني سالما غانما راجحانا بماذن الله تعالى
فشاغلت نفسي عن تيار هذه الافكار بالنظر الى تمايل السفينة
ذات اليمين وذات اليسار وتلاعب الامواج وصفاء الماء الذي
اكتسب فيما امام الاسكندرية لونا ازرق باهيا جعل اللجة كأنها
قطعة واحدة من الفيروز الجليل

ومازالت السفينة توالي سيرها حتى أتى ميعاد الطعام فاكات
قليلاً منه لاني عجزت عن الاتمام ولم أك وحقق من القادرين بسبب

تعاب البحر

كنا اسكن الجوز
وخرجت الى البحر
اشارة

ماعة ترانى من دوار البحر وان كانت الدوخة خفيفة جدا فقد
أخذنا أهل الخبرة ان هذه الحالة من اخف السيماحت شدة
على من ليس لهم عادة بالاسفار فى البحار ولكن هذا القول لم يمكننى
من الامتناع عن الاضطجاع على فراشى فلما حان العصر خرجت
الى ظهر السفينة لاجرب الحالة فعاودتنى الدوخة ودوران الرأس
فقلقت مجالا الى مضجعى ولم تيسرنى الاستراحة الا بعد ان
صارت معدتى صفراء من الصفراء مدة الليلة الاولى واليوم الثانى
والليلة الثانية ولم اتمكن من تناول شئ سوى قليل من اللبن
بالقهوة وبعض الفاكهة وقد كان صاحبى حضرة الشيخ محمد راشد
قد أصابه ما أصابنى فلبثنا فى حجرتنا مضطجعين على الاسرة متقابلين
فكنا فى هذه الحالة أشبه بالمرضى فى المستشفى المتساوى ووجهه
الشبه الجامعة فى الجنسية بين المستشفى والباخرة ونظافة الخدمة
واتقانها وقيام عمال من صنف واحد بها وقد شعرنا بشدة اضطراب
السفينة وتزايد ارتجاجها (أونودانها أو ميديانها) حينما اقتربنا من
جزيرة كريد (اقریطش عند القدماء أو قنديا عند الافرنج الا ان
باسم مدينة فيها ينسب اليها العسل الجيد وربما نحت منه العرب
اسم السكر فقالوا القند وان كانت هذه الكلمة واردة فى الشعر
القصيح وقيل انها فارسية)

وفي اليوم الثالث مررنا امام سواحل اليونان وبين بعض جزائرها وكان من معنا من بنى الاغريق (الجرج) فرحين مبهتجين برؤية سواحل بلادهم يرفون اليها بلحظ متوال والانشراح ملء فؤادهم ثم مررنا قبال جزيرة كورفو (قرفس في كتب العرب) ذات المناظر الجميلة والحدائق الغناء التي اشتهرت في السنة الماضية بقيام أهلها على بنى اسرائيل وفتكهم بهم الفتك الذريع

وما زال البحر صاحيا والهواء موافقا والشهية حاضرة حتى وصول برندزي عوضنا ما فاتنا من الطعام وخسر متعهده ما كسبه اياه اشتداد الجحر في اليومين الاولين حتى وصلنا الى برندزي واسمها في كتب العرب ابرندس وعند الفرنسيين برند (Brindes) وعند الرومانيين برنتسيون او برندزيوم (Brindisium و Brintision) وكنا نعتقد اننا نجد من وكلاء كوك فيها أعظم مساعدة فلم يتحقق فيهم أماننا وأقول انه اذا كان جميع وكلائه في الجهات الاخرى من الكسل والخلول مثل ما هم عليه في هذه الفرضة فالاحسن للغريب ان يسترشد بكتب الدليل ويأشر شؤنه بنفسه ولعلمهم لا يكونون كذلك في بقية المدائن التي سنمر عليها وقد سمعنا عنهم خيرا كثيرا ونحن بمصر وسنكتب عما نشاهده منهم بعد ذلك ان شاء الله

كان وصولنا الى ابرندس أو ابرنطس كما يسميها العرب بعد قيام قطار الصباح (الساعة السادسة) المتوجه الى نابولي عن الطريق القريب فخرناين المقام في هذه المدينة الحاضرة (بالنسبة لاروبا) وبين اتباع الطريق المنحنى مع القطار الذي يقوم الساعة تسعة وخمسة وعشرين ففضانا الرأي الثاني لكي نتخلص من اخلاق أهل برندس واخلاقها الذين هم أحط في المدينة من جميعية مصر وارذل من سفهائها واشد الخافا والحاحا من شكاذي السيدة زينب

فتوجهنا الى المحطة وكان مع رفيق شنتطان ومعي أيضا اثنتان فإلى رجال المحطة الا أن يكون ارسال شنتطين منها بعد دفع الاجرة عنهما فامتثلنا ودفعنا نحو من ستة وثلاثين قرشا وهذا ليس من الغرابة في شيء بل الاغرب ان أحد مستخدمى المحطة (وهو الذي الزمنا بحمل متاعنا الى المخزن) جاء الينا بعد ان تبوأنا مقعدنا في القطار وطلب منا ان نتكفئه بشيء من النقود فقلنا له عجبنا منك ومن فعالك تغرنا ما ليس بواجب علينا للسكة الحديدية ثم تجيء وتطالب منا الاحسان ولكنه أظهر المذلة والمسكنة وباء فرحا مبتهجا حينما اتكفته بنصف فرنك ثم قام القطار فاذا الارض حوالى ابرندس مكتسية بحلة خضراء مزينة بأشجار

الطريق من
برندسى الى
نابولي

مورقة كل ذلك والارض حجرية صخرية قد اذابت الامطار قشرتها
واودعت فيها الخصوبة والبركة باذن الله بحيث اننا كنا نرى كثيرا
من الاشجار نابتة بين شقوق الاجار ونرى الاراضى بارتفاع
وانخفاض واستواء وانحدار وكلاهما مجللة بشباب سندسية في غاية
البهاء وقد رأينا الكرم فيها وفي بعض جزائر اغيريقية (Grèce
أى بلاد اليونان) لا يرتفع عن شبرين فكان مظهره كنبات الخس
في مصر ولكنه يأتى بالمحصول الكثير والعنب الجسد اللذيذ على
ما بلغنا من اهل هاتيك الديار

وهذا دليل على ان اتخاذ العروش والتسكعيب لاشجار الكرم مما
لا يجديها نفعا بل قد يترتب عليه قلة المحصول لان العصاره تتصرف
في ساق النبات واغصانه بدلا من ان تتكون ثمرا جنيا ومع ذلك
فالحكم لعلماء النبات وبعد ان ابعدنا عن ابرندس (برندزى)
رأينا الارض قاحلة فيها نبات شاهدنا رأينا القوم يحرقونه في بعض
الجهات لتسميد الارض كما يفعل بعض اهل مصر

ولما تجاوزنا هذه الضواحي رأينا السهول قاحلة ماحلة ثم
مررنا على بلاد عامرة وكان مرورنا على ساحل البحر الادرياتيكي
(المعروف عند العرب ببحر البنادقيين) وكانت معناني الواوور فرقة من
الجنود فلما مررنا على محطة اوستوني (Ostuni) رأينا فيها كثيرا من

النساء العجائز ينتظرن من لهن من الاقارب فكن يودعنهم ويقبلنهم
ببكاء وانحباب مثل ما يراه الانسان ببعض محاط مصر سوى انهن
لا يولون بالعويل والصياح وما زال الواووريسير بنا بين جبال
وتلال وقيعان ووديان حتى قدمنا مدينة نابولى الزاهرة الباهرة بعد
ان اخترقنا ثلاث مقاطعات فى الجنوب والشرق الشمالى لجنوب
ايطاليا وكلها تستقى من مياه الامطار تخزنها فى صهاريج ورأينا
فيها سواق ونواعير وآبارا يشبه ماؤها مياه الابار فى مصر وقد علمت
ان المهندس (زبارى) قدم مشروعا مقتضاه شق ترعة تأتى بالمياه
من نهر سيلى (Sele) الذى يصب فى خليج سالرنو (Salerno)
لترتوى منه مقاطعات فودجا وبارى ولتشى (Bari و Foggia)
و Lecce وفى كتب العرب فوج وبارى وبلج) وان نفقاته تبلغ
مائة مليون ليرة طليانية (نحو أربعة الاف جنيه انكليزى) قدم هذا
المشروع من نحو ١٥ أو ٢٠ سنة ولكنه لم يبرز الى حيز
الوجود اقله المال وعدم تيسر الحصول عليه
هذه بحالة يسيرة من أمور كثيرة علق بها مذكرات
ومفكرات سأفصلها فى الرحلة ان شاء الله

الرسالة الثانية

عن رومه في يوم الاثنين ۲۹ محرم سنة ۱۳۱۰ (۲۲ اغسطس سنة ۱۸۹۲)

فوائد السفر
وتسهلاته

لعلى اكون احزرت برسالتى الاولى رضا حضرات القراء
الالباء والافان العذر واضح لكون كتابتها كانت بعد تعب شديد
عائته من سفر ثلاثة أيام في البحر تناولها عشر ساعات بلا انقطاع
في باخرة البروليس في ذلك من غرابة لعدم العادة ولقد كان سمعي
ينبوه من مقال القائل (بل العذاب قطعة من السفر) فلما حقق
الخبر الخبر زال عن الاستنكاف مما كنت أحسبه ضربا من المجازفة
في المبالغة خصوصا وان أسلافنا لم يكن لهم ما فاضه عرفان هذا
القرن (التاسع عشر) على أبناءه من تسهيل الانتقال وتأمين
الارتمال وتقليل المسافات وتناهي البخس في النفقات بالنسبة لما
كان ينبغي صرفه في هاتيك الاوقات وتيسير أسباب السير والنظر
والتأمل في آثار من غير ومصنوعات من حضر وتوسيع دائرة العقل
بالاطلاع على نتائج أفكار الغير الى ما هناك من الفوائد والمكاسب
في المتاجر والمصانع مما لا ينكره الا المكابر ولذلك فاني بعد المقارنة
أحسب هذا التعب راحة وهذا الشقاء نعيما فلم اتر بص حتى تجيئني
الانباء من الاصدقاء بما كان لبا كورة رسائلي من الشأن عند الادياء

فاني (على كل حال) أشعر في نفسي بما يدفعني بالرغم عنى الى
الكتابة حتى اكون كأني بين الخلان والاخذان فقد وجدت
مجال القول ذاسعة وألفت مقام الكتابة صالحا فأقول

ان نابولي والحق يقال لتستحق ان يكتب عليها مجلد ضخيم
لاصفحات قليلة تتلى (أولا تتلى) ثم تتطير في الهواء وذلك لانها
جمعت الى بهاء المنظر جمال الطبيعة وقرنت بين حسن الصناعة
ونشاط السكان مما يجعلها جديرة بان تشهد اليها الرحال وينزل بها
اولو البصائر والابصار الايام الطوال بل الشهور بل الاعوام

نابولي ورؤية
اول مدينة
من أوروبا

والذي يضاعف حسنها في نظر القادم اليها من الطريق التي
اتخذناها (طريق فودجا) انه يوافيها بعد ان يقطع كثيرا من القياقي
والقفار ويسير خلال الجبال الموحشة والارض اليباب وتحت
السراديب المنقورة في الصخور وفوق القناطر المقامة على الوديان
والاغوار وبين الهاويات الخاويات وكل ذلك يجعله غير مستأنس
ولا بنفسه متوجسا خيفة من كل ما يحيط به حتى ان الخيال
(أو الحقيقة) ليصور له ان باخرة البر ذاتها قد انعمت بقوة الحياة
فتولاها الرعب وتملكها الجزع فأخذت تتلمس في مشيتها وتسير
الهيونا (لاعن تجتر) بعد ان كانت تسمى على عجل فينقلب
الصغير الخارج من صدرها زحيرا يمازجه صوت أبح خافت يعاون

عود لوصف
الطريق الى
نابولي

على إكمال الوحشة وابعاد الاثناس وهي في غضون ذلك تنساب فوق الوهاد وتحت النجاد كأنها الافعوان (يخرج ليكون فائلا أو مقتولا) ولا يزال هذا حال الراحل وحال مطيمته حتى يصل بالسلامة الى نابلس الغرب الاوروبي ولكن (شتان بين مشرق ومغرب) فيحمد غيب السرى اذ يرى نفسه في مدينة هي في الحقيقة كالخديقة الانيقة ناعم البال منشرح الفؤاد ويصدق قول من انشا (وبضدها تميز الاشياء) ولكنى أترك الاسترسال مع هذا التيار فقد القيت عصا التسيار وقرت العين باجتلاء محاسن هذه المدينة المبانعة الرائعة الناصعة ومعاهدها الباهرة الزاهرة الفاخرة وخدمى حديثا وجيزا على بجملة وانتظر اذا أردت التفصيل في الرحلة

هذه المدينة أسسها أقدم قدماء الاغريق في الزمان العتيق ^{عجالة على نابولي} العتيق وسموها بلسانهم نيابوليس (Neapolis) أى المدينة الحديثة وكان لها اسم آخر غير شائع وهو پارثنوب (Parthenope) وقد حرف الطليانيون اسمها المشهور الى نياپولى ثم نابولى (Napoli, Neapoli) والنفساوية الى نابل (Naples) وعرب هذا الزمان الى نابولى وقد ورد اسمها في كتب الجغرافية العربية القديمة (نابل ونابل الساحلية ونابل السكتان) اكثره هذا الصنف ومنسوجاته بها في قديم الزمان) واما نابلس

(اونابولوس) المعروفة في الشام فقد أطلق الرومان عليها هذا الاسم غضبا والغوا اسمها القديم وهو شكيم (Sichem) الوارد في التوراة وقصص الانبياء ولقد اخطأ ياقوت حيث جهل الاصل اليوناني لهذه التسمية فانتحل لها اشتقاقا من عندياته أونقلا من غير تثبت فقال في معجمه انها مركبة من « ناب » أى سن ومن « لوس » أى التنين بلسان السامرة فيكون الحاصل من معنى اسمها « ناب التنين »

وايست أهمية هذه المدينة وبموجبها بسبب أقدميتها وما بقي بها من آثار أهلها السالفين فانها اخلو من الخلفات والاطلال التي يقصدها عادة الزوار في المدائن القديمة العهد مثل نابولي وانما هو موقعها الذي لا يزيد عليه في العالم كله سوى موقع القسطنطينية وحسبي هذا التمثيل للدلالة على انها جمعت المحاسن الطبيعية الشائقة والمناظر البهيجة الرائقة فهي على هيئة مدرج ينحدر على سفح تلال تنهى الى البحر وفي شرقها بركان فيزوفيو (Vesuvio) المعروف عند العرب بجبل النار) وحواليها تلال ترى المنازل نازلة من أعلى قللها تنرى الى منتهى سفحها فاذا ارتقى الانسان احدها نظر الى المدينة بجملة ما فرأى من شوارعها الصاعد والنازل والمنحدر والمستوى والمنحط والعالي ومع ذلك فالهواء فيها كلها جيد والحركة

مستديمة لانها من أهم موانى هذه الديار وأكثر مدائنها فى العمار
ويعتبرها أهل السياحة والاسفار من أجل الامصار وأبهج
مواقع الدنيا على الاطلاق وقد كان خليجها العجيب يجذب الى
نواحيها الاغراب من جميع الاصقاع وما زالت الآلاف منهم تتردد
أيضا فى هذا الزمان على ربوعها الغناء وحدثتها الفيحاء
للرياضة والتزاهة ومن الغريب أن حسن موقعها جعل الاجانب
يطمحون اليها كما ان رخاء العيش فيها أوجب رخاوة أهاليها فلم
يزودوا عن حياضهم ولم يصدوا الفاتحين وغاراتهم فتوالى عليهم حكم
اليونان فالأوسكيين (Osques) فالرومانين فالقوط فالبورنظميين
فالنورمانديين (الذين يذكرونهم العرب باسم الجوس) فالألمانيين
فالأسبانيين

ومدينة نابولى المذكورة هى مدينة كبيرة ذات شوارع واسعة
ومبان شاهقة تفرجنا فيها على مربي الاسماك (Aquarium)
ورأينا معيشتها وهى فى نفس ماء البحر على أحجار الصخر وفى خلال
الاعشاب المائية بشكل غريب ومنظر معجب وتفرجنا على
القصر الملوكى وقد كان تشييده فى سنة ١٦٠٠ وفيه من الصور
والرسوم والتماثيل والموائد ما يدهش الانظار ويحير أفكار أولى
الالباب ويقضى بالعجب العجاب وهو متسع الارضاء فيه متازه

فسيحة جدا ترى الاشجار فيه منضودة على شكل الاسوار وهيئات
المثلثات والمربعات والمنحنيات وأغصانها مشتبكة محتبكة منضودة
مدودة مقصوفة منضوفة بحيث تتكون منها أشكال
وتراكيب على طراز غريب وترتيب عجيب ورأينا فيها مربى للطيور
ولكنه ليس بالشيء العظيم ورأينا الاشجار الباسقة والمياه الدافقة
والخضرة المنضرة التي تتشذب بمرآها الازهان وتكتحل بطلمعة نورها
الاجفان فلا عجب اذا كان بنو الطليان من أجود أهل الارض في
اتقان الشعر واجادة التصوير واحكام الرسم والبلوغ في الصنائع
المستظرفة والفنون الجميلة غاية الاتكاد تدركهم فيها أمة أخرى
فقد رأينا في هذا القصر الطائل من الرسوم والنقوش وأساليب
العمارة والتفنن في النحت والاعراب في التجميل والتخيل مالاتفي
هذه الجمالة بعشر معشار ما يستحقه من البيان ثم جلنا في شوارع
المدينة صاعدين هابطين متأملين اقتدار الالهالي وشغفهم بتجميل
أما كنهم وتزويقها بما يستوقف الانظار ويقضى على الناقد المنصف
بان يقضى لهم بسلامة الذوق وحسن الاختراع

لمخططة في
الحساسن

وهنا استمحت أيها القارئ ان تقف معي برهة امام الجمال وتؤدى
له واجب الاتاوة مقرونة بالنسيب والتهليل والتكبير (سبحان الله -
الله الله - ماشاء الله - الله أكبر - ان الله جميل يحب الجمال)

فلما من عهد مابارحنا الاسكندرية وفارقنا سان ستيفانو (ملتقى
الغادات الحسان ومجمع الغانيات المعجمات) لم يستقر طير نظرنا على
شيء من اغصان الملاحه سوى اتنا كنا نرى في طريقنا من برندى
الى فودجا الى نابولى بعض أشباح يتسبن الى حواء ولانسبة وهن
من قبح الصورة ومماجة الوجه بحيث لو رأهن شيخ الابالسة لعدل
عن الوسوسة واستبدل الاغواء بالفرار والاغرب من ذلك ان
وجوههن تكون جافية واقدامهن حافية وشعورهن منتوفة
ورؤسهن مكشوفة ومع ذلك فلا بد لهن من العظامة أو ما يقوم
مقامها كان تمتاز الواحدة بالفسستان وتتشع بالصدر لاطهار قد
هو أشبه بالقدروما زلنا على هذه الحال حتى ظننا ان أوروبا انما
ترسل الى بلادنا أفضل ما فيها من العيون الناحرات الساحرات
واللحاظ الفاتكات فلما قدمنا هذه المدينة رأينا الخير فيها
والحسن في أهلها فحمدنا الله وقلنا هذه بشائر الخيرات وباكورة
الحسنات ولقد كان منظرنا وخصوصا الرفيق الموافق والصادق
الصادق الشيخ محمد راشد يسترعى منهن الانظار فكان لى بذلك
فرصة أعتمتها لتعويض مافات والتأمل فى صنع ربك ذى الجلال
والاكرام فكانت الواحدة تحمق اليها فتترسل سهامها من فائر

الاحباط والاخرى تستغرب من شكلنا فيفتترفها عن درّ يأخذ
بجيمات القلوب ومنهن من كانت تترك عملها الذي خرجت لاجله
من كناسها وتسعى خلفنا تستغرب شكلنا بينما نحن معجبون بشكلها
ومنهن من كنّ يطلن من الشبايك فيشبعن الفؤاد ولا حرج
عليهن ومنهن من كانت الخواتم بخصورهن اليق من الحياصى وغير
ذلك مما يطول شرحه ويقصر براعى عن بيانه حتى اتانا لم نرحيله
للتخلص من شرك هذه الشبايك سوى التجميل بالرحيل فقصدنا
المحطة

المتاع
وعذابه
فى السفر

فوقعنا فى شبكة لم ~~تسكن~~ لنا فى حسبان ولم تخطر لنا على
بال وذلك ان عمال السكة الحديدية ابوا الا ان يدفعونا الرسم على
ثلاث شنطات من متاعنا وابقاء شنطة واحدة تحت يدنا فاطهرنا
لهم شدة الغرابية من تنوع المعاملة فى برندزى أولا وفى نابولى ثانيا
وقلنا لهم أليس القانون واحدا فى ايطاليا كلها أم هل يختلف
تطبيقه بحسب الازمنة والامكنة والاشخاص فكان جوابهم لنا
(برندزى هى برندزى وأما نابولى فهى نابولى) فلم نربدا من تقديم
ماطلبوا ولكنى حررت هذه الجمله فى مذكراتى واذلم يكن لى من
الوقت مايكفى للتمقى فى البحث عما حوته هذه الكلمة الجامعة
من دقائق المعانى وعويص الافكار آثرت ان أطرحها الآن على

حضرات علمائنا الاعلام ليجعلوها موضوعا للتمون والشروح
والحواشى والتتميمات والتكميلات والتذييلات والتعليقات والاخذ
والرد والتوجيه والاعتراض والقييل والقال حتى اذا رجعت
بالسلامة ووقفت على خلاصة الابحاث أخذتها عن الثقات غنمة
باردة وزينت بها صفحات الرحلة

الطريق
لرومة

ثم سارت بنا باخرة البرالى رومة فى طريق تحف به من الجانبين
أشجار مدت أعصانها فاشتبكت فكانت أشبه بعدارى الجان خرجن
من الجبال المحيطة وتهايان للرقص على أجمل منوال فمدت كل واحدة
منهن ذراعها الى اختها ذات اليمين والى تربها ذات الشمال ووقفن
فى انتظار القطار حتى اذا اقترب منهن تحركن حركات منتظمة
معجبة بقدود مياسة واصوات مطربة واستمر الحال على هذا
المنوال بين الجبال الصماء تتخللها الخضرة الزهراء والاشجار السماء
حتى بلغنا رومة بسلام وتوجهنا الى الفندق واسترحنا

الرسالة الثالثة

رومه

الاندهاش من رؤية رومية ورومية الكبرى ورومية المدائن في كتب العرب ﴿ من فلورانس في الثلاثاء غرة صفر الخير سنة ١٣١٠ (٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٦) رومية

يا للعجب يا للعجب كائني نسيت الكتابة بلسان العرب أو كأن
مقامي بهذا البلد أضع اللب واذهب الرشد فكيف العمل فكيف
العمل وأنا كلما حاولت التحرير أو أخذت في التخيير استعصى القلم
وحن جواد التفكير وانمات على المطالب انهي الا لا يجعلني أعرف
بم يجب الاستهلال ومتى يكون الختام وكيف أتخلص الى تخليص
شيء من المذكرات الجمة والفكرات العديدة التي اقتطفتها أو جمعتها
على هذه المدينة الختمالة في حبل البهاء والجمال الجملة بما أودع فيها
من آثار العظمة ومشاهد الجلال ففيها العماثر الفاخرة الفائقة
والقصور الواسعة الشاهقة والمزارات المتعددة المتنوعة والبقايا
الكثيرة مما خلفه فيها القياصرة والامبراطرة والقناصل والامراء
والاشراف والكبراء والسادات والبابوات فانها من يوم نشأتها الى
الآن ما زالت عاصمة السياسة والحل والعقد وكعبة الديانة الوثنية

نخامة
رومية

ثم النصرانية وكل من تولى الامر فيها يسهى بما فى وسعه لتوسيع نطاقها ويينذل جهده فى زخرفتها بما يوجب له الفخار ويستبقى ذكره على عمر الايام فلذلك ترى شوارعها فسيحة وميادينها أنيقة وفى كل ساحة فسقية يتدفق الماء منها وفيها باشكال معجبة واصوات مطربة وقد نصبوا فيها كثيرا من المسلات التى استجلبوها من بلادنا مع ان عاصمتنا القاهرة خلومنها بالمرّة (والذى بقى عندنا من المسلات مازال فى موضعه يندب التمدن الذى كان حوله ويتحسر على عدم العناية به مثل أمثاله فى أوروبا وأمريكا) وللبانى فى رومة منظر رائق بهيج بألوان زاهية براقة تعجب النظر وعلى جميع جدرانها وأبوابها ونوافذها ومطلاتها وشرفاتها وأفاريزها ترى التماثيل من النقوش البارزة والتصاوير المختلفة والرسوم المتعددة كأن كل واحد من أهاليها أراد ان يستوقف السائحين والجانئين والرائحين والجانئين بل هذا غرام قام بهم وشغف لازمهم فلا مندوحة لهم عنه لانك ترى حتى الجزار يزوق حانوته بأغصان الاشجار ويعرض اللحم على الانظار مقطعا قطعاً ملتقاً أعلاها بقراطيس من الورق الابيض تنضم ثيابه الى بعضها فتجمعها زهرة من الزهر المختلف الألوان ومثله بائع الخضار فى حسن الترتيب وجمال العرض ولا ينقص عنهما غيرهما فكل واحد يتفنن فيما يلزم الخلائق بالاقبال عليه (واللى مايشتهرى يتمرج)

غرام أهلها
بالتجميل
والتجميل

كأس رومة

وقد اغتبتنا فرصة مقامنا بهذا البلد لزيارة ما به من الكنائس التي
يضربها المثل في الضخامة والفخامة والتمانة والحلابة والتناهي في
الابداع واللاتناهي في الاعراب والتشديد الهائل والزخرفة التي تلهي
ولاشك المتعبدين والمتعبدات وتشغل المتنسكين والمتنسكات بالنظر اليها
(والى بعضها خصوصا) وان العقل ليحار في كيفية تشييدها ويدعن
باقتدار ذلك الذي صورها بالقلم على القرطاس ثم ابرزها مجسمة على
سطح البسيطة حاوية كمال التناسق وتتمام التناسب واحكام الصنع
واتقان الوضع في كل نوع من جدرانها وعمدانها وسواريتها الى
عقودها الى سقوفها الى قبابها حتى انه لم يترك مقالا لقائل ولم يدع
مجالا لاستعمال ليت ولو وفوق ذلك فان للقوم بحفظها عناية لا بعدها
ولا قبلها ففي كل كنيسة منها سلالم للتعمير والترميم والتجبير والتميم
ومع كثرة الكنائس والبيع بها (فانها تكاد تناهز نصف الالف)
رأينا القوم مشتغلين بتشديد غيرها وأنت تعلم ما حاق في هذا الزمان
بالحكومة البابوية والسلطة الدينية من الضعف والاضمحلال في
بلاد أوروبا على العموم وايطاليا على الخصوص

بعض
مشاهد
رومة

هذا وقد زرنا معرض الصور والرسوم ومصنع الفصوص والفسيفساء
في قصر القاتيكان ورأينا بهما من الغرائب والعجائب التي يقصر
عن تفصيلها هذا الاجال ثم شاهدنا ما بالمدينة من آثار القدماء

والمناحف والمعارض والقصر الملوكي والاطلال القديمة والسراديب المنقورة في قلب الجبل حيث كان النصارى في مبداء أمرهم يلحون اليها أيام الاضطهاد ويتقون بالاختفاء فيها شرعياد الاوثان

تخليد ذكر
الاعيان
والامجاد

وقد رأينا في كل ساحاتها وباحاتها وميادينها وبساتينها وفي كافة الارحاء من منازلها وشوارعها تماثيل كبارهم وعظمائهم الذين قاموا بخدمة الوطن وترقية شأن البلاد وتعزيز مقام الاممة بحيث ان ذكرهم لا يمكن ان يحوه الزمان وبذلك عرف الاهلون عالمهم وجاهلهم كسيرهم وحقيرهم مقدار الاجر العظيم الذي يصيبه من ينفع الوطن من أي وجهه كان وبأي عمل كان ووقف السكان عموما على توارخ اولئك الذين استفادت منهم البلاد فائدة حسية أو معنوية قليلة أو جلية واتخذوهم نموذجاً لتهديب الابناء الناشئين وتربيتهم على السير في جاداتهم ومحاماتهم في خدمة الاوطان

تأسف على
عظماء مصر
واهمال
ذكرهم

وهنا ينبغي لي ان أقف قليلا كاسف البال متحسرا على اهمال أهل بلادنا هذا الامر الذي هو أفضل الاعمال وأجل ماتشد لاجله الرجال فان الذي يعلم انه اذا خدم وطنه عرف قومه قدره وأجلوا ذكره وشادوا له الاثار والمباني التي تضمن له عمرا غير العمر الفاني وتستديم حياته الى كل جيل لاشك انه يضحي

النفوس والنفيس ويواظب على السعي والعمل لنيل هذا الشرف
الذي ليس بعده شرف . ألا ترى ان الكثير من علماءنا
وفضلائنا قد انقرض ذكركم بمجرد دخولهم في رسمهم اللهم
الا أن يكون لهم كتاب متداول مشهور (وهم الاقلون) وهل
يصح لي أن أعترف بنى وطني الكرام بان السعي في تحليد ذكركم
الاماجد الامائل الذين يخدمون الوطن هو أكبر باعث ينهض
بالنفوس ويحرك العزائم ويحدد القرائح ويوجب الاقدام على
العظام فنتغم الامة والوطن أجل المغامير ويربحان باجتهاد أفرادهما
وسعي أبنائهما من غير أن يكونا على الدوام في حاجة الى الاجنبي
والدخيل لانسير الابعسكة نورهما ولا نهتدى الا بهدائيهما
وارشادهما أما ان لنا ان نفطن الى هذه الحقائق ونذكر ما وراءها
من المنافع فنطرح الحسد منا لبعضنا ونسعى جميعا في وجهة
واحدة لصالح الوطن العزيز كل بقدر ما عنده ونعصد بعضنا لنكون
كالبنيان المرصوص فلعل أهل بلادنا تهزم الاريحية المصرية
وتشور فيهم النخوة الوطنية والحمة الاهلية فيتمشيهون باهم أوروبا
لنوال الفلاح والنجاح

أواه . تحدى نفسي عند كتابة هذه السطور بان الكثير
من القراء لابد ان يستخف بهذا المقال وليكنى أنادى من له حياة

أو كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فتلك لهم -رك عواطف
وطنية واحساسات قومية وددت لو يشعر بها أهلى كما تملكنى
حينما رأيت الخاصة والعامة فى هذه المدينة واقفين تمام الوقوف
على جميع ماجريات أولئك العظماء الذين أقيمت لهم التماثيل
والانصاب وتزينت بصورهم قصور الملوك وقاعات الدواوين حتى
كان ذلك باعنا للامة الطليانية على مباراة الامم العظيمة ففتحت
المعامل الكبيرة وافتت الشركات الجليلة وأقدمت على مهام الاعمال
حفظت ثروة البلاد فى البلاد وروجت الصناعات الوطنية فاكسبت
أيما اكتساب نعم لانكر ان الدولة الطليانية واقعة الآن فى أزمة
مالية وقد برئ فيها جمل الفقر ولكن لها عذر واضح من حيث انها
فى وقت قصير انشأت موانى حربية بحرية وأنجزت كثيرا من الاعمال
العظيمة ذات المنفعة العمومية لى تضاهى الدول الكبيرة والامم
المثيرة فكانت كالزراع ينفق كل ما عنده ثم ينظر الغلة والريع
وقد بدأت تجنى ثمار ما غرست وأخذ الخير يدر عليها واطن أنه لا يمضى
عليها نحو النصف مائة حتى تنفض ما عليها من غبار الغاظة وتعميق
مما حاق بها من الارتباك والاعسار

وكأنى بك أيها القارئ قد مللت من هذا الاستطراد وتوت منى
بدل ذلك اننا كاشفك بما رأيت فى هذه البلاد من الامور العرضية
أمور نافوية والقيظ باوروبا

١٨٩٤

الثانوية التي قد يكون وراءها فائدة مجلبة جزئية يمكن ادخالها في بلادنا مثل العربات والسكة الحديدية والبوسنة والتلغراف والبواخر والبوليس وما أشبه ذلك من التنظيمات من انهم يضعون اسماء الشوارع على رقع مربعة من الرخام لكي لا يتطرق اليها البلاه بسرعة كما حصل عندنا في الاخشاب التي وضعتها نظارة الاشغال في القاهرة بمصاريف باهظة ولكني أقول لك ان الحزب شديد جدا واني أقاسي منه أكثر منك من عهد مبارحتي للاسكندرية الى هذا اليوم حتى كأنى ذهبت الى اسوان أو السودان فعمافتي من ذلك الآن عافاك الله واعتقد ان الحر في هذا العام بأوروبا اشد منه في كل عام بل لم يعهد القوم له مثيلا قبل الآن ولقد كنت أستغرب ذلك في أرض أوروبا حتى قرأت في جريدة الترييونا الصادرة في يوم الاثنين ٢٢ أغسطس تلغرافا من باريس ينبئها بان اشتداد الحر فوق العادة قد أتلف صحة الجنود الذين في المناورات في جملة جهات وآخر من ويانة يقول ان القيظ مستمر فيها وانه وردت عليها الاخبار من جملة مدائن ان الحر سبب وفيات كثيرة وان سبعة من العساكر زهقت أرواحهم من اشتداد الحر بينما كانوا في المناورات وان الفلاحين قد اضطروا وترك أعمالهم وان الفاكهة قد أصابها الضرر

بليغة فكيف لاتشفق عليّ مع ذلك كله وقد كنت أيضا بالامس
(يوم الاحد) أتريض في رومة ورأيت في منازلها من رأيت
وما رأيت وحسبك منى هذه الاشارة

الرسالة الرابعة

مدينة فلورانس

ولواجوب الوجود بلندره في يوم موعود وميقات محدود الحضور تأسف
احتفال مشهود والاشترك في مؤتمر معدود لا طلت المقام برياض لفراف
رومة الغناء وأكثر من التجول في ساحاتها الفيحاء ولكنني تزودت رومة
من شميم عرارها وتشبعت من محاسن آثارها فودعتها بالعين
والنفس متطلعة اليها والقلب شغف بها ورددت الدعاء لدولتها
بالثروة واليسار وما ركبت القطار حتى بادرت فأعقبت ذلك بالدعوات
الصالحات المستجابات لوطني وخلاني وأهلي ونفسي وذلك لأنه خيل
لي ان الدعوة مقبولة في هذه الاقطار لاني ما خرجت منها الا بعد
ان التزمت بالمساعدة على انشاء ماليتها (وأول ما يجني على المرء اجتهاده)
فان عمال المحطة قالوا لا بد من دفع أجرة النقل على الشنطات مذاب
الاربع التي مع رفيقي ومعني فأفهمت ناظر المحطة ما وقع ببرندزي المتاع
ثم بناولني من أخذ الاجر في الاولى على ثنتين ثم في الثانية على

ثلاث فقال ان هذه الشنطات تزيد طولاً وعرضاً في القياس عما
يبيحه القانون لافراد الناس فأخذ العجب من كل مأخذ اذ لم يكن
لى ذلك في حساب وقت لعل القوم لا يعرفون الهندسة وقد أتقنوا
المتوالية العددية من علم الحساب فتوليت الدفع في المدينة الثالثة
من ايطاليا على الشنطات الاربع ووطنت نفسي على اتباع هذه
الخطة في كل محطة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً

وصول
فلورنسة
ثم سار بنا القطار يجوب البلاد جوباً وينهب الارض منهما الى
ان بلغ بنا مدينة فلورنسة المصطلح على تسميتها عند أهلها بمدينة
فيرنزا التي تكلم عليها الشريف الادريسي في نزهة المشتاق وسمها
فلرنسة من غير اشباع كما نفعل نحن اليوم تقرباً من اللفظ الافرنجي
فنزنا فندقا لئنا فيه ريثما استرحنا ونفضنا غبار السفر (هذه
العبارة من باب المجاز لوجهين الاول ان سفرنا كان بالليل والثاني
ان السكة الحديدية في ايطاليا لا تثير قط عتيراً مهما كانت سرعة
القطار لان المصلحة معنية كل الاعتناء بوضع الزلط والحصاء على
طول الطريق فهي نعمة للمسافر تمتعه بما يبدو أمامه من المناظر
من غير ان يخشى ضرراً ماعلى النواظر) وبعد ذلك خرجنا لتروح
الروح بارواح ريحان هذه المدينة ونزه الطرف في طرقها القديمة
وتحفها الثمينة فأخذنا عربة قلنا لسائقها ان يدلنا على دليل خبير
علىك
بالشباب
نخبرنا بين شاب وشيخ كبير وقال لنا ان الثاني أفضل لمعرفة بالمدينة

وطول ممارسته لهذه الصناعة فاخترناه على بركة الله راجين منه
الافادة بالدلالة اللفظية والمعنوية ولكن وقار الشيب كان مستويا
عليه أكثر من دلالة اللزوم حتى أزمه السكوت والسكون فكان
جالسا امامنا كأنه ثالثنا بل رابعنا (بحسب العريبي) يجمل ناظره
ذات الشمال وذات اليمين يتأمل ويتفكر تشبها بالمتصوفين
أو المتفلسفين ولا يجيب عن أسئلتنا المتعددة إلا بما فيه قليل
القائدة فأسفنا على اختيار الاختيار ورجعنا على أنفسنا باللامنة
ولات حين ندامة ولكننا تسلينا أدل بأن غيرنا يكون له خير موعظة
بما جرى لنا والعاقل من تعظ بغيره

أما المدينة فلها من الداخل منظر بعيد من الرشاقة مجرد
من الملاحظة لأنك ترى القصور القديمة فيها شاهقة متواصلة
والمعائر الجسمية شاهقة هائلة وعليها من الرزانة جلاب ومن الجودة
والحفوة أبواب ليست قائمة من الخارج على أعمدة ولا أبواب كعمدة
ولا امامها أشجار نضرة أو خضرة مزدهرة حتى تروق خاطر الخطار
وتقر ناظر النظار فهي بالمعاقل والمخاصن أشبه منها بما كان
المساكن شادها سادات المدينة وأشرفها في القرون الوسطى للتحرز
بها والالتجاء اليها ولكنك إذا سرت بعيدا عن سرة المدينة سرت
برؤية الرياض الراضة والجنات الطويلة العريضة والمساحات التي

هيئة
فلورانية
ومحامينها

هى أكثر من أن تحصى والميادين الشائقة بما حولها من الأشجار
والازهار التى أوجبت تسميتها بمدينة الازهار فترى حينئذ عليها
من الجمال حلة باهية ومن المحاسن ما تحتال فيه كالعادة الهيفاء
خصوصا اذا ارتقيت ربواتها أوقصدت منتزهاتها ولاسيما المنتزه
الكبير فإنه من أنزه المنازه التى رأيناها وأبهج المباحج التى عرفناها
اذ هو من الاتساع والامتداد وجمال المنظر ورونقة الترتيب بحيث
يجيد الفكر ويحسن الذوق ويجلو صدأ العقل ويغذى الروح
ويصفى القرائح فلا يحب اذا تفرد أهلها فى تعشق الطبيعة
استعداد
وبرعوا فى الفنون الظريفة ولا بدع اذا قلت فى هذا المقام ان كل
الطليانية
طليانى لابدان يُخلق نابغا بالطبع فى الرسم والتصوير والنقش والنحت
للفنون
والتعمير أو التجميل والتحرير أو الموسيقى والاعانى ونظم القريض
المستخرقة
والمعانى فقد زرت معرض الصور المعروف بالرواق ورأيت فيه آثارا
صناعية جميلة وبقايا فنية جميلة أوفوق جميلة مما لا تكاد تضاهيه
مجموعة فى الدنيا القديمة والجديدة حتى لقد ملت من كثرة التأمل
والمشاهدة وتعبت من الاستمرار فى التسيار مع تيار هذا المعرض
العريض الطويل فعادت (لحجز لانقص) عن اتمام مناظرة ما به
من التحف الثمينة المحيية وعولت على الخروج منه مجعبا بما فيه
قادرا اياه حق قدره ثم طفنا بالمدينة وتفرجنا على ما فيها من بدائع

الصناعة وبحائب الطبيعة مما أدر شرحه للرحلة فرأيت في منتهىها ^{عناية}
هرما صغيرا مبنيا بالأحجار الكبيرة فحسبته من مصنوعات أجدادنا ^{الأفرنج}
المصريين وقد نقل الى هذه الديار كما نقل غيره من أحاسن الآثار ^{بالصغار}
ووضع بجانب المنزه عناية به وحفاوة ولكني علمت من التساؤل
ان بعض العمال ابتناه على نفقته لاصطناع الثلج وحفظه بدفجبت
من هذا التفنن في الاتقان واستغربت من اقتدار بنى الانسان وعلى
ذكر الثلج والتفنن أذكر انى رأيت رجلا يبيع الماء المثلج في برميل
لطيف ظريف نظيف خفيف ذى حنفيتين من الخارج وانبوبة
لوضع الثلج من الداخل يحمله على ظهره ويسعى به لبيع الماء من
غير عناء أينما شاء واحدى الحنفيتين مخصصة لغسل الكاس التى
يستقى منها الناس وقيل لى ان الرجل اخترع ذلك الطراز منذ عشرة
أيام وأما غيره فلا يزال يبيع الماء المثلج فى أحواض من الاخشاب
يقف بجانبها ولا بد للظمان من الورود اليها وقد رأيت فى جميع
المحاط التى مررت عليها شبانا وقميات بل قميات وشبانا يحملن
ويحملون بأيديهن وأيديهم شيئا شبيها بالاسفطامركبا من اسلاك
ينقسم الى عيون عدتها ثمان أو عشر فيها اكواب مترعة يمررن
ويعرون بها على القطار لتقدم الماء المثلج لمن شاء من المسافرين
فى نظير صلدى واحد (أكثر من مائةين بشئ قليل)

وعما رأيته بهذه المدينة رجل مقعد سطيح ولكنه يسمى بنفسه
كما يسمى غيره بقدمه ويستمتع الاحسان من كل انسان في أى
مكان فانه اتخذ عربة صغيرة بقدم ما يجلس عليها ولها أربع
عجلات وبما أن الشوارع منتظمة والارض ممهدة والسير ميسر في
جميع أنحاء المدينة فما على صاحبنا الآن يضغط بيده على الارض
قليلا لتحريك العجلات والتنقل من طريق الى طريق وقد استغنى
بهذه الكيفية عن اتخاذ أعمى يحمله ويسمى به في نظير
ارشاده اياه على الطريق ومقامته ما يصيبه من الرزق ولا شك
عندى أنى سألني رفيقه الاعمى (بحسب ما جاء في حكايات فلوريان) يدبره
وسيلة يتوصل بها الى نوال الحسنة من غير احتياج لنظر المقعد
وتكلفه حمله على كتفه لان أهل هذه البلاد بلاد أوروبا أهل
حركة وعزيمة وتفنن واقدام وهنا استوقف القلم مرة ثانية بالرغم
التشوق للوطن
عن البواعث الكثيرة التي تجيش في الصدر كغلمان القدر فتدعوه
للاندفاع في هذا التيار واني لاعانى هذا العناء خشية على القارئ
من الملل وشفقة على نفسه فقد بترج بي التشوق الى الاوطان
واشتد بي التشوق الى الاخوان لعدم استقرارى في مكان وتعذر
استطلاع الاخبار التي تتوق اليها النفس ويحوم حولها القواد
فيا لله من البعاد ويا لله من غالب شعرائنا كيف يصنون وهم في

مستقرهم عواطف واحساسات لا يشعرون بها ولكنها بجي كالمها
طبق المراد أهذا من صدق الحدس أو من سلامة الفطرة
وياليتني كنت تخرجت في الشعر حتى كان ينفتح امامي المجال
ويتسع لي المقال

الرسالة الخامسة

(مدينة بيزا Pisa)

لقد أبدعتم يا أهل البديع في تنويع الطبايق فهو لعمركم من سلامة
الاختراع ولقد برعتم يا أهل المنطق والكلام في بيان التناقض
والتضاد ومعاني الاجتماع والارتفاع فان وقتي على كل حال أعتبره
ثميناً نفيساً ولكني أجده الآن طويلاً قصيراً - أما الاول -
فلمكثرة الشجن بالحنين الى الابل والوطن - وأما الثاني - فلمتقصيره
عن مساعدتي على زيارة مدينة البندقية (فنسيا) فاني كنت
بفلورنسه وليس بيني وبينها سوى ست ساعات ومع ذلك لا يصح لي
ان أتعب وأقول ان المشتهى قريب وماليه وصول فان الطريق
ميسر والوصول أسهل من ان يدبر والبخار مستخر والقطار حاضر
ولكن الوقت سلطان قاهر فكيف لا أتمكن من زيارة تلك المدينة

(٣ - رسايل)

التي قامت فيها الخلبان مقام الحارات والجداول مقام الشوارع
والمراكب مقام المربكات والزوارق مقام العربات والمقاذيف
والمدارى مقام الخيول الجوارى ... ألان الوقت محسوب
والقيام الى جنوة أمر محتوم فالبدار البدار الى دار الوفاة والعجل
العجل لتأدية واجب الرسالة ولكنى أستعصت عما فاتنى بقسمة
طريقى الى قسمين للوقوف فى بيشة أكثر من ساعتين كاتانى
الحقيقة أبرك من يومين فالتخذت دليلا من أهل الشباب معدن
القوة والفتوة وأمل المستقبل فطاف بنا المدينة وأطلعنا على
محاسنها فعوض علينا ما خسرنا بسبب اختيار الشيخ فى فلورنسه
رأيت أمورا كثيرة فى هذه المدينة الصغيرة (التي لا يتجاوز
عدد سكانها ٤٠٠٠٠٠ نسمة ومصرنا القاهرة فيها نحو ٤٠٠٠٠٠٠
نفس) وانى أحيط علم حضرات القراء بالنبا القليل من غير
تفصيل

عجالة على بيشة هذه المدينة تسمى فى كتب الجغرافية العربية القديمة بيش
وبيشة وقد وردت باسم بيزا فى كتابه الشريف الادريسي من
عليها حين من الدهر كانت فيه خاضعة للملك توتس فى أيام دولة
الموحدين (أو الملمين لا أتذكر الآن ذلك بالتحقيق) فانى رأيت
بدار المحفوظات فيها التى تشبهه الدفترخانة المصرية عندنا (من

غير تشبيه ولا تمثيل) صكوكا كثيرة وعهودا متنوعة وإجازات غير قليلة وبعضها يتضمن الضمان لاهلها بالحرية التامة والامان في كافة المعاملات واقامة شعائر الاديان وهي صادرة لهم من أولئك الملوك (وقد اعتنى العالم الطلياني أمارى بنشرها وترجمتها) ورأيت اسم البلد فيها هكذا - بيثة - وقد شاهدت في هذه الدار أيضا غير ذلك من الاوراق الرسمية التي اتخذتها كل دولة تولت عليها أو كان لها علاقة بها ورأيت فيها على صغرها كثيرا من التماثيل التي تحيي ذكر أهم رجال ايطاليا أخص بالذكر منها تمثال الطيب الذكر فكتور عمانويل مؤسس الدولة الطليانية الحالية الملقب عندهم بأبي الوطن ولكنه كان كله مغطى بالاخشاب المنضودة بحيث لا يرى منه شيء ما وذلك لانه أقيم حديثا وسيحتفل بإزاحة الستار عنه قريبا بحضرة الملك والمملكة والاسرة الحاكمة ورجال الدولة وأهل الحل والعقد ثم زرت المدرسة الجامعة ومكنتها نظام المكتبة العظيمة ورأيت فيها من النظام ما يوجب الإعجاب بها مثال ذلك والمتاحف ان الكتاب الذي يستعار منها يوضع مكانه قطعة من الخشب بمقدار حجمة وعلى شكل الكتاب وتكتب عليها غرته وعنوانه الى ان يرد الكتاب الى محله وفي ذلك فائدتان أولاهما حفظ نظام الكتب وعدم ميلها على بعضها بسبب الخلو بينها مما يضيع

استقامتها واعتمدها وثابتها التنبيه على ان هذا المكان يشغله
كتاب مستعار الآن مع حفظ عنوانه وعمره لاعلام من يريد ان
يجيب ناظره على الكتب فقط ورأيت فيها أيضا صناديق من
الخشب على شكل الكتب توضع فيها المجلات الدورية وأخرى
لحفظ الكراريس والاجزاء التي تظهر في أوقات معينة من كتاب
واسع كبير حتى لا يتولاها التلف والضياع ومتى تمت الكراسات
والاجزاء جلدوها مع بعضها وأودعوها في المحل اللائق بها ثم زرنا
مدرسة المعلمين العليا وتفرجنا على معرض التاريخ الطبيعي وهو
وان لم يكمل لكنه حاو لكثير من التحف والظرف وفيه كثير من
الحيوانات النادرة الغريبة من حشرات ودبابات وأطياف وأسمالك
ومعادن وأحجار ونباتات وأشجار وثمار وأزهار وغير ذلك مما يدخل في
البرج المائل هذه الدائرة ثم زرنا كنائسها وبيعها وأغربها كنيسة بجانبها برج
وغرائب للمناقوس منعزل عنها وهو شامخ في الهواء لا باعتماد بل بانحراف
الصدى فإنه يميل بكلية على سطح الارض بمقدار خمسة أمتار أى انه
إذا أنزلت من أعلى قته خطا عموديا على مستوى الارض لكانت
المسافة بين نقطة مسقطه وبين جدار الاساس خمسة أمتار
بالقياس ثم عمدنا الى قبة التعميد وهي بناء آخر مستدير بجانب
الكنيسة من الجهة الاخرى وبينما نحن نتأمل في عجيب تركيبها

وبدع همدامها وحسن نظامها واتقان رسومها و... و...
و... الخ وإذا بالدليل صفت بيديه مرتين تنتين فأترجمنا منها
انزعاجاً شديداً لا يخطر على البال إذ أعقبهما دوى ولا قصيف
الرعود وهزيم أين منه قرعة المدافع المتواليمة في ساحة الوغى
حتى ظننا ان القيامة قد قامت وان الارض زلزلت زلزالها وأخرجت
الارض اثةقالها وان الجبال اندكت والسماء انفطرت (وامؤتراه
وامؤتراه) واستمر الصدى على هذا المدى عشرة ثوان فمجيئنا كل
الاجباب من هذا الصنع المحكم الذى لا يحاكيه صنع فى العالم

وقد كنا رأينا شيئاً مثل ذلك فى كنيسة رومة من حيث
تدبير الهواء فى صلب البناء اذ يقف الانسان بجانب سارية من
سوارىها ويكلم صاحبه من خرق صغير فيها فيسمع كلامه واضحاً
ظاهراً من خرق آخر فى السارية الثانية أو ان يقف بجانب
باب فى أعلى القبة ويسمع صاحبه وهو يناجيه بجانب الباب
المحاذى له على مسافة تقرب من المائتى متر ولكن ذلك كله ليس
شياً فى جانب ما رأيناه فى ينشئة ثم أخذ الدليل يوهو ويوهو
على عادة الافرنج فى المعنى والصدى يجيبه باجل أسلوب وألطف
معنى

جبانه بيثشة ثم تفرجنا على قرافة المدينة ويدعونها (كامپوسانتو) أى
الميدان المقدس أو ما أشبه ذلك فرأينا فيها رسوما كثيرة بارزة
ومجوفة وقبوراً في صلب الحيطان وتحت الاقدام ولكن ذلك
ليس من الغرابة فى شئ بل الغريب أن فى وسطها مربعا كبيرا
طينه كاه مجلوب من أرض بيت المقدس (أورشليم) جلبته من
الشام ٦٦ مربعا من سفائنهم تبركا بتلك الطينة الطيبة ولكى
يكون فى بلدهم قطعة من الارض المقدسة تخرج الازهار
والاعشاب الخاصة بتربتها فى معدنها الاصلى وقد دعانى الدليل
لاخذ شئ من تلك الازهار على سبيل التذكار

كنيسة بيجية وقد رأيت أيضا ببيعة صغيرة على حافة النهر لا يفصلها عن
الماء شئ وهى فى غاية الابداع والجمال مبنية بقطع صغيرة من المرمر
المختلف الالوان على شكل معجب وأسلوب جميل وأغرب ما فيها أن
سقفها من الداخل يشبه السقوف المصرية العربية القديمة من
حيث التطعيم بالخشب والابنوس والتلقيم بالصدف والعاج ولكنه
ليس كذلك بل كاه من الحجر المركب مع بعضه على شكل الفص
والفسيفساء فله منظر جميل بهيج يزيد فى محاسن المنتزه الكائن
على الضفة الاخرى من النهر وهوى فى غاية الحسن
أحسن بيثشة وبودى ان أختم هذه الرسالة بذكر شئ من الجمال فى بيثشة

فلا شك عندي انه كان أكبر شفيح لنوالها الحرية والامان من ملوك
تونس أيام كانت خاضعة لهم ولا يمنعني من الاقضية في هذا
الموضوع سوى خوفي من ان تتناول على السننة السوء ولكني
أقطعها واستريح منها حتى لا تبقى لي بالمرصاد فيما ربما ينساق
اليه الحديث في غير هذا المدينة مما لا يرى الكاتب بدا من ذكره
من باب الاحاطة ليس الا فقد كان مروري عليها وقت الظهيرة
وقت القييلولة وقت اشتداد الحرارة ومع ذلك رأيت الغميات
الرائحات والغادات الغاديات المشوقات المشوقات الهائجات
المهفهفات ذوات القنود والقنود والصدور والنحور والخصور
والشعور . . . وغير ذلك مما ألقىه على الشعراء ذوى
الوهم والخيال ليتكفوا بشرح حقيقة الحال

الرسالة السادسة

(مدينة جنوة)

لم أبارح مدينة من ايطاليا وفي جوانحي من اللهف عليها والشغف فراق بيشة
بها مثل ما حصل لي في بيشة حتى ان قلبي قد طغى على ويود
لا يتكلم الا عليها ولم يكن في وسعي سوى مفارقتها ولساني يكرر
على جناني ما في وطابه من قليل الاشعار الخاصة بالغزل والنسيب

فراق بيشة
ووصف
الانفاق

والغرام والتشبيب ولكن أين ذلك كله مما كنت أشعر به
ومما زاد توجعي على مفارقة محاسنها وأحاسسها ان القطار صار
يسير بين الجبال وعلى حافة البحر بالتمام فبينما هو يجرى تحت
الجبل وفي ظلام حالك اذ ترى نوافذ منقورة في الصخر الذي يحيط
بك من الجهات الست ترسل النور الى النفق والامواج الى جسر
السكة والطمانينة والسكينة الى الباخزة ومن فيها فمتجدد فيها
وفيهم عوامل القوة وتدب روح النشاط

ثم استمر الامر على هذا النهج فخرج من نفق وندخل في
نفق يوصلنا الى ثالث يتبعه آخر فآخر وهكذا والمسافة بين كل
واحد والذي يليه قدر الدقيقة أو أقل ترى الواوور يقترب فيها
من الطود الشاخ اقترابا شديدا حتى كأنه يستند عليه أو يأوى اليه
ليعصمه من الانزلاق في بحر الروم ولكنه متى دخل النفق
عجل السير واندفع بسرعة كأنه نجما من خطر لاقبل منه أولشجاعة
اوجدتها فيه العادة بل . . . في المسافر الذي مر تحت كثير
من الانفاق فباتقى يعبأ بها أو يسأل عنها فضلا عن ان أرضها
ممهدة مطمئنة وليست منحدره كإفي جنوبي ايطاليا والخلاصة اننا
وصلنا جنوة وزلنا بها لنتفرج عليها أولآثم على مظاهر الاحتمال

الذى سيقام بها احياء لذكرى أحد بنينا وهو الخلد الذكر
كرستوف كولب مكتشف قارة أمريكا

هذه المدينة تسمى جنوا Genova في لغة أهلها وحين Gènes اسم جنوة
عند الفرنسيين وورد اسمها كما رسمته في كتب الجغرافية العربية
القديمة وان كان أبناء العرب في هذا الزمان يكتبونها جنوا
أو جنوى و كثيرا ما كان اسمها موجبا للخلط بينها وبين مدينة
جنيف Genève في سويسرة عند بعض الذين لم يعتادوا التحقيق
والبحث بالتدقيق أما الذين وقفوا على الفرق وعرفوا وجوب التمييز
فيسمون الثانية (أى مدينة سويسرة) جنيفة أو جنيفا ولكنها
وردت في كتابة الشريف الادريسي هكذا (جنبرة) وسأبين لك
تعليل هذه التسمية وكثير من أمثالها بالتفصيل في الرحلة ان شاء الله

أما منظرها ففي غاية البهجة والجمال ولا أقول مثل كتاب الافرنج
منظر جنوة أو الذين حدوا حدوهم من أبناء العرب انها على شكل نعل الفرس
أو حدوته بل أقول انها كالنون وجوفها هو جونها ومتى خيم
الليل ترى هذه النون ساطعة كالهلال بل تتلاقى من طرفيها
بأضواء السفائن الراسية فيها فتكون كحلقة مفرغة قد ملئت من
الانوار ثم ألقى بها في تيار البحار ولا يقرب من مشابهاها فيما أعلم
سوى مدينة دمياط في أيام الزينة والمواسم الكبيرة

ولما أصبح الصباح نزلنا من نزلنا واتخذنا دليلا لنا (من
الشبان) فشهدنا عظمة المعدات وجمال الاحتفال الذي سيكون
لمن جعل العالم نوأمين وبلغنا ان الاسطول البريطاني بعد ان رسا
قبل غيره على مقربة من المدينة أفلح (أوابخر) على نية الرجوع
قبل الاجل المضروب ولم يكن في الميناء سوى ثلاث مراكب
طلماينة وواحدة هولندية فوطنا النفس على زيارتها في عصارى
النهار

براهين
الوطنية
في أوروبا

ثم طفنا المدينة صاعدين هابطين وشاهدنا حصونها وابراجها
وآثارها ومفاخرها ثم دخلنا دار البلدية فأنسستنا نظيرتها في
الاسكندرية فان كل غرفة من غرفها وكل قاعة من قاعاتها
مفروشة بالاثاث الفاخر وزينة بالنقوش الاصلية البالغة في الاتقان
وفيها من التماثيل والرسوم والابسطة والستائر والموائد والمعدات
ما يجعلها أشبه بديار التحف منها بديار الادارة والسياسة ورأيت في
احدى قاعاتها تماثيل كرسنوف كولب وتحت التمثال صندوق من
المرمر مغلق منيع فيه كتابات ورسائل الرجل التي كتبها بخط
يده لكنهم لاجل ان لا يحرموا الناس من مشاهدتها وقراءتها
أخذوا صورتها بالفوتوغراف وعرضوها على الانظار تحت الواح
من الزجاج ثم انك ترى صور وقائعه واسفاره واكتشافاته وكل

ما قاساه في آخر أيامه مصورا محفوظا فيها بحيث انك بمجرد
الاطلاع عليها تعرف تاريخه وما جريته عن ظهر قلب وفي دار
البلدية المذكورة غير ذلك من تماثيل العظماء مما لا أرى حاجة
للإكلام عليه الا ان غيراني أقول ان القصر الفاخر الذي هي فيه
كان ملكا لاحدى العائلات الكبيرة فتمنازات عنه لها وعلى
ذكر ذلك أقول أيضا ان أعظم منزه في وسط البلد كان لعائلة
غنية أخرى فتمنازلت عنه للبلدية وهي جعلته منزها للعامه
ومربي لبعض الاطيار الغريية والازهار النادرة ومتحفا للتاريخ
الطبيعي ولقد باغنى ان احدى السيدات تبرعت للمدينة أيام
حروبها بمبلغ يوازي ٢٠٠٠٠٠ فرنك لتعزيز الحصون وتقوية
القتلاع والمحافظة على أكبر أبواب المدينة فأقامت لها البلدية
بعد موتها التماثيل والانصاب اقرارا بفضلها على وطنها واشهارا
لحبها لقومها وعلى ذكر ذلك أقول وأقول وأعيد وأعيد ماستراه
مفصلا في الرحلة وان غد الناظره قريب

غيراني أسألك كلمة واحدة ثم أنتقل من هذا الموضوع وذلك
انى قرأت تواريخ بلادى ووقفت على وقائع قومية وتحسرت لما
رأيت انى لا أتذكر شيئا يشبه ذلك أو يقرب منه فان كان على
بالك أمر من هذا القبيل أو أقل منه بقليل فانى أناشدك الوطنية

الاما التحفتني به لتزول عن الغصة وليكون في تذكير القوم به
أعظم اسوة

العمامة هل أحدثك بحديث العمامة والطربوش في أكبر كنائس
والطربوش هذه المدينة فانه يدل على انه لم يزرها أحد قبلنا بشكلنا وان
في أوروبا قسوسها لم يبرحوا قط منها . دخلنا هذه الكنيسة وقلنا لسائق
العربة ينظرنا ولكنه لما رآنا دخلنا من الباب ولم نرفع عمائرنا
(العمارة في اللغة كل ما يوضع على الرأس من طربوش وعمة وطرطور
وبرطول وقلنسوة الخ وتقابلها بالفرنسوية لفظة Couvre-chef
و Coiffure) أشار الينا باتباع هذه السنة فلم ألتفت اليه ولما
دخلنا نهما الدليل الى ذلك فأضفت جهله الى جهل السائق
وأفهمته ان ذلك غير لائق وبعد خطوتين جاء الحارس يتجتر في
ملبوسه الارجواني وأزراره النحاسية ويتوكأ على صولجانه
وقال لنا لا بد من كشف الرأس احتراماً للمعبد الكاثوليكي فأفهمته
ان هذه عادتنا في بلادنا فذهب وأحضر لنا شماساً أو شكت ان
أقنعه ولكن رأنا المطران فاقبل الينا ووافق على ملاحظات
أولئك فقلت له ياسيدي اننا ولله الحمد نعرف واجب الادب في
كل مقام ونعتبر كشف الرأس اخلاقاً بالاحترام فلا ندخل قط على
عظيم أو في مسجد الاورؤوسنا مغطاة ولا شك انه سيقدم اليكم

كثير من أمثالنا بمناسبة الاحتفال بمهرجان كرسٲوف كولب
وكلهم يصنعون صنعنا

فأظهر الاقتناع ثم قال لي سلنا بذلك لرفيقك فان شكله شرق
قح وأما أنت فانك بالملابس الاورويية وحيث انك قد اخترت
ملبوس الافرنج على ملبوس بلدك فاقتمد بالافرنج في نزع القبعة
قلت له كلا فهذا هو الشكل الرسمي في بلادنا وهذا الذي على
رأسي ليس بقبعة وقد زرنا قبيل الآن كثيرا من الكنائس
وأهمها كنيسة مار بطرس برومة فيمانارهبانها واكرموا مشوانا
وكلونا بالعربية واطلعونا على ذخايرها ونفائسها وفرجونا على
الاعمدة الرحامية التي أرسلها اليها ساكن الجنان أفندينا محمد على
باشا حينما احترقت وساعد ملوك الارض على اقامتها وحينئذ
اقتنع تماما وقال للحارس يطلعنا على ما عندهم من الذخائر القديمة
الصحيحة من سلاسل وأخشاب وغير ذلك مما لا يحتمل المقام
تفصيله

ثم خرجت من الكنيسة وفي نفسي غصة من ملبوسى هذا الذى الضررى
ارتب على اتخاذه في بلادنا إمامة كثيرا من صنائعنا وصناعتنا
الافرنجية واحياء صناعات الافرنج السريعة العطب ومساعدة التجارة
الاجنبية على انتزاف ما بقى لنا من قليل الثروة فضلا عن أن

الحذاء الأفرنجي يوجب في الأرجل سقاما قد تكون سببا في
نكد العيش وحرارة الحياة اما البنطلون المحدق والصديري
المضيق والسترة أو الجكته أو الساك أو الردنجوت أو السموكن
أو الفراك والقميص المكيوي ورباط الرقبة الملوي وغير ذلك من
الازياء والانواع فانها ليست موافقة لطبيعة الاقليم في بلادنا بل مرة
وأما الطربوش فليس فيه من مزية سوى حبس الهواء فوق
المنح وعدم تمكينه من الخروج لاحتمال اطرافه على الرأس فهو
أجود وأنفع في البلاد الباردة وليس وراءه الا الضرر في البلاد
الحارة وباليقينا حينما اتخذنا الملبوس الاوربي اتخذنا القبعة
أيضا فانها ليست محرمة لاشرا ولا عقلا فضلا عن ان عرب
عراكش لا يزالون الى الآن (وهم على ما هم عليه من التمسك
بالاسلام) يلبسون شيئا شبيها بالقبعة له حواف تمتع وهج الشمس
عن الوجه وعمما يجاذبه وفوق ذلك فان كلمة شاپو (Chapeau)
التي تدل على البرنيطة أو القبعة عند الفرنج محرفة عن كلمة عبرية
لا أتذكرها الآن (وربما كانت القبعة) لنوع من العمار كان
يلبسه مسلموا الاندلس (وسأين ذلك بالرحلة)
هذه ملحوظات عنت لي إثر دخولي الكنيسة وقد كان شيء
شبيه بها دار في رأس حينما رأيت ان الملبوس الشرقي أجلب

للانظار (كما وقع في نابولي وغيرها) فكنت ان أودان أكون
مشا كلا لرفينقي بعمامة وقفطان وجببة مرخية الاردان ولا أبقى
على هذه الحالة التي اختارها أهل بلادنا فكانوا أشبهه بالغراب
أراد ان يتشبهه بمشية طائر جيل (هو الطاووس أو غيره) فلم
يتمكن من التقليد ونسى سيره القديم - لكن الطربوش
والحق يقال جعل لي في أوروبا مزيا كثيرة منها ان القوم
كانوا يفسحون لي في كل مكان واذا قبلت على حانوت قبالوني
بالباشمة والاكرام ولا بد أن يكون السبب في ذلك أن بعض
أغنياءنا وكبرائنا الذين يتوجهون بشكل مثل شكلي وينفقون
الدرهم والدينار من غير حساب يأخذون ما حصلوا عليه في
بلادهم بأية الوسائط وينفقون في أوروبا من غير فائدة لهم
ولأوطانهم بل في قضاء أوطار باطله وخرافات زائلة تبقى
بعدها حسرات متواصلة والسواهد أكثر من أن تعد واني
لأشكرهم مطلقا على كونهم جعلوا أهل التجارة يرحبون بي
ويوسعون لي مقاما محمودا بل كان أولى لهم وأولى لهم أن يتخيروا
الصرف في نفس بلادهم بما هو أفضل لهم وأجدي لوطنهم كما
رأينا في مدائن أوروبا - هذا موضوع يدوخ منه رأس السكاتب
والقارئ فأتركه لغيري وأريح منه نفسي

معامل ولما كانت مدينة جنوة متفردة على غيرها باصطناع الشفتشى
الشفشى توجهنا الى أحد المعامل ورأينا كيفية الاصطناع من أولها الى
آخرها من أخذ القضة وهي كتلة قائمة واصطناعها أسلاكاً
مختلفة في الحجم تتراكم مع بعضها بجميع الاشكال مما يندش
له العقل خصوصاً وان القائمين بها أطفال وطفلات تحت ادارة
معلمين ومعلمات وسأكتب عليها بالتفصيل عند التيسير

أول رؤية ولما خرجنا من المعمل تلاقينا برجل لابس طربوشاً فوقف
مسلماً باوروبا ووقفنا ثم تبادلنا التحية بالعربية وحصل لنا برؤيته فرح كثير إذ
لم نصادف أحداً من أبناء الشرق من يوم خروجنا من الاسكندرية
الى ٢٥ أغسطس يوم وجودنا بجنوة ثم عرّفنا انه السيد محمد بن عبد
الغنى وكيل سلطان مراکش في ايطاليا وأراد أن يستضيفنا فاعتذرنا
لان الوقت لا يساعدنا وبعد ذلك أردنا ان نزر السفائن البحرية
فأخذنا زورقاً كانت الامواج تصده والتيار يمنعه الى أن أقررنا
بوجوب الرجوع وسلمنا النفس باننا سنجد في انكلتره ما هو أعظم
وأكمل

الرسالة السابعة

(من تورينو الى مودان الى باريس)

فأرقت جنوة وأنا محجب بنشاط أهلها ووطنيتهم - وغريب فراق جنوة
اقدامهم حتى لقد رأيتهم يزحزون الصخور ويقومون مكاثها وقرافتها
القصور ويصعدون الى أعالي الجبل فيمنون المساكن الانيقة والدور
الرشيقة ولقد أطلت التفكير في زخرفتهم حتى لقرافتهم التي فاقت
كل ما رأيت في غير مدينتهم بأبداع التماثيل وكثرة العناية بحيث انها
تعد من أحسن منازلهم وأنظفها وأتمججها ولا يصح للسائح ان
لا يزورها وقد رأيت بعض العائلات تقيم لمن يتوفى من أفرادها
أثرا جليلا من المرص الناصع بالتجميل المحكم والاتقان التام مما
يكلفها فرنك فنازلا واعتمت البلدية بتنظيمها على هذا
النسق المحجب وقسمتها أقساما بقدر اللحد تبعها لمن يريد وهي
تتكلف بتشييد القبور واقامة الانصاب لمشاهير المدينة قديما
وحديشا

وكانت جنوة أول مدينة شعرتنا فيها بالبرد الخفيف وفيها
تنازل الويل علينا مدرارا ثم قمنا منها قاصدين باريس ولنا

(٤ - رسائل)

التقينا في القطار برجل من أهل تورينو أشار علينا بشطر الطريق
نصفين حتى لا تفوتنا الفرصة من مشاهدة هذه المدينة الفاخرة التي
تسمى في كتب قدماء العرب طرون وطرونة واطرونة وحتى
لا تتعب من طول الطريق

منظر تورينو

فعلينا بنصيحته شاكرين وكنا أرسلنا متاعنا كله الى باريس
فدخلنا المدينة وقد أرنى الليل سـداله وجر الظلام أذياله فرأينا
شوارعها فسريحة أنيقة تضيء الكهربائية أرجاءها فتساعد على
زيادة جمال المباني الفخيمة التي تحف بها وأمضينا بقيمة الليلة
بثياب النهار حتى اذا أصبح الصباح (وانتشر نوره ولاح) قمنا من
الفندق وطلبنا من البواب أن يتحفنا بدليل من أولى الالباب
فاحضر لنا رجلا لتشويه خلقته كانه من عجائب الزمان ثم ركبنا
عربة وهو معنا نـفـرح على المدينة وما فيها من الغرائب وكانت
كلها تزيد في عيني جمالا واعتدالا وليس الفضل في ذلك لمنظر
صاحبنا فقط بل لانها في الحقيقة تحموى بعد استكهم (عاصمة
السويد) على أجمل حدائق الدنيا وقد طفنا منازلها وارتقينا
ربواتها وأهم مرتقى صعدنا اليه هو جبل شاخ يكاد يكون رأسيا
عليه أربعة قضبان كشريط السكة الحديدية وفوق كل اثنين
منهما عربة عجلاتها السفلية كبيرة والعلوية صغيرة جدا بحيث

يكون الجالس على هذه العربة كأنه على الأرض المنبسطة ومتى
دق الحارس الجرس الكهربي صعدت بانتظام من غير أدنى
ارتجاج تجذبها قوة الغاز ثم تسلمها بالثاني إلى مكانها الأول عندما
تجىء الإشارة وسأصف لك هذه الآلة في رحاتي فقد كتبت إلى
مختريها أطلب منه البيان الشافي ولما تسنمأذروة هذه الربوة رأينا
متحفا فيه الحيوانات والاحجار والاعشاب والازهار الخاصة بالقسم
من جبال الالب المجاور للمدينة ثم صعدنا على سطح المتحف فرأينا
النظارات المقربة قد قربت لنا الجبال حتى كأنها صارت تحت
يدالمتناول وقد كل الشلج هاماتها فكأنها هرمت من طول العهد
ترى السحب فوقها متراكمة على الدوام ولكن سفحها مازالت فيه
قوة الشيبية والانبثاق مجللا بالخلل السندسية البديعة

ثم هبطنا هذه الربوة وقصدنا متاحف المدينة ولاأذكر منها آثار مصر
الآن الاالقسم المصري فقد رأيت لهم عناية تامة بحفظ الآثار
التي صرفوا في جلبها من بلادنا الابيض الوضاح والاصفر الرنان
ورأيت فيه مجموعة كاملة من ورق البردي المزين بالاشكال
والرسوم الباهية فيها تصوير الاحوال التي تمر على المصري القديم
من يوم منبته إلى يوم منيته إلى يوم دينوته إلى يوم مستقره في جنة
أوجهنم ثم نزلنا تحت الأرض في قاعات طويلة فيها الآثار

في تورينو

المصرية الضخمة كالمسلة وصورة لابي الهول وهي في غاية الجمال
وانى لايجب كيف يصح اطلاق لفظ ابي الهول على هذا التمثال
الذى وجهه وجه عادة مصرية مفرطة في الملاحظة اللهم الا ان
يقال ان حسنه يهول من يراه كما يقال فى لغتنا الواسعة (لهذه
الفتاة محاسن رائعة) ولولم يكن التمثال الهائل الذى يجانب الاهرام
ما كان هذا التعبير يصح فى الازهان ولكن قد كان ما كان فالاجدر
بنا ان نحمل هوله على ما به من فرط الحسن وصباحة الحيا

ثم خرجنا من هذا المتحف الى غيره مما فى المدينة فرأينا
أسواقها عامرة وحوانيتها مشحونة باصناف البضائع والفاكهة
فيها بل وفى كل ايطاليا من أجود ما يكون حتى انى رأيت
البرقوق فيها بحجم الكثرى بحيث لا يصح ان نسمى نظيره فى
بلادنا الا بلانطة بريقيق (بالتصغير) ثم خرجنا منها قاصدين
بلاد «فرانسة الغراء» فسار القطار تجره باخرة من الامام
وتدفعه أخرى من الخلف لان الارض كانت آخذة فى الارتفاع

وقبل ان نصل الى مدينة مودان الفاصلة بين تخوم فرنسا
وايطاليا دخلنا نفقا منقورا فى جبل يناطح السحاب فداخله
منه خوف شديد ورعب زائد فاخرجت الساعة بنوع من
الاهام لكثرة فرعى من هذه الكتلة المتناهية فى الجسامة

نفق
جبل سان
سنيس

والضخامة التي ستكون فوقنا وقد كنت أحسب نفسي قد
تعدت على السير في الأفتاق فإذا الامر ليس كذلك لان
القطار صار يسير ويتعثر في مشيته ثم يخفف من وطأته ثم يستريح
ثم يصفر ثم يتهد ثم ينحدر فيكمث نفسه خوفا من الانزلاق على
المنحدر وينتقل على قضبان توشك ان تكون مخرسة لحفظه من
السقوط وقد استطال السير حتى كادت النفوس تزهد من انحصار
الهواء ومن الرعب الشديد الذي قد تضاعف بمرور باخرة أخرى
بجانبا ما لبثت ان بارحتنا وتركت باخرتنا كالفرس أجهدتها الضنى
وحضرتها ساعة الوفاة ومع ذلك لا يرجعها الفارس بل ينخسها
ويستنزف ما بقي فيها من حول وقوة (ولا حول ولا قوة) وكنت
وانا تحت هذا الجبل المتعالى أخشى أن يسقط حجر واحد منه
فينهار ويروح القطار شهيد هذا الدمار الذي ليس بعده دمار
وكنت أخشى أن يصح على السائق نص الحديث النبوى
(لأرضنا قطع ولاظهورا أبقي) وكان الطل متساقطا والنور في العربة
أصفر باهتا (مثل فانوس اللصوص) فتوسلت الى الله جل شأنه
أن يهبى لنا الخروج من هوة الظلمات الى فضاء النور فتقبل
الدعاء وانعش أرواحنا بالضياء وليس هذا الوصف الحقير شيئا
بجانب الحقيقة على الاطلاق وان لم تصدقني فمعالي ايطاليا ومتر

بهذا النفق (ولاتنس ببشة) فانك ستمضى به ان شاء الله تعالى
أكثر من نصف ساعة وترى أكثر مما جاء في هذا البيان وليس
الخبر كالعيان

ولقد اعترفت بصدق من قال ان الحادثات تمر على الانسان
ثم ينساها حتى كأن لم يكن منها ما كان وانه عرضة للنسيان
في كل زمان ومكان فاني بعد الخروج من هذا المسلك الحرج
افتكرت اني نسيت أمرا خطيرا وذلك اني خرجت من ايطاليا
ولم أتناول شيئا من المكرونة أو المعكرونة أو المقرونة (طعامها
المشهور) حتى وددت لو رجعت اليها لاكل منها بالارطال أو بالامتار
(فقد بلغني وأنا بمصر انها تؤكل في بعض النواحي من هذه البلاد
بالامتار) ولكن هيات هيات رد مافات ولو أني تذكرت حينئذ
الجران بار (أرجوك السماح فان المقرونة مقرونة فيه بالاتقان)

وصف جنوب
فرنسا
ولما وصلنا الى مودان نزل الركب يهني بعضهم بعضا على
السلامة من ذلك الجبل المريع واستنشقتنا حينئذ هواء فرنسا
وقد كانت رئاتنا في احتياج اليه وتسلمنا عمال السكة الحديدية
الفرنسوية ثم سار بنا القطار بين جبال شاهجة شماء يشققي من
أعالها الماء فيكون غدراننا وانهارا تنساب بجانب الوابور وتحتته
بمنظر رائع جميل والهواء صاف عليل يروح النفس ويرد اليها

الحياة ولا أعلم لماذا اعترتني هزة الفرح ونشوة السرور وأنا أمر
بينها مجبأ به هذه المحاسن الطبيعية وقد رأيت في بعض حقولها
وفي بعض مزارع ايطاليا شادوفنا المصرى بالتمام ولولا وجود
الجبال وكون الذى يسقى الارض بالشادوف لانسأ القبعسة
والبنطلون لظننت انى فى أرياف مصر أشاهد فلاحنا المعهود

وشستان بين مالاقيته فى جنوب ايطاليا مما قبض الصدر
وضيق على القلب وبين ماشاهدته فى جنوب فرنسا مما يسر
الخطير ويقر الناظر . أما المسدائن التى مررنا عليها فى جنوب
فرنسا فانما هى قرى خلوية ليس فيها شئ من الجمال الذى رأيناه
فى مدن ايطاليا وكنت عند كل محطة أسمع القوم وخصوصا
النساء يملأون الافواه عند النطق باسم باريس فيقلن (پارى
والا كثر ياغى بعنة ومدة فيها الترخيم) ثم أقبل الليل فشدت
حلقة فى أعلى الكرسي فانقلب سريرا بل فراشا وثيرا فتمت
متوكلا على الله ولسان طالى يكرر مايقوله المصريون (على
قلها لطيلون) وبعد ١٩ ساعة قضاها الواور فى السير الخيث
وصلنا مدينة باريس

وقبل ان انتقل الى الكلام على هذه المدينة الحسناء أرى
من الواجب على أن أفى بوعد قد أخذته على نفسى وهو ذكر

ما الأقيمه من عمال كوك فاني لايسعني الا أن أو فيهم هنا حقهم
من الثناء فقد قاموا بخدمتنا في جميع المدائن التي نزلنا بها
أحسن قيام وساعدونا في كل طلباتنا فوق المرام وأمدونا بجميع
أنواع لتسهيلات والايضاحات خصوصا في فلورنسة ولورينوحى
محو الهفوة التي وقعت ببرندزى فله دركوك أحسن الله مشواه
بقدر احسانه الى نفسه والى العالم كله

الرساله الثامنة

باريس

الانهار من رؤية باريس
هذه باريس تحفة الدنيا وزهرة العالم وزهرة الكون . هذه
باريس جنة الجنائن ومدينة المدائن وعاصمة العواصم . هذه
باريس منبع البهاء والمحاسن ومرتع الأطباء الاحسن . هذه
باريس تمال الفخامة والجلال وشخص الخفة والرقه والجمال .
هذه باريس معدن العلوم ومركز دائرة العرفان في هذا الزمان .
هذه باريس التي مهما بالغت عنها في الوصف والمقال فاني بعيد
عن حقيقة الحال بعدا ليس له مثال ولا يكاد يخطر على بال

فليس لي حينئذ الا الاكتفاء بانها فردوس الفراديس

بل هي هي باريس

قدمت اليها في بكرة النهار (من يوم ٢٧ أغسطس) ورأيت فيها من الحركة والنشاط ما هالني وراعني وأزمني الاقرار بالعجز عن التحبير والحيرة في التحرير فكيف يتسنى لي أن أوافيكم يا قوم بما شاهدته فيها من التناهي والبلوغ الى غايات السكال في كل موضوع وباب واني اذا أرخيت للفكر العنان ومكنت القلم من الجولان في أى ميدان أملى عليكم ما يملأ الاوراق ويدهش القراء ولكني أوجب التلخيص الى عودتي اليها بعد اتمام المأمورية والتنقل في بعض مدائن الانكيزا لكي تكون كتابتي عليها عن تحقيق وتدقيق فانها تملك فتؤادي واستولت على لبي حتى انى فارقتها مضطرا بعد ما قضيت بها يومين وما قضيت منها وطرا موطننا النفس على الرجوع اليها واستجلاء مشاهدتها ومعاهدها . وهل تكاتفون بذلك منى الآن أم تريدون أن أوافيكم بمجالة فيها نبأ له شان

أريد أن أتكم على أحسن نصف في بني الانسان ولكني
أخاف اللوام فاسمحوا لي بالله عليكم هذه المرة بمعاودة الوجود
أهمية المرأة في الوجود

الكلام على المرأة وأعدكم انى لأعود وما عهدتوني انقض
العهود وكيف ألام على الدخول فى هذا الموضوع المخرج
الواسع وقد كان للمرأة ولا يزال لها الشأن الاول واليد الطولى فى
الانقلابات الدولية والنظامات السياسية والترتيبات الدينية بل فى
كل شأن من شؤون العمران وفى كل عمل من أعمال الانسان فاننا
اذا صرفنا النظر عن أم الامهات وتصفحنا التاريخ العام وجدنا
لها أثرا ظاهرا وعملا معروفا فى كل الاديان التى نزل بها الوحي
أوزينها الوهم واخترعها الخيال وهذه الاشارة الوجيزة تكفى من له
أقل اطلاع

ثم اذا نظرنا بوجه الاجمال الى تاريخ القسداء من مصريين
وأشوريين ويونانيين ورومانين وغيرهم وجدنا المرأة هى دون
سواها سبب التقدم والارتقاء أو علة التمهق والانحطاط وعلى يدها
تم تشييد الدول العظيمة أو تبديد سطوتها ومحو أثرها من الوجود
وظلما اشتبك القتال وتغافى الابطال لاجل امرأة واحدة وكذلك
الحال فى تاريخ الامم الحديثة . هذا أمر كان وكائن ويكون
الى يوم تحشرون وانى أذكر لكم ما يحضرنى الآن من الشواهد
القليلة مثل ذلك دلوكة العجوز فى التاريخ المصرى القديم
والمرأة التى كانت سببا فى حروب تروادة الشهيرة ولوكريس

وفرجينيا في التاريخ الروماني ومثلهما تلك الغادة الكيمائية التي
جاء في بعض الروايات انها كانت سببا في القبض على انيبال الافريقي قائد
قرطاجه بعد ان أذاق الرومانيين من العذاب ما أذاقهم ثم ريني (Irène)
في تاريخ بوزنطيا وتلك الحسناء الفلسطينية التي احتالت على
سمسون الجبار فأخضعتة وأوقعته في يد أعدائه بعد ان أوقع بهم
وعجزوا كلهم عنه بمفرده وتلك الفتن التي أثار غبارها نساء داود
عليه السلام في آخر أيامه وتوصلت احداهن بالحيلة والديسيسة
(على ما جاء في التوراة) حتى ألزمته بان يجعل ابنها سليمان (عليه
السلام) خليفة له والبسوس والزباء في تاريخ العرب وطومريس
مملكة المساجيت التي طلب كورس ملك فارس أن يتزوج بها
فامتنعت فأقام عليها حربا كانت عاقبتها وبالا عليه وعلى قومه
واليصامؤسسة قرطاجة وكايوبطرة مملكة مصر الشهيرة
ودخول العرب في الاندلس وخروجهم منه كان سببه المرأة وهذه
خديجة وعائشة رضي الله عنهما وشجر الدر وعغـيرهن في تاريخ
الاسلام وقتك الرشيد بالبرامكة على ما في بعض الروايات سببه
المرأة ولاتنس زوجة الزمخشري فانها على ما يروى عنها هي التي
أرجعته بالبرهان الفعلي لا القولي عن القول بخلق الافعال واجنيس
سوريل التي كانت سببا في سقوط الدولة الفرنساوية ثم حياك

دارك راعية الغنم التي طردت جيوش الانكليز من أرض فرنسا
والشواهد أكثر من أن أتذكرها الآن أنا وفي بلاد الانكليز
وربما توسعت في سردها في الرحلة اذا يسر الله

وكان أحد القضاة في أوروبا كلما نيط به تحقيق واقعة جنائية
يقول للشرطة (ابحثوا عن المرأة) وبذلك كان يصل لاكتشاف
الحقيقة على الدوام مهما كانت وقائع الدعوى تصرف الظنون
عن وجود أصبع للمرأة فيها ولم يكن فعله هذا من ضرور النبوة
أو الاطلاع على ما وراء الحجاب وانما هو من قبيل الاستقراء
والاستنتاج ومن تمام معرفة تأثير المرأة في أعمال الناس ولقد
أحسن شاعرنا العربي اذ يقول

اذا رأيت أمورا * منها الفؤاد تفتت

فتش عليها تجدها * من النساء تأت

وأذكر بيتين آخرين يختصان بالمرأة لأدري أيهما الاحق بأن
يقال عنده صدق . أذلك الذي قال

ان النساء شياطين خلقن لنا * أعوذ بالله من شر الشياطين

ام تلك التي اجابته في الحال واجادت في المقال

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتمى شم الرياحين

أما أنا فأحكم بعد الحيرة الطويلة بارجحية القول الثاني

وليس من شيتي ان استبد عليك لموافقتي بل أترك حرا فاختر
لنفسك ما يحلو

ولاشك ان الفرنسيين نظروا الى كل هذه الملاحظات وما المرأة في
يناسبها بنظر الناقد البصير والمتدبر الحكيم فأرسلوا مثلا تناقلته
الافسواه وهو (ان ماتريده المرأة يريد الله Ce que femme
veut, Dieu veut) لذلك كان لها عندهم الكلمة النافذة
والامر الطاع فلا يقدم الرجل منهم على أمر لارتضاه زوجته
ومتى أقدمت هي على عمل أو تعلقت به مشيئتها ووجب عليه
الرضى به والاقرار بوجوبه وان لامندوحة عنه وهم يبالغون
في اكرام المرأة والتأدب في حقها (ولو ظاهرا) بما يفوق الوصف
وفي تثقيف عقلها بجميع أنواع العلوم والمعارف (حتى التي
لا يقدم عليها الاقوال الرجال) ولذلك نبغ منهن الكتابات
المحتررات الشاعرات الخطيبات المصورات المشخصات المحاميات
الطبيبات المخترعات في كل أمر ذي بال أو غير ذي بال

الى هنا أتبه قلبى للعسول عما استطرده فيه الى ما ينتظره أحاسن
منه بعض القراء عقيب ما صدرت به الكلام من التخوف من اللوام
وقد تعلق آمال ذلك البعض (اذا صح التعبير بالبعث عن
الكل) بان أحسنه على فسحتي في باريس يوم الاحد الرابع

أحاسن
باريس في
غاية بولونيا

من أغسطس بعد أن أمضيت الاحد الثاني منه في سان ستافانو
بالاسكندرية والثالث في منازة رومة وجمائلها السندسية
ولعمري انه يحق لهم ذلك الانتظار ولا يحق لى ان يحل
عليهم ببعض ماشاهدته اذ الاحاطة متعسرة بل متعذرة فانى
أمضيت يوم الاثنين وصبيحة ذلك اليوم الاحد البهيج في السؤال
عن كثير من العلماء الذين سبقت لى بهم معرفة بالذات أو بمحض
العلاقة الادبية ولم يسعدنى الحظ بمقابله أحد منهم على الاطلاق
لانهم كلهم قصدوا الخلوات طلبا للرياضة والتمتع بالسكينة
والهواء السليم (وربما كان هربا من الهواء الاصفر وقي الله
بلادنا منه) ولذلك أخذتني الغيرة منهم فأجبت أن أتشبهه بهم
في استنشاق النسيم وامتاع النواظر برؤية العيون المراض الصحاح
ومشاهدة مافي الطبيعة والصناعة من باهى المحاسن وباهر الاطاسن
وما هو الا ان حانت ساعة النزهة حتى علوت عربية توتمت في
سائقها النهم والنباهة وركب على يمينى رفيق الاستاذ الشيخ محمد
راشد وقلنا لسائق العربية ان يغدوبنا الى حيث يخرج القوم
بحجة النزهة والرياضة وترويح الفكر وإراحة البال فأرسل الخيل
تعدو في شوارع منتظمة عامرة أهله حتى اذا اقتربنا من غابة
بولونيا أخذ يسير الهويتنا ونحن نتمتع النواظر برؤية الوجوه

النواضر واللحاظ الفواتر والشغور البواسم والحدود النواعم
والقدود المياسة والصور الخيلة الى ما وراء ذلك مما هو وراء
الوصف والبيان وقد كان منهن الخاطرات بالدلال والاعتدال
في حال البهاء والجمال وملبوس أنخر يزيد الملاحظة بما لا يقدر
ومشية متوازنة بحركات متجانسة ممزوجة بركة و إعجاب
لا يصح ان تسمى بالتختر ومنهن الرايات في العربات وبجانبهن
أو أمامهن رجال من عائلتهن (أو غيرها) ولكنهن لا ينظرن اليهم
ولاهم ينظرون اليهن بل كل من الفريقين مشغول عن صاحبه
(لذي تملكه اليد) من يسعى أمامه أو يمر بجانبه أو يعدو خلفه
وكل واحدة من هذه الجوارى المملكات المالكات تبذل غاية
جهدها ومنتهى فنها لكي تتجلى في مظهر أنيق رشيق يسبي
ويصبي ثم لا تكتفي بخطف العقول والارواح بل هي فوق ذلك فتاكة
فتانة (والفتنة أشد من القتل) ومازلنا ننتقل من منظر الى أبداع
الى أبرع الى أبهج الى أبهر حتى انهرنا واندهشنا وضاعت
مناصيح أفعال التفضيل التي كنا حفظناها مثل هذه الفرصة
وقد كل البصر وارتد الطرف حسيرا فافتكرت حينئذ أن البخار
تكفل بتقريب المسافات فاعنانا عن استعارة أجنحة القطا
للطيران الى موضع الحب والهوى ولكنني في عوز زائد الى كثرة

العواظر لان العينين اللتين منحهما لى البارى لاتكفيانى لرؤية
هذه المناظر التى أسمى وتأسفت على كونى لم أتزود قبل الرحيل
بشئ من العيون التى كانت تنفعنى وتنفع أصحابها فى مثل هذه
الحال التى ليس بعدها حال ولكن لله الحمد فان الباب ما زال
مفتوحا والامر ميسورا لانى سأرجع الى باريس وأقيم بها نحو
من أسبوعين أو أكثر فكل من يهزه الشوق لاستجلاء هذه المحاسن
بنفسه من غير أن يتحمل عن مجلسه فليسمعنى بما هو لازم (ع)
ومتى انصرفت عن هذه المدينة أرجعت اليه العين بالعين
فتجدنه بما رأت وتؤكد له صدق من قال وليس الخبر كالعيان
فلما رأيت ما رأيت من التناهى فى التبرج والبهرجة والتعالى
فى التزويق والزبرقة والتهالك على النماكة والغندرة خطر على بالى
انى لو كنت من قدماء اليونان الذين يعتقدون بتعدد الآلهة
لكنت أقول ان إله الجمال بالغ فى الاتقان وبذل كل مافى وسعه
من حسن الصنع عند ما كان مشغولا بالخليقة فى هذه البلاد
ولكنى بفضل الله من المؤمنين الموحدين المسلمين الذين يقولون
تبارك الله أحسن الخالقين

وقد تذكرت حينئذ عبارة لاتينية كان القدماء يكتبونها
على الساعات رمزاً الى انقضاء الحياة بمرور الاوقات وهذه ترجمتها

(كاهن جارحات والاخيرة تقتل Vulmerant omnes, ultima necat.) ولو كنت من الشعر بمكانة القادرين على سبكه
والجعيدين لحبكه لصغت هذا المعنى في أبيات بديعمة في الكلام
على النساء ولكننى لأتصور انه فات شعراءنا البلغاء
أقول الحق انى لم أستغرب بعد ذلك كله من تلف بعض
الشبان الذين توجهوا الى أوروبا فان المجرى والمكبب والمقرب
والمحدث والمعقد وخصوصا الشريط الذى يعقد على الخصر
ويتطاير فى الهواء من وراء الذى يسميه الباريسيات بما معناه
(اتبعنى يا فتى Suivez-moi, jeune homme) كل ذلك يجر الى
الغرور من غير شعور ويهوى باهل الهوى الى - هاوية الغواية
والشور والامن عصم ربك وهم والله الحمد كثيرون . وقد قال
لنا سائق العربية ان مآرئناه ليس بالشئ الذى يذكرك لان المدينة
الآن صفر من أهاليها المقصودة بالذات وأكبر القوم كلهم فى
الخلوات

وهنا أنتقل من هذا الموضوع الى موضوع آخر له به تمام وجوب محجب
الارتباط وهو انى من أهل المذهب القائل بعدم اطلاق الحرية
للنساء الى هذه الدرجة التى تجاوزت الاعتدال الى التطرف فى الافراط
النساء

فان المرأة بعد كل تعليم وتهذيب أراها ضعيفة ميالة أكثر من الرجل لداعي الشهوات والتفاني في الملاذ فالواجب أن تكون الحرية لهن كالمخ في الطعام فان التعليم ليس بقادر ان ينزع منهن هذه الاميال وان نزع منهن الخرافات التي يثبتنها في عقول الاطفال

أقول ذلك بمناسبة ما رأيته في (تقويم ترويح النفوس Calendrier Amusant) المكتوب باللغة الفرنسية عن سنة ٩٣ القادمة . قال في النهر الثاني من صحيفة ٢٣ والاول من صحيفة ٢٦ ما خلاصته : ان العلامة كسترن (Kœstner) أحد أساتذة ليبسيك وصاحب التصانيف العديدة المشهورة نشر كتابا فيه ابحاث علمية دقيقة مستوفاة تكلم فيه على حركة ازدياد المواليد ونقصها في البلدان المختلفة مستندا على الارقام وقد أدته ملحوظاته وحساباته الى اثبات النتائج الآتية بحسب التعديل المتوسط وهي

ان المرأة الالمانية تخون زوجها في عرضه ٧ مرات
والبليكمية تخون زوجها في عرضه أيضا ست مرات وأربعة
أخماس مرة (بحسب التعديل المتوسط) والانكليزية تخون زوجها
خمس مرات والنمساوية أربع مرات ونصف مرة والهولندية

أربع مرات والسويدية أو الدنيمركية مرتين والاطليانية مرة
وخمسة اسداس المرة والفرنساوية مرة واحدة والاسبانية سبعة
اثمان المرة والبرتغالية واليونانية خمسة اسداس المرة والصرية
والبشناقية والتي من الجبل الاسود والباغارية ثلثي مرة والتركية
(ويعنون بهذه اللفظة المسلمة وغير المسلمة من الشرقيات) عشر
المرة الواحدة اه

فذا سلمنا بهذا الحساب الذي استنتجته ذلك الاستاذ الالماني رأينا
أن في التحجب وفيما يقرب منه فائدة عظيمة في صيانة الاعراض
وبعد ان طفنا هذا المنتزة مرتين رجعنا الى فندقنا فعملنا ^{زيارة سفير}
بكل سرور وانشرح آن دولتلو أسعد باشا سفير الدولة العلية في ^{الدولة}
باريس حضر لزيارتنا وترك لنا ورقة الزيارة وقد كنا توجهنا الى
السفارة في صبيحة ذلك اليوم (الاحد) البهيج وحظينا بمقابلة دولته
ولبثنا معه مدة انصرفنا بعدها شاكرين مالاقينا من لطفه
وبشاشته وجميل مؤانسته ومحادثته

ثم أمضيت الليلة وأنا احلم أنى في غاية بولونيا وانه لاتصح
مؤاخذتى على وصف مارأيته فيها الابعاد أن يؤاخذ بهاء الدين
العاملى على وصف النساء فى الارجوزة الشهيرة التى كتبها على
رحلتيه فى بلخ وأوردها فى أوائل الجزء الثانى من الكشكول

وبعد ان يؤاخذ الكثير من فحول العلماء وأكابر الاتقياء الذين
لم يأنقوا ورود هذا الروض الانف وهكذا الى ان أشرفت الغزاة
فحلما امتعننا ثم ركبنا القطار السريع قاصدين لندره عاصمة
بلاد الانكليز التي لاتغرب الشمس عن ممالكها ومستعمراتها

الرسالة التاسعة

من باريس الى لوندرة

وخلاصة وجيزة على المؤتمر

اشتهر الانكليز عند الخاص والعام بالاختصار في الكتابة
والكلام على الهجوم والمقصود من غير تقديم مقدمة أو استفتاح
بفاتحة وسأتكلم عن أخلاقهم بالتفصيل في الرحلة وأكتفي
الآن بمجاراتهم في هذا السبيل

وصف بحر
المانش

قت من باريس الى ديب (Dieppe) أحد ثغور فرنسا في
الشمال الغربي وركبت الباخرة وأنا مرتجف من هول بحر المانش
ودواره اذ انى قرأت في كل كتب السياحة انه من أشد الابحر
اضطرابا وهيجانا لانحصاره ما بين شطوط فرنسا وانكلترا وان دفاع
التيار فيه ولذلك كان الاوربيون بل الامريكيون أنفسهم

يعترفون بشدة هوله ويفزعون دائما من اجتيازه حتى لقد حمل
ذالك بعض المهندسين من فرنسا على تقديم مشروع مقتضاه خرق
نفق تحت قاع البحر تسير فيه السكة الحديد السهلة والراحة
وتقريب المسافة ولكن انكلترا عارضت في إنجاز هذا المشروع
خوفا من تعدى قوة حربية برية عليها من فرنسا فجاءة (كما يتولى
الفرنساويون) . ولقد ازداد رعي حينما سألت أحد المسافرين
وأجابني بالكثير مما قرأت وتمكن كل التمكن بعد أن أنذرتني
القبودان أيضا باضعاف ما أفادني الاول فكاد يفعل بي الوهم
ما يقصر عنه دوار البحر لولا اني تجلدت واذ كنت مضطرا للسفر
وليس لدى من المراكب سوى ركوب هذا المركب ولا يمكنني
الانتظار حتى تعترف انكلترا بفائدة النفق (كما اعترفت بفائدة
قنال السويس فيما بعد) فقد اعتمدت على الله وعملت بنصيحة
بعض الخبسين الذين تعرفت بهم في باخرة البر فيبادرت لتناول
قلييل من الطعام قبل قيام السفينة حتى يكون في المعدة شيء
يقاوم تأثير الدوار بادي بدء فلا يقع على الامعاء مباشرة
جاءني الغلام وكلمني بالانكليزية وكنت قد نسيت اليسير
الذي كنت تعلمته قبيل سفري من القطر المصري بسبب استعمالى
الطلياني في ايطاليا والفرنساوى في فرنسا فضلا عما في رطانة

الانكليز من الصعوبة والدمدمة والهمهمة واهمال المقاطع الاخيرة
من الكلمات فتذكرت ان احسن طعام يجيد القوم صناعته
هو الرزيف والبقيسك (أو البكسيف بحسب رواية البعض في
بلادنا) فذكرت اسم اللون الاول فعاد ومعه قطعان كبيرتان
حواليهما من الدهن سواران بل سوران وبجانهما قليل من شبه
المرق فغمست لقمته في هذا السائل ثم وضعتهما في في فكادت
تحدث عندي ما هو أشد من دوار البحر ودوخة الرأس واضطراب
الامعاء لولا ان تداركت نفسي فأهويت الى في بكمية عظيمة من
الملح والفلقل والحردل وذلك لان الانكليز يصنعون ما كلهم من
غير ملح ويتركون تليحها للآكل بقدر ما يريد وخلاصة القول اني
أكلت كما أكلت (لاهنياً ولا مريشاً)

وأما رفيفي فقد أثر النوم على كل شيء عملاً بما كتسبه من

التجربة في بحر الروم

ثم اني سعدت على ظهر السفينة لانتع بمنظر البحر ومشاهدة
المدينة ولوان ذلك يزيد في أعراض الدوار ولا أصف اعتدال
الجو وهاء السماء وصفاء اللجة وجمال المدينة واجرافها الصخرية
الشامخة التي تتأطم الامواج تحت اقدامها بل أقول اني كنت
أستغرب من تحسن الحال كلما تقدمت السفينة الى الامام وأنا

لأشعر بالاضطراب ولكن القمودان كان يقولى (بالفرنساوية)
تربص قليلا ريثما تعارض السفينة التيار . وما زال الحال
على هذا المنوال حتى بدت لنا شطوط انكلترا والفرح يداخلى
قليلا قليلا الى أن دخلنا ميناء نيوهافن (New Haven)
بسلامة الله تعالى وحسن معونته بعد مسير أربع ساعات ونصف
وكان عدد المسافرين ١٤٠ فى الدرجة الاولى و ٨٠ فى الثانية
لم يؤثر الدوار الا على ستة من الستات واثنين من الخواجات وقد
أجمع الخبيريون على ان مثل هذا اليوم لا يجيىء الا فيمادر فقلت
لعل هذا من كرامات المؤتمر أو ان أحد أصحابنا فى مصر قرأ
لنا حرب البحر

ثم نزلنا فى المدينة فاستقبلنا أعوان الكبرك يسألوننا هل معنا
شئ من الدخان والسجائر ثم وضعوا أمتعة المسافرين على كثرتها
فى مخزن كبير بحسب ترتيب عددها فى التسجيل ووضعوا النمره
على الارض بالطباشير لكل متاع مسافر وعدد مامعه من
الشنطات وما يتبعها لكي يتوجه كل أحد بحسب تذكرته الى
موضع نمرته فيرى متاعه بدون أن يكون ازدحام أو اختلاط
أوضحه أوجه فأعجبني هذا الترتيب وبعد التفتيش سارنا

دخول
انكلترا

القطار الى لوندرة فيما بين حقول خضراء ناضرة ومراع واسعة زاهرة

وصول لوندرة فلما وصانا المحطة المقصودة من لوندرة في مساء ١٩ أغسطس

تلقانا عامل من بيت كوك ومعهم كثير من مكاتب اخواني الذين تركتهم في مصر وصلت قبل وصولي فحفظناهم الى عامل كوك وقد تلوتها باشتياق زائد قبل ان انتقل خطوة واحدة وشكرت الله على هذه النصف مشاهدة مسرورا بها شاكر الله ذاكره ما لهم من الفضل والعناية ثم ركبنا العربة قاصدين الفندق فاذا المدينة كبيرة ضخمة بحسبة هائلة لا يصح ان تسمى مدينة أو عاصمة بل هي قطر كبير واذا حق لي تسمية باريس (بحسبة

الدينا) فلا بد لي من تسمية لوندرة موساعات العالم

وقد نزلنا في أهم فندق بأهم حتى من احياء هذا القطر اعلاء شأن الأمورية واعتبارا لمقام حكومتنا السنوية وهو المعروف بـ (ألبارل هوتيل) وهو من الطبقة الاولى ولا ينزل به أحد من المسافرين الا بتوصية أو تقديم وكان نزلا لاعضاء العائلات الملوكية الذين جاؤا الى هذه الديار وقد كان النور الكهربائي فيه طوع بناني طول الليل وطول النهار وان البراع عاجز عن

وصف ما عليه الفندق ولكنى أقول ان بذل الدنانير الوافرة أجرة
لنزول فيه كبذل الدراهم في غيره وأسأفه بما في المقدور في
الرحلة ان شاء الله تعالى

وفي صباح النهار نزلنا الى قاعة الاستقبال فرأينا ثلاثة من بعض زيارات
أبناء بلدنا قد حضروا للسلام علينا وكنا لا نتوقع ان أحدا يعرف
مكاننا في تلك الساعة فحصل لنا برؤيتهم ومكالمتهم مزيد السرور
وهم من التلامذة الذين أرسلتهم الحكومة الخديوية للتعلم
في بلاد الانكليز

ثم حضر لزيارتنا في الفندق سعادة الجنرال السير غرنفل باشا
سردار الجيش المصرى سابقا فاستقبلنا سعادته بواجب الاحترام
اللائق بمكانته من الفضل والعلم وهو الذى ساعدنا في مأموريتنا
هذه كما سيمر على نظر القارئ ثم حضر لنا رفيقنا الثالث وهو
الدكتور فولرس وقد رددنا له الزيارة بعد ذلك

فلما جاء يوم افتتاح المؤتمر أرسل لنا سعادة سردارنا أعمال المؤتمر
السابق عر بته لتقلنا الى محل الاجتماع فلما وصلناه رأيناه ^{بغاية} _{الاجازة}
يوج بالناس ولا يجهل القارئ ان جميع من يضمه المكان هو
من مشاهير العلماء ونخبة الفضلاء من كل أمة ولم يحضر المؤتمر

أحد من العائلات الملوكية بل كلهم اعتذروا برسائل برقية
وغير برقية

وأفتح حضرة الرئيس الاستاذ مكس ملر أعمال المؤتمر
بخطبة قد كانوا طبعوها في ٦٣ صحيفة ووزعوها علينا وكلها
غرر ودرر وربما لخصتها في الرحلة أما الرياسة الادارية فقد كانت
في يد اللورد نورثبروك (الذي كان حاكما على الهند وقد جاء مصر
من زمن غير بعيد) ولاحظ الجميع ان الوقت المقرر قد مضى ولم
يتم العمل المحدد في البيان الرسمي ليوم الافتتاح بل انه لم يتكلم
أحد غير الرئيس وآخر اثنى عليه وثالث تكلم بالظليانية وعلى
ذلك انقضت الجلسة الافتتاحية وفي المساء كانت مأدبة اللورد
نورثبروك لاربعة وعشرين مدعوا من أهل المؤتمر لم يكن بينهم شرقي
غيري وقد أجلسوني على المائدة والى يميني الدكتور بوهلر
وهو من أشهر مشاهير العلماء في أوروبا والى يساري السير غرنفل باشا
وكانت المأدبة أشبه شئ بما آدب الملوك على ما سمعت لا ما عرفت
وفي الايام التالية كانت الاقسام تشتغل بمباحثها وفي جلستها
الفرع الثاني من القسم الثاني الخاص بالساميات الذي كنا فيه
فلما جاء دورنا تكلم الدكتور فولرس على رسالة كتبها في الاصوات
العربية مستندا على مارواه ابن يعيش شارح المفصل وما جاء به سيبويه

النحوى ثم تلوته بالفرنساوية مبينا إجمال مافى الرسائل التى قدمتها
للمؤتمر ثم قام حضرة الاستاذ الشيخ محمد راشد وتكلم على رسالته
التى كتبها فى الكلام الدارج بمصر القاهرة وأورد كثيرا من أرجال
العوام والحائهم وموشحاتهم وموالياتهم وأدوارهم ثم قدم شرحا
مطولا كتبه على خطبة مقامات الحريرى

وفى اليوم الرابع عينوا لجنة دولية للنظر فى شؤون المؤتمر
الآتى والاقرار على وقت انعقاده ومحلّه وتعينت فيها عضوا
نائبيا عن الديار المصرية وكان الحاضرون ٢٥ بما فيهم الرئيس
فقلبت الخطابات الواردة بهذا الصدد ودارت المذاكرة على
تعيين وقت انعقاد المؤتمر الآتى فقال الكونز داجو بيرانتى
مندوب إيطاليا ان اللازم عقده بعد ثلاث سنوات حتى يتيسر
للعلماء فى خلال هذه المدة أن يحضروا مباحث يقدمونها فيه
فقلت حينئذ (ان القاعدة التى تقررت فى أول الامر لاجل عقد
المؤتمر كل ثلاث سنوات انما كانت لقلّة المستشرقين وأما الآن فقد
انتشروا حتى كان لهم من أمريكا مشاركون كثيرون والواجب
علينا أن نوجد لهم فرصا كثيرة يعرضون فيها أعمالهم لئلا يزداد
الشقاق بين أجزاء هذه الجمعية فتضيع القاعدة الأولى بالكلية
وتذهب ثمرات هذا الجمع ادراج الرياح ويصير علماء كل دولة على

عقد مؤتمر في عاصمتها كل عام أو عامين فيمتفرق العمل شذرا منذر
ولهذا فاني بمناسبة الشقاق الحاصل الآن في لسمون أرى وجوب
الاقرار على عقد المؤتمر في سنة ٩٤ أي بعد سنتين فقط)
فطرح الرئيس هذين الرأيين على الاعضاء وحسبت الاصوات
فاذا هي متساوية في كل فريق ١٢ عضوا وبقى الترجيح له
فأطال الامعان ثم انحاز الى رأينا وتقرر الاجتماع في سنة ٩٤ ثم
تقرر أن يكون من كزه مدينة جنيفا (جنوبه) ببلاد السويسره
ثم تقدم مشروع خاص بتنظيم أعمال المؤتمرات في المستقبل
وجعلها تسير على وتيرة واحدة فتقرر بعد بعض تعديلات

ولما حل اليوم المحدد لانفضاض المؤتمر اجتمع فيه خلق
أقل من الذين حضروا يوم الافتتاح ودارت المذاكرة على ماقررت
اللجنة الدولية التي سبقت الاشارة اليها ثم أعلنوا بالاختتام

وفي المساء توجهنا الى مأدبة أعدتها لجنة تنظيم المؤتمر لجميع
الاعضاء في قاعة (هوتيل متروبول) وهو من أكبر فنادق لوندن وكان
عدد الحاضرين فيها ٣٠٠ مدعو وكان السير غرنفل باشا على يميني
والاستاذ الفاضل الشيخ محمد راشد على شمالي ولا يخطيء من
يشبه هذه الحفلة ببرج بابل من حيث اختلاف الالاسنة الا أنها
بالغة في الكمال والاتقان جمعت أصنافا كثيرة من بني آدم ولغات

متخالفة تكلم بها القوم الواحد بعد الآخر وقال رفيق شياً
يناسب المقام ثم تكلمت بالعربية حسب مقتضى الحال واعلم
انه لكبر هذه المدينة واتساعها لم يظهر فيها أثر ما لانعقاد
مؤتمر المستشرقين فيها بل ولا أقل أثر لمؤتمرات غيره كانت منعقدة
في الوقت الذي انعقد مؤتمرنا فيه وهي مؤتمر للعملة (بفتح الميم)
ومؤتمر للعامل وثالث للصحة وكل هذه منزوية في غضون جوف
هذه المدينة التي تسمى في كتب العرب (لندرس) كما يسمون
عاصمة فرنسا (بريس) وأما اسمها في لغة أهلها فهو لندن ولكن
الفرنساويين يسمونها (Londres) ويضعون في آخرها سينا
لا ينطق بها فاذا أرادوا النسبة اليها رجعوا للاصل اللاتيني الذي
يقرب من اللفظ الانكليزي فقالوا لندنيان (Londonnien)
وفي الاسبوع الذي كان المؤتمر منعقد فيه (من ٥ الى ١٢
سبتمبر) دعينا لما آدب كثيرة ونزه مفيدة للجسم والفكر
يسمونها رياضة رياضية وبلغتهم جاردن پارتي (Garden
party) لكنهم ينطقون بها جادن پارتي بجيم وألف مفخمين
ونون لا تكاد تظهر وكذلك الباء الفارسية والالف في التفتيح
والتاء والياء في عدم الظهور (فهذا درس من اللسان الانكليزي
وان كنت لأعرف منه الآن الا قليلا) ولا أذكر من هذه

الرياضات الرياضية في هذا المقام سوى مأدبة أعدها لنا اللورد
امهرست (وهو غير الذي كان حاكما على بلاد الهند) فقد
دعانا في يوم ١٣ سبتمبر الى قصره الكائن على مسافة أربع
ساعات من لوندرة فركبنا القطار وزلنا عند وصولنا في عربات
فاخرة أرسلها لثارب الضيافة ومنزله أشبه شئ بمدينة عامرة فيها
الرياض الغناء ومن ألطف ما يروق النظر فيها أما كن أعدها
للعب فسيحة الأرجاء مفروشة بالأعشاب الطبيعية وفيها الغابات
والبحيرات لصيد الطيور والأسماك ومعمل للغاز وآخر للكهربائية
وآخر لاصطناع العربات وترميم آلات الزراعة وخزائن للأسلحة
وغير ذلك مما يدل على الحضارة و ضخامة الثروة واصالتها وأذكر
انه جمع في روضته هذه كثيرا من الأشجار النادرة الغريبة
من أقاصى المشرق والمغرب وله عناية بالأزهار والفواكه فوق
العقل وقد رأيت عنده صنفا من العنب كبير الحجم لزيد الطعم
أبيض اللون وله خاصية الرائحة الذكية فيضوع أريجه عند
أكله

وقد اصطنع فيه زهرية على مثال بستان الأزهار الذي كان
في قصر الحمراء بغرناطة أيام دولة عرب الاندلس وشكلها آخذ
بالصريحجة ورونقا

أما داخل القصر فحدث عنه ولا حرج وقل ما شئت ففيه دار تحف مصرية وبابلية وعمومية ولاجل أن يتصور القارئ مقدار التحف التي فيه وعظيم أهميتها أقول انه يوجد لديه ١٣ صندوقا كبيرا كلها مشحونة بآثار مستخرجة فقط من تل العمارنة في ديارنا قريبا من ملوى بمديرية أسيوط وهو ينظر الآن في بناء محل متسع لعرض هذه الآثار فيه وأما المكتبة فهي كبيرة جدا وفيها نسخ كثيرة بخط اليد من المصاحف الشريفة وكثير من الكتب العربية والفارسية والهندية مما له قيمة وذلك عدا الكتب الأفرنجية المنسوخة بخط اليد المحلاة بالصور والرسوم البالغة حد الاتقان والكتب التي كانت بائنة اختراع المطبعة في أوروبا وفي إنكلترة وهي الآن نادرة الوجود ولما توجد في المكتبات العمومية التي من الدرجة الأولى وأحسن شيء رأيناه نسق وضعها وترتيبها المدهش للعقول وقد أعيد للكتب النادرة المثال خزائن من الحديد خشبية عليها من الحريق إذا شئت الناروان كان متحفظا على جميعها كما ينبغي

وفي المنزل غرفة ورقها من الجلد الأندلسي القديم وعليه أشكال ورسوم صورها احد المعلمين النابغين وأما الاواني والفرش والاثاث والاستعداد وكثرة الرسوم والطيور والحيوانات المصبرة

فذلك مما لاحد لوصفه ولا تسلب بعد هذا عن بقية قاعات النوم
والجلوس والاكل وما تحتوي عليه من الاثاث والنور والاشكال
والاوضاع فكله من وراء مقعد دور اليراع وصفه وفي الدار كلها
اسطوانات عليها اعلانات تفصيلية بكيفية استعمالها بالسهولة
لايجاد النار اذا شئت في أى مكان و خلاصة القول انه اذا كان في
الدينا نعيم فهو في منزل هذا الرجل

أما دماثة أخلاق حضرة اللورد وحسن معاملته لنا هو
وزوجته وبناته الست فذلك بمقدار ثروتهم وحضارتهم وقد
أحرزوا من شكرنا لهم بمقدار ما كان لهم من مكارم الاخلاق
ومن بناته ثلاث أو اثنتان جئن مصر والباقي لم يزرنها ولا كنهن
يقرأن الحروف العربية ويقدرن على كتابة بعض الكلمات
بخلاف اخواتهن الأخرى وقد كان بود هذه العائلة الكريمة
ان تبقينا عندها أياما كثيرة وليكا اعتذرنا لان حضرة الشيخ كان
لا بد من رجوعه الى مصر في يوم ١٦ سبتمبر فودعناهم بعد
ان أخذت احدى كريماته صورتنا بالتقوigraf وبعد
ان استكتبونا أسماءنا بالعربية والافرنجية

أما نزهتنا في لوندرة فلا أتكلّم عليها الان وانما أذكر اني
شفت الغليل برؤية شبه مدينة البندقية في احدى ضواحيها

وهو محل متسع فيه تياتر ورحب وفيه مهمل للزجاج يشبه معامل
البندقية وفيه شوارع مائية ومراكب ومراكبية تمثل للانسان
مدينة البندقية بالتام

فمدت الله على هذه الفرصة الذي جعلت لي فكرة على
هذه المدينة المائية حتى كأنني شاهدتها بالعين فما لا يدركه
لا يتذكره

وقد توجهنا في يوم من الايام الى معرض التاريخ الطبيعي
البريطاني وكان مرشدنا فيه حضرة وطنينا الفاضل المنفرد
بالشهرة في هذا الفن الدكتور عثمان بك غالب فاستفدنا من
دقائق المعرض وحقائقه أشياء كثيرة وأقول الآن ان الحكومة
تنفق عليه وحده في السنة خمسمائة ألف جنيه انكليزي وقد
كان في الاول فرعا من المتحف البريطاني فلما اتسع نطاقه
وازدادت معروضاته نقلوه الى هذا المكان المخصوص وهو في غاية
الترتيب ونهاية الكمال



الرسالة العاشرة

لوندره

عظمة لوندره
وجسامتها

بودى لويتيسرلى أن أكتب الآن ولو كلمتين على هذه
المدينة بل على هذا القطر الواسع الذى يسمونه لوندره ولكنى
أقف امام هـ هذا الموضوع الهائل شبيها بالتملة بجانب مسجد
السلطان حسن أو كالزورق الصغير فى البحر المحيط تتلاعب به
الامواج وأنى له أن يهتدى الى بر السلامة فعلى م أكتب وماذا
أصف وفيه أخوض فلقد اشتمت متاجرها على جميع أصناف
العالم ومحصولاته كما ان بضائعها ومعاملها بلغت من الاتساع
والاتقان فوق ما يتصوره الادراك حتى إن مجرد الدخان الذى
ينبعث منها الى سمائها يتحد مع ضبابها ويزيد فى تكدير جوها
ثم يتساقط على مبانيها وعمارتها وتماثيلها وانصابها فيجعل منظرها
أسود قائما كشيئا محزنا تنقبض منه النفوس ويذهب بالانشراح
ادراج الرياح وفيها من الاقبال على الشؤون واغتنام الفرص ومعرفة
قيمة الوقت ما يحير الافكار ويهر الابصار ورجال الشرطة فيها
بلغوا من الانتظام وحسن الدراية وكمال الدربة ومعرفة الواجبات
ملايكاد يضاهيهم فيه غيرهم فى الكون بأسره حتى صار لهم مهابة

في النفوس وسيطرة حقيقة على كافة الافراد بحيث ان أقل اشارة
منهم تكفي لمنع أى خلل أو اضطراب

أما استمرار الحركة في شوارعها فما لا يتصوره الانسان حركة لوندرة
الابعد المناظرة بالعيان فانها في أقل الايام (ماعداد يوم الاحد)
تشبه يوم مهرجان النيل أو ليلة احتفال الاجام في العاشر من
محرم الحرام أو موسم المولد النبوى أو الاجدى فترى العربات
العمومية ذوات العجلتين وذوات الاربع تتقاطر وراء بعضها
وبجانها عربات الاومنيوس شبيهة بالنازل والدور كسلسلة
متصلة الاطراف والناس يتبع بعضهم بعضا كأنهم يساقون الى
المحشر الى غير ذلك مما يقتضى التعريف به أن يظهر الحقيقة
فوق الاعراق والعلو في المبالغة ولكن لا يصح لي أن أعتذر
بتعذر الاحاطة بأطراف هذا الموضوع عن كتابة ما شعر به الوجدان
وتأثر به الجنان وانى أحاول ذكر قليل مما يتسرى الوقوف عليه
من الاجاليات ومن أمور شتى ومنشورات متنوعة تصور للقارئ
بعضاً من كل من جسامه هذه المدينة العظيمة واتساع نطاقها
وامتداد أعمالها وكيفية الحركة فيها

فأقول شئ يؤثر على عقل القادم اليها ما يراه فيها من حركة
الوابورات وسرعة مسيرها وكثرة عددها وتنوع اتجاهاتها واختلاف
لوندرة

أوضاعها في الارتفاع والانخفاض حتى يكاد يعتبره دوار في الرأس
يشبه دوخة البحر ويدخله خوف شديد من امكان حصول
الاصطدام في كل لحظة أو خروج القطار عن الشريط في كل
خطوة حتى اذا وصل المحطة زادت الدهشة مما يراه فيها من الاتساع
وكثرة الارصفة وحسامة المباني وتعدد صنوف المخلفات وتناهي
صفوف العربات مما يضيع اللب ويذهب بالرشاد ثم متى دخل
في شوارعها وسار في طرقاتها ومسالكها بهت وبلغ الاضطراب
منه منتهاه

ومهما وصفت ومهما شرحت ومهما بالغت فاني لا أبلغ
عشر معشار الحقيقة ولذلك رأيت ان الطريقة المثلى هي أن
أكتفي الآن بذكر بعض أمور متفرقة تجعل للقارئ فكرة صغيرة
من عظمة هذه المدينة الكبيرة

ولكني أقول قبل ذلك ان الشركات والجمعيات وما بينها
من المزاج الممدوحة والمناظرة المحموده هي روح هذه الحركة
وأس هذا الارتفاع فهما نظر الانسان الى أي عمل من الاعمال
راه في يد شركة من الشركات وليس للحكومة دخل في شئ ماسوى
المراقبة العالية التي تجعل الجمهور في أمان من اغتيال هذه
الشركات وفيما عدا ذلك فان الامة قائمة بنفسها مكتة في طلب

فوائد
الشركات

المكاسب والمعالي بما يفيدها ويرفع شأن دولتها من غير أن تتنازل
وتقد يدها لامتداد الحكومة ماديا أو معونتها معنويا حتى ان
الانسان ليتساءل بعد ما يراه من تنوع الشركات وتناولها كل شأن
من شؤون العقليات والمحسوسات كيف ان مثل البوستة
والتلغراف والكمرك والدخولية والبوايس والجيش ليس في يد
الشركات نعم فقد كانت البوستة والتلغراف خاضعين لهذا القانون
العام في هذه البلاد بلاد التعاضد على الاعمال والتباعد عن
النجول والاهمال ومعرفة ثمرات الاجتهاد والاتحاد والاقتدار على
انماء المال ولقد كان فتح الهند كما لا يخفى وازافتها للدولة
الانكليزية على يد شركة تجارية

وذلك لان أفراد الامة البريطانية يرون أنهم لم يخلقوا الالعمل
والاكتساب ولقد بلغت محبة الاستقلال فيهم مبالغ لا يكاد
يتصوره العقل حتى ان بعض البنات في العائلات الكبيرة تذهب
للرسم والتصوير أو التطريز والتدبيج أو التعليم والتدريس
لتكتسب بنفسها ولا تكون كآ على عواتق أهلها مع ما هم
فيه من الثروة الرفاهية ومنهن من يؤثرن التغرب في بلاد الهند
واستراليا وكندا بصفة وصائف أولى من البقاء في منازلهن
خاليات من العمل منغمسات في البطالة والكسل وذلك شأن الشبان

باجتهاد
الأفراد فجاح
المجموع

أيضا حتى لقد جاء في أمثالهم أنه (لاشئ يفلح مثل الفلاح)
وذلك يشبه المثل الفرنسي (الغاية تبرر الوسطة) وهم يعتبرون
الفقر عيبا بخلاف سائر الأمم ولذلك يشتغلون كلهم مثل النحل
ولو كان الرجل منهم ابن غني يملك القناطير المقتطرة فلا يبد له من
التسكيب بعرق جبينه

استثنى
الانكليزي
كل شئ

ووجههم لوطنهم ولا أنفسهم ولا بناء جنسهم أمر لا يكيف
مثال ذلك أن الرجل منهم اذا كان يعرف لغة غير لغته الاصلية
فلا يتكلم بها الا عند الضرورة القصوى واذا رأى منك أنك
تعرف من الانكليزية مبادئها أخذ يحاطبك بها ويجهد في
منعك من مكالمته باللغة المشتركة بينك وبينه لانها غير انكليزية
وكذلك السكة فلا يتعاملون بغير العملة الاهلية مطلقا ومثلها
المقاييس والمكاييل والاوزان ومع ان العقلاء منهم يعترفون
بأفضلية الطريقة الاعشارية لكنهم لا يزالون متمسكين بطرائقهم
المتعددة المتخالفة التي ليست على أساس ثابت ومثال ذلك أنك
اذا توجهت لاي مخزن وطلبت صنفا أو محصولا مما اشتهرت
بعض البلاد الاجنبية بصناعته واتقانه فان رب الخانوت يجيبك
بأنه موجود عنده ولكنه ينصحك نصحا مكررا بأخذ الصنف
الانكليزي قائلا لك انه أجود وأفضل من جميع الوجوه

وهذا الموضوع يجبرني الى الاستطرداد بكلمة واحدة على
الوطنية في بلاد أوروبا التي أتيج لى زيارتها الى الان وهى
اطاليا وفرنسا وانكلترا فهى التى جعلت هذه البلاد ذات سطوة
عظيمة وبأس شديد فانهم ينظرون الى من يخدم الوطن باعتبار
أعماله العمومية المفيدة للبلاد ويجأون ذكره على الدوام من غير
أن ينظروا مطلقا الى أعماله الشخصية وأموره الداخلية ومهما
كان فيها من موجبات الانتقاد فان ذلك لا يمنعهم من اعتباره
واحترامه ورفع صيته الى أعلى عليين ألا ترى ان (غاربالدى) الذى
يهتز لاسمه قلب كل وطنى طليانى قد خدم الدولة الطليانية وأوجد
وحدثها فأحلها أهل بلاده المحل الاول من الاعزاز والاعظام ولم
يلتفتوا الى ماتناقله بعضهم عنه من الاعمال المنكرة التى ارتكبها
زوجته الفتاة وقد اتخذها بعد ان صار طاعنا فى السن ومثال ذلك
غامبتا رجل الجمهورية الفرنسية فان قصته مع عشيقته معروفة
وهى التى أطلقت عليه الرصاص فنقلته الى غير هذه الدار ومع
ذلك فهو موضوع الاعجاب عند الفرنسية يلهجون بذكره
ويتمدحون بما آثره ويحتجون بأقواله ويستشهدون بأعماله وقد
أقاموا له فى أعظم نقطة من باريس حيث كان قصر الامبراطور
جهة ميدان الكاروسل تمثالاً فخيماً رفيعاً اكتب الاهلون

لإقامته على أنحر مثال وهم يأتون لزيارته من كل أنحاء فرنسا
يضعون عليه الاكاليل والتهجان

وأما لوندرة ففيها تمثال أمير البحر (الاميرال نلسن) الذي كسر
الدونامة الفرنسية وتعبها في كل البحار وفاز بالانتصار في وفائعه
وخصوصا في الجهة من الاندلس المعروفة في كتب العرب باسم طرف
الاجر (التي حرفها الافرنج الى ترافالجار Trafalgar وقد خبط أصحابنا
المترجون في نقلها الى العربية فقالوا ترافلجار أو طرف الغار)
فقد أقاموا تمثالا فاحرا على عمود شامخ يشرف على كل مباني
لوندرة ونظروا الى ما كتسبه منه الوطن ولم يلقنوا بأى وجه الى
علاقته السرية مع امرأة أخرى (كان لها بعل فيما بلغني)
حتى انه حينما أدركته الوفاة أثناء الواقعة البحرية في طرف
الاجر كان أول شيء اهتم به هو السؤال عن نتيجة القتال فلما
بلغه ان النصر لدولته سكر بخمرة الفوز وهو في سكرات الموت
ولم يلتفت بعد ذلك لشيء سوى انه أوصى باعطاء سيده ووشاحه
الى خليلته

ولقد يذكرني ذلك بالملكة كاترينة امبراطورة روسيا فان
التاريخ ينبئنا بأنها كان لها محبون معلومون واهم مرتبات
وعلوفاة رسمية بهذه الصفة في ميزانية الحكومة حتى انها لبست

الحداد رسميا بعد وفاة أجدادهم اليها مدة سنتين ومع ذلك فلا يزال
الروس يفتخرون بها ويعجبون ذكورها لان دولتهم في أيامها
وباجتهادها بلغت من التقدم وعلو المكانة ما جعل لها جانباً مهيبة
في أعين الدول الاخرى

فهكذا يكون حب الوطن وهكذا يكون السعي في تشجيع
الفضلاء على خدمته فان النظر الى السفاسف وتعقب الهنوات
التي لا يترتب عليها ضرر للاسرة والوطن لا يكون من ورائه الا إهباط
العزائم وتبسيط الهمم فتخدم القرائح النسيبة وتنطق الافكار لوقادة
ويقدم المجتهدون وأصحاب الاماني عن الكد وراء المعالي ولا يصيب
الوطن من ذلك الا خسران رجال ربما كان له من وراء أعمالهم
فائدة جلية

ولقد ساقى الكلام على وطنية الانكليز الى هذا الاستطراد
فأسأل القراء عفووا لاني أرى نفسي وجوارحي وقلبي وفكري
تندفع بالرغم عني الى ذكر شيء من هذا القبيل عسى أن يكون
له صدى في بلادنا فيكون من ورائه النفع العميم

وأرجع الآن الى الكلام على لوندرة التي يتعسر على احصائيات
الانسان أن يقول أين مبدؤها وأين منتهاها ومن المحتمل انه لم
يتفق لا أحد أنه رأها كلها وان ذلك لن يتفق في الاستقبال لما يستوجبه لوندرة
ناطقة بحمامة لوندرة

المشروع من الصعوبة والاعتاب والحيرة والاضطراب فان
مسطحها ٣٥٠ كيلومترا مربعا من غير ضواحيها وارباضها
وقدّروا أطول دائرتها ٩٠ كيلومترا وان طولها من الشرق الى
الغرب ٢٥ كيلومترا ومن الشمال الى الجنوب ٢١ كيلومترا
وطول طرفها ١٥٠٠ ميل وطول بالوعاتها ومصارفها ٢٠٠٠ ميل وكان
عدد سكانها في أول هذا القرن أي سنة ١٨٠١ عبارة عن ٨٦٤٠٢٣
نفسا وفي سنة ١٨٢١ صاروا ١٢٢٧٥٩٠ ولما جاءت سنة
١٨٧١ بلغوا ٣٢٥٤٢٦٠ يسكنون في ٤١٧٧٦٧ دارا وفي
سنة ١٨٨١ أثبتت الاحصاء الرسمي أنهم ٣٨١٤٥٧٠ بمافي
ذلك الضواحي المتصلة بها تمام الاتصال ويتضح من التقرير
الابتدائي عن حركة السكان في سنة ١٨٩١ ان عددهم في شهر
ابريل من تلك السنة كان ٥٦٣٣٣٣٢ وعدد المنازل ٧٩٧٦٧٩
وعدد الاغراب المتوطنين بها ١٥٠٠٠٠ ولها وحدها في مجلس
البرلمان ٥٨ عضوا ينوبون عنها

وسائط النقل ولكنك اذا نظرت الى ذلك الاتساع الهائل وتلك المسافات
المتباعدة الشاسعة تراها معدومة وكأنها لم تكن فان المدينة
قرية الاطراف لسهولة التنقل وكثرة الوسائط من كل نوع ففيها
أكثر من ١٥٠٠٠ عربة بعجلتين وحصان واحد والساائق من

خلف (واسمها هنسم وهى مثل عربات الاوتيل كوتيفنتال فى القاهرة) أو باربع عجلات وحصانين لركوب هذه الخلائق المتزاجمة أما عربات الامنيوس فلا تقل عن ٢٥٠٠ عربية تسير فى ٢٠٠ خط متميزة عن بعضها وقد انشأتها شركات متعددة وقد بلغ عدد الركاب فى عربات احدى هذه الشركات (وقدرها ٨٦٠ عربية) ٦٠ مليوناً من النفوس فى سنة ١٨٨٢ وفى كل عربية منها ٢٦ مقعداً ١٢ فى الداخل و ١٤ على ظهرها وفى أكثرها زيادة على ذلك مكانان بجانب السائق وفى ضواحي المدينة وبعض جهاتها عربات الترامواى التى تجرها الخيل على قضبان حديدية وهى لاربع شركات ولا يمكن ادخالها فى المدينة لكثرة الازدحام فان المقرران عربتين تسيران الى الامام وعربتين الى الخلف وقلما تكون جهة من الشارع خالية من الاربع عربات

وقد أحدثت سكة حديد العمامة (التي تسير تحت الارض) عربات الامنيوس توصل بين المحاط وبعضها وتتميز عن عربات الامنيوس الاخرى بان السائق تكون فوق رأسه مظلة كبيرة عليها اسم الشركة ويجوز لكل انسان صادفها فى طريقه ان يركب فيها

وفيها أيضا عربات تسمى (ماى كوتش) تسير بالسواحين
والمتفرجين الى بعض مدائن الزهة القريبة

وفيها شركة تتكف بحمل الامتعة والرزم والطرود التي
لا يتجاوز وزنها ١٠٠ رطل الى أية جهة من جهات لوندرة
وضواحيها ولها أكثر من ١٢٠٠ مكتب فرعى متوزعة في كل
أنحاء المدينة وعن النقل زهيد جدا وقد تأسست شركة أخرى
لنقل البالات مثل بالات الاقطان والبراميسل بانواعها والبضائع
الكبيرة الحجم وأهم هذه الشركات فيها ٧٠٠٠ مستخدم
و ١٠٠٠٠٠ حصان وهنا أقول ان سائقى العربات في لوندرة
يفوقون في صناعتهم جميع أمثالهم في سائر أنحاء الارض

وهناك أيضا شركة خيرية تألفت لمساعدة العساكر البرية
والبحرية الذين قضاوا مدة الخدمة فانها تكفلهم وتقوم
باحتياجاتهم وتستخدمهم في نقل الرزم والطرود الصغيرة باجرة
لا تتجاوز ١٥ مليما بحسب بعد المسافة ونقل الحمل

ويوجد بها شركات لها زوارق بخارية كثيرة العدد تجرى
في نهر التيمس على الدوام لنقل هذه الجواهر المجهرة من مكان
الى مكان وهى في البحر بمثابة عربات الامنيوس في البر ويجوز
للراكب فيها ان ينقل من الواحد للآخر بحسب الجهة التي

يقصدها من غير زيادة في الاجرة وهي لا تتجاوز ١٥ مائليها وتقوم
المركب كل خمس دقائق ويوجد شركات أخرى لها بواخر تسيير
بين لوندرة والجهات التي على نهر التيمس وتقوم كل ربيع ساعة
وكل نصف ساعة (ماعددا أيام الشتاء) وفوق ذلك على النهر
مراكب كثيرة بالقلاع والمقاذيف يؤجرها الناس للفسحة على
الماء أو للتنقل من جهة إلى أخرى ويوجد مراكب بخارية
انشأتها بعض الشركات للسفر من لوندرة إلى جميع موانئ انكلترا
واسكتلندة وارلندة بل ولفرنسا والجهات الأخرى من قارة
أوروبا هذا بصرف النظر عن المراكب البخارية التجارية
الكبيرة التي تختر في جميع البحار

وفي لوندرة أكثر من ٥٦٨ محطة للسكة الحديدية أقل
واحدة منها (حتى التي تحت الأرض) أكثر من محطة مصر
القاهرة الحالية اتساعا وحركة وعملا ومنها مايساوى محطة مصر
والاسكندرية وطنطا ثلاث مرات في ثلاث مرات وقد يمر في
بعضها (مثل محطة كلاپهام) أكثر من ١٤٠٠ قطار من غير
احتساب قطارات البضاعة (وأنت ترى من هنا كم ينبغى أن
يكون مقدارها في بلدة تجارية صناعية مثل لوندرة)
وفي سنة ١٨٨١ نقلت سكة حديد العاصمة وكلها تحت

الارض ١١٠ مليون من الركاب بالتمام وقد ازداد هذا العدد
الآن زيادة كلية

وصف
القطارات
بلوندره
ثمان القطارات كثيرة جدا وسريعة للغاية والعربات مفروشة
بكل عناية واتقان حتى ان عربات الدرجة الثالثة هي أحسن
بكثير من عربات الدرجة الثانية عندنا ولا يمكن ان يمر على الانسان
لحظة واحدة وهو في القطر من غير أن يرى قطرين أو ثلاثة
تحت اقدامه ومثلها بجانبه ومثلها فوقه بقليل ومثلها يجري
على القناطر والجسور ومثلها بجذائه ذات اليمين ومثلها الى
جانب اليسار وهكذا مما يحدث الخيال وذلك كله نتيجة المزاج
وثمره المناظرة فان الذي يريد أن يتوجه من لوندرة الى مانشستر
مثلا يجد أمامه خمسة طرق مختلفة في يد شركات مختلفة وكل
واحدة منها تجتهد في ان تضمن للمسافر من المزايا والفوائد والتسهيلات
ما يجعله يقبل عليها دون سواها حتى ان الطوالات الخشب
المستعملة في الدرجة الثالثة أصبحت لا وجود لها بالكلية وقد تكون
عربات الدرجة الثالثة في قطرات الاكسبريس كما ان بعض
القطرات لا توجد فيها إلا الثانية وفي بعضها (وهي السريعة) لا ترى
الا الاولى

ولا يمكن أن يمضي على الانسان اذا وقف في مكانه ثلاث

دقائق من غير أن يمرّ عليه ما يريده من عربات الامنيوس أو القطرات أو الزوارق البخارية أو غير ذلك فأصبحت المسافة في هذا البلد الطويل العريض معدومة والابعاد متقاربة لسرعة وسائط النقل وكثرتها وسهولتها وتيسرها

وخلاصة القول ان تعدد الشركات ومنافستها لبعضها التنافس الممدوح يجعل الانسان مهما قلب ناظره في أية جهة من جهات المدينة على وجه الارض أو تحت الارض أو في الجو فوق أسطح المنازل يرى عددا هائلا من القطرات البخارية منها ما يرفع عقيرته الى عنان السماء ومنها ما يكتم نفسه في جوف الارض ويكتفي بالالين

ومن تأمل في حركة هذه القطرات التي لا ينقطع دويها كلها
مركبة من ٢٠ أو ٣٠ عربة كبيرة وكلها مشحونة ببني آدم
ثم نظر الى الزوارق البخارية والى سواريتها التي تجعل النهر كغابة
بالغة في الاتساع ثم نظر الى عربات الامنيوس وهي تجدد في
السير وليس بها مقعد خال ثم نظر الى حركة الشوارع وما فيها
من المركبات المختلفة المقادير والاجسام والاشكال والانواع
وكلها غاصّة بالناس وبالضائع ثم نظر الى جانبي الطريق ورأى
الاقوام تتور وتوج كالسيل المنهمر الذي لا يصدده عائق فلا

تشخيص
حركة توندرية

شك أن يعثره اضطراب واندهاش وتأخذ هذه الحيرة والاختبال
ويحكم بان هذه المدينة كقرية النمل وليس لها من هذا
القبيل نظير في العالم بأسره على الاطلاق والذي يزيد في الاعجاب
والاستغراب انه لا يسمع صوتا ولا صياحا ولا ضجة ولا اعتراكا بنسبة
جزء من ألف جزء من هذه الحركة بل كل انسان صامت أو هامس
مقبل على شؤنه مكذ في الذهاب الى مقصده وكل شئ يجري فيها
كالساعة المنتظمة ذات الآلات الكثيرة والغايات المتنوعة حتى
ان الغريب ليحكم بانه بين قوم لا يسمعون ولا يتكلمون

سكة حديد
العاصمه

ولا أنتقل من هذا الموضوع قبل أن أذكر شيئا يسيرا عن سكة حديد
العاصمه فانها عبارة عن طريقين أولهما يدور حول السقي City
(أعنى المدينة مثل السكرية والغورية وما حوالهما من الجهات
فانها معروفة في مصر القاهرة باسم المدينة أيضا) والثاني
حول البلد كلها وهما متصلان ببعضهما في كثير من النقط
وقد بلغت نفقات المييل الواحد فيها بلغني ثلاثة ملايين من
الجنيهات لان الشركة التزمت بدفع قيمة الاراضى والمنازل وحفر
الارض وبنيان القباب والعقود وغير ذلك مما يوجب صرف
المبالغ الجسيمة وبما ان القطرات في هذه الطرق تسير تحت
الارض الا عند دخولها في المحاط (فانها كلها مكشوفة الى السماء)

فقد رأى مهندسو الشركة أن يصنعوا الآلات البخارية محتوية على مرتبتين مفيدتين جدا لمقتضى الحال فأولاهما ان الآلة مجهزة بحيث أنها تحرق الدخان المتصاعد منها فلا يكون له أدنى تأثير وثانيتها انها تصطنع من الفحم الذى تحرقه زيت الحجر (الغاز أو البترول) اللازم لاضاءة كافة العربات على الدوام والاستمرار ثم ان القطار يدخل المحطة وهو فى منتهى السرعة ويقف مرة واحدة فيحصل ارتجاج خفيف جدا لا يكاد يشعر به الانسان والسبب فى ذلك انهم وضعوا فى ثلاث جهات من الرصيف ثلاثة ألواح كبيرة لتوفير الوقت ومكتوب عليهما معناه (انتظر هنا للدرجة الاولى أو الثانية أو الثالثة) فيقف ركاب الدرجة الاولى فى المكان المعين وركاب الدرجة الثانية فى المحل المخصص لهم ومثلهما أصحاب الدرجة الثالثة ثم ان العربات فى القطر مرتبة وراء بعضها بحسب الترتيب المعين فى رصيف المحطة ففى جاء الواوور وقف فى المكان المناسب فلا يكون على المسافرين الأأن يدخلوا العربات من غير تعب ولاسؤال بل بتحرك القدم خطوة أو خطوتين بالاكتر وذلك لمنع الاختلاط فان القطار لايقف أكتر من بعض ثوان وتجد على باب العربات من الداخل عبارة هذه

ترجمتها (انتظروا حتى يقف القطر) ولكنى أرى من الواجب على
المسافر ان يشرع في النزول بمجرد وقوف القطر لان أقل تأخير
يترتب عليه ان يساق الى المحطة الثانية ثم يرجع مع قطر آخر
الى المحطة المقصودة من غير أن يلتزم بدفع أجرة تكميلية بشرط
أن لا يظهر على وجه الارض بل يستمر على رصيف المحطة وهذا
أمر ينبغي تنبه الغريب اليه فان كثرة الاعلانات في المحطة تمنعه
ولاشك من أن يعرف اسمها فالاجدر به والحالة هذه أن يسأل
قبل النزول في القطر عن عدد المحاط التي سيكون الوقوف فيها
قبل الوصول الى المحطة اللازمة أو أن يجتهد في قراءة اسم المحطة
على فوائدها ودكك الانتظار فانهما المحلان الوحيدان الباقيان
للآن في حرز وأمان من هجمات أصحاب الاعلان

وكل انسان يركب في القطر يجوز له أن يؤمن على حياته ونفسه
من العوارض والاطار التي ربما تطرأ في أثناء السفر ففي حالة الوفاة
تدفع الشركة ألف جنيه انكليزي لورثة المسافر في الدرجة الاولى
الذي يكون قد آمن على حياته بدفع مبلغ يوازي ١٢ مليما
زيادة على ثمن التذكرة وتدفع مبلغ ٣٠٠ جنيه لورثة المسافر في
الدرجة الثانية الذي يدفع ٨ مليمات زيادة على ثمن التذكرة
ومبلغ ٢٠٠ جنيه للمسافر في الدرجة الثالثة الذي يدفع ٤

مليامات زيادة على ثمن التذكرة فإذا كان العارض غير الوفاة التزمت الشركة بالتعويض بمبلغ نسبي بحسب شدة العارض وخفته وفي هذا المقام أذكر مارواه بعضهم من أن رجلا من الانكليز كان يركب على الدوام في الدرجة الاولى ولا ينسى مطلقا التأمين على حياته وفي كل مرة وصل المحطة بالسلامة أخذ في اللعن والشتم والسباب لعدم وقوع ما كان ينتظره لعائلته من الثروة واليسار وحقيقة فان الاخطار قليلة بل نادرة بل لا تكاد تذكر وقد كان انشاء هذا الخط في سنة ١٨٦١ وله أكثر من ٣٠ محطة وقد يمتد الى بعض ضواحي لوندريه (ويكون حينئذ على وجه الارض) وقد يسير تحت نهر التيمس في انبوبة من الحديد وفي كل خمس دقائق يقوم قطار وذلك من الساعة ستة صباحا الى نصف الليل (ولكن القطر يقوم قبل الساعة ٨ صباحا وبعد الساعة ٨ مساء في كل ربع ساعة وثن التذاكر طفيف جدا فلا يزيد على خمسة قروش صاغ)

وأقول بهذه المناسبة ان تسجيل المتاع ليس من أصول السكة الحديدية في بلاد الانكليز على العموم (لا كما في ايطاليا اوها منها اوها) بل ان المستخدمين يستغربون من الذي يطلب ذلك منهم لان القاعدة العامة (وقد يكون لها استثناء لأعرفه الآن) ان

الانسان يكتب اسمه واسم المحطة على متاعه ثم يباشر وضعه على
عربة صغيرة في الرصيف ثم في العربة المعروفة (باسم عربة
العفش) ومتى وصل الى المحطة نزل وتوجه الى المستخدم وأعلمه
عن متاعه فيسلمه في الحمال من غير أدنى تعب ولا اختلاط ونزاع
أو عطل أو مماثلة

وعندي كلام كثير على السكك الحديدية وكثرتها وتقدمها
في بلاد الانكليز ولكن لايسمح لي المقام بإيراده الآن وانما
لايسمعني ان أخفق اعجابي بها من كل الوجوه حتى ان الانسان
لايتصور كيف أنها لاتنقل هذه البلاد وخصوصا لوندرة الى اية
جهة من أقطار المعمورة

ومن أغرب الشركات التي في هذه المدينة شركتان ليس
لهما من عمل سوى الاستدعاء بالكهرباء وذلك ان لكل منهما
مشتريين في جميع جهات المدينة وكافة اشحائها ومنازلهم متصلة
بسللك كهربائي بالمكتب الموجودة في دائرته ويكون في المنزل شبه
مزولة عليها ازرار الاول للساعي والثاني للطبيب والثالث للعربة
والرابع للاستغاثة من الحريق والخامس للاستغاثة بالبوليس فاذا
ضغظ المشترك على أحد هذه الازرار عرفت الشركة مطلوبه فتنبعث
له في الحال ساعيا أو طبيبيا (واذا كان له طبيب مخصوص يكون

شركات
الاستدعاء
بالكهرباء

عنوانه معلوما عندها فتخبره بالطلب) أو عربة للركوب أو طلبات
الحريق أو رجالا بواسطة ادارة البوليس لامداده بالقوة اللازمة
وهاتان الشركتان مستعدتان أيضا لخدمة غير المشتركين بهما
فيجوز لهم ارسال طرودهم وأمتعتهم بواسطة سعاتها في نظير أجرة
لا تزيد عن ١٢ مليما في الساعة وفوائد هذه الشركات ظاهرة
خصوصا في المدن الكبيرة

وهذا الحديث على الشركات يسوقني الى ذكر شيء وجيز شركة حماية
الحيوانات
عن شركة حماية الحيوانات وان كان اسمها معروفا في مصر فانها
من أغرب الشركات وأفيدها وهذه الشركة تحت حماية البرنس
دوغال ولي العهد وقد كان لها تأثير عظيم في هذه البلاد بحيث
انك لاترى القوم حتى الذين من الطبقة الدنيا يتجاسرون بأى
حال ولاى سبب على اهانة الحيوان الا بحم واسائه ولها عمال
كثيرون ومن أعضائها جم غفير من أصحاب الوجاهة والنفوذ وكل
من أقدم على هذا العمل المنكر حكم عليه بالاشغال الشاقة من
سنة شهر الى سنة كاملة وكثيرا ماركت في عربات متعددة
ولا أتذكر أن السائق رفع السوط على الحصان أكثر من مرتين
بكل خفسة وكثيرا ما قطعت المسافات الطويلة من غير أن يلبس
السوط جسدا الحصان على الاطلاق ومثل هذه الشركة لازوم

لها في بلادنا اذا راعينا الاحكام الشرعية المفروضة كما هو الواجب
علينا

شركات
قاعات
المطالعة
والكتبانات
وقد رأيت في البلاد الافرنكية التي مررت بها قاعات
المطالعة ولكنها في لوندرة قليلة وليس للحكومة يد فيها البتة بل
وقد أنشأتها شركات تجارية متنوعة أو خاصة بطبع الكتب ونشرها
وقد أسست بعض الشركات كتبانات ترسل الكتب اللازمة الى
منازل المشتركين فلا تكلفهم التوجه الى مركزها لانتقاء
الكتب التي يرغبون مطالعتها في منازلهم وقيمة الاشتراك من
جنيه واحد الى خمسة الى ستة في السنة

شركات
التوريد
وفي هذه المدينة غير ذلك من الشركات التي لا تدخل تحت
حصر ولوأردت أن أذكر كلمة على كل واحدة أو أكتفي بمجرد
الإشارة الى اسمها لانسع المجال بما يوجب الملل مهما كان اصطبار
القارئ ومجاملته للكتاب ولكني أقول اني رأيت فيها كثيرا
من شركات التوريد التي تتعهد للمشترك بجميع ما يطالبه من
الاصناف والمحصولات اللازمة له ولعائلته ولنزله بائخس الاثمان
ومن أجدد الاصناف

النوادي
وغرابة
تنوعها
ثم أنتقل الى الكلام على النوادي (المعروفة بالكلوب)
فانها كثيرة جدا وأهمها نحو المائة وكلها في قصور فخيمة شائخة

بإذخة بالغة النهاية في الزخرفة والاتساع والاتقان والاحتواء على كل ما يطلبه الانسان من مأكول ومشروب وجرائد وكتب وغير ذلك مما يلزم للفسكاهة وتخصيمية الوقت في نعيم وسرور وكل شيء فيها من أجود نوعه وبثمن المقطوعية (الذي يساويه فقط) وهي معدة لاجتماع الاصحاب والاصدقاء الذين من صنف واحد وأذواق متشابهة وعددها بالنسبة الى لوندرة أكثر منه في أية عاصمة أخرى من عواصم أوروبا ولا يقبل العضو فيها الا بعد اقتراح سرى دقيق جداً ورسم الدخول من خمسة جنيهات الى أربعين (والغالب ٢٥) والرسوم السنوية من ثلاث جنيهات الى خمسة عشر وهذا عدا ثمن الماء كولات والمشروبات وفي بعضها يجوز للعضو أن يستضيف بعض خلانته ومنها ماهو للرجال والنساء ومنها ماهو للنساء خاصة أو للعلماء أو لحزب المحافظين أو لحزب الاحرار أو للهند الشرقية أو للضبباط البرية والبحرية العاملين أو للضبباط المتقاعدين أو للمستعمرات أو لتجسين نوع الكلاب أو لمدرسة أكسفورد الجامعة أو لمدرسة كمبريدج الجامعة (ولا يقبل فيهما الا المتخرج منهما) أو لالعب الكرة أو لرجال السياسة أو للسياحة (ولا يدخل فيها الا من ساح الى مسافة ٥٠٠ ميل عن لوندرة) أو الرجال لاآداب ومن أغرب نواديها ذلك المعروف

باسم النادي المتوحش وفيه كثير من أرباب الجرائد والآداب
والفنون والتشخيص ومن أعضائه البرنس دونغال ورسم الدخول
فيه ٨ جنهيات والرسوم السنوية ثلاثة جنهيات ولا تغلب
المدارس نوادي خاصة بتلامذتها الحاليين والسابقين وقد يزيد
أعضاء بعض النوادي عن ٧٠٠٠

وكل جمعية وكل شركة وكل ناد يولم في السنة وليمة فاخرة
وأهم هذه الولائم وليمة جمعية التصوير ويجتمع فيها أكبر أرباب
العلم والسياسة والرياسة والجيش والبحرية وأعضاء البرلمان
والاساقفة والافوكاتية والبرنس دونغال واخوته وكل من اشتهر في
فن أو عمل وقيمة النفقات في هذه الوليمة تبلغ من ٤ جنهيات
الى ٨ جنهيات عن كل واحد من المدعوين

مطاعم لوندرة وفي هذه المدينة أكثر من سبعة آلاف مطعم (لوكاندو)
والخدمة فيها كلها منتظمة جدا ولوان أماكنها في الغالب ليست
بالغة في الزخرفة مثل نظائرها في أوروبا وكثير من هذه المطاعم
على مذهب الهنود فلا تجد فيها سوى الخضارات وما تنبت به
الارض وأما اللحوم فلا توجد فيها البتة لانها محرمة
وفيها نحو ألف قهوة وكها على الطرز الانكليزي أي ان
الانسان يمكنه أن يتناول الطعام فيها بثمن بخس ولكنه اذا طلب

شيأ من المشروب وجب عليه دفع الثمن مقدما للخادم لكي
يستحضره له من الخارج (وكذلك الحال في بعض الفنادق وفي
كثير من المطاعم) لان هذه الاماكن ليس لها رخصة في بيع
المشروبات ثم ان القهوة عبارة عن قاعة ضيقة تنقسم الى
طوالات من الخشب منفصلة عن بعضها تمام الانفصال ومثبتة
في الحائط والارض مثل عربات الدرجة الثانية في السكة الحديدية
فياكل الانسان فيها وهو معزل عن جاره وفيها تجد دواما القهوة
والشاي والشكولاته والكاكاو والبيض والخبز

أما القهاوى الكبيرة التي من جهة المدينة (السبي)
فهى أشبه بيورص يجتمع فيها التجار والنواخذة (مجهز والسفن
الاجتماع العمومية) وأصحاب الضمان من الحريق والغرق وسائر
Armateurs الطوارق والعوارض والسماسة وأمثالهم فيستعاقدون فيها
ويتبايعون

وفيها بعض محلات يسمونها دواوين السجائر تشبه القهاوى
التي في أوروبا ويكون بعضها عبارة عن قاعة كبيرة فيها نجف
وثریات وألواح فيها صور ورسوم وعند الدخول يدفع الانسان
شلتنا واحدا (٥ صاغ) ويكون له حق في سجارة أفرنكية وفتحجان
قهوة وقراءة أهم الجرائد المطبوعة في انكلتره وفي أوروبا وقد أنشا

بعض الفرنسيين والاطليانيين قهاوى على الطراز الاوروبوى
(المتعارف فى مصر) ولكن هذين الصنفين من الاماكن العمومية
لايجوز لهما بل ولا يمكنهما وضع الموائد أو الكراسى على برازيق
الطريق ﴿ البرزوقى فى اللغة العربية يقابل كلمة الترووار الفرنسية
Trottoir الشائعة الآن راجع شرح القاموس ولسان العرب
فى ترجمة ب رزق تجدها ان معناه القسم من الطريق العام المخصص
على جانبيه للسائرين على الاقدام وأما كلمة افريزالتى استعملت
تحاشيا من كلمة ترووار (أوتل توار بحسب نطق العوام) فهى فى
غير موضعها لانها فارسية معربة ومعناها فى كتب اللغة الجزء
البارز من أطراف أعالى البناء فيقابلها لفظ كرينش المعرب عن
الفرنساوية ﴿ ومتى سار الانسان على برازيق الطريق رأى فيما
بين الحوائط كثيرا من مخازن الدخان فانها فى لوندرة فوق العدد
والاحصاء

الحمامات

وقد رأيت كثيرا من الحمامات فيها الماء المالح الاجاج أم العذب
الفرات باردا أو مستحسنا على درجات مختلفة وفيها حمامات على
الطرز التركى المتعارف فى مصر وقد صار للذكور الاتن بها واع
وغرام وان لم يكن القائمون بالخدمة فيها على شئ من مهارة أهل

بلادنا وفي بعض الحمامات لاتزيد الاجرة عن ١٢ مليما ومع ذلك فان الشركات القائمة بادارتها تريح ارباحا وافرة

وفيها تياترات كثيرة واشهرها ثلاثة وثلاثون وفيها عدد عظيم التياترات من الملاهي وقهاوى الغناء والموسيقى وأما كن عرض الصور والبهلوان وغير ذلك مما يكون فيه تشخيص الروايات أيضا

وفيها وحدها أكثر من ٤٠٠ جريدة منها ٥٠ للديانة على جرائدها ودياناتها

سائر مذاهبها فان الشيع الدينية في بلاد انكلترة كثيرة متنوعة جدا وهم يحترمون كل الاديان وكافة الاعتقادات حتى انه يصح ان يقال ان كل انكليزي يعبد الله بحسب هواه وقد بلغ عدد الديانات والمذاهب في بلادهم أكثر من ١٨٣ وكل واحدة من هذه الشيع تدعى بالطبع انها هي التي فازت باكتشاف الحقيقة وهي تتناظر مثل مناظرة الشركات التجارية ومع ذلك ففي كل يوم تظهر شيعة جديدة وأبغض المذاهب الى هذه الأمة هو المذهب الكاثوليكي الرسولى الرومانى ويكرهون البابا كراهة التحريم وهذا التعصب المطلق بجانب ذلك التساهل المطلق هو أيضا من باب التناقض المطلق

وافكارهم واعتقاداتهم وآراؤهم ومقالاتهم في غاية الغرابة الكويكرز ولايسمح لى المقام الآن ببيان شئ منها ومع ذلك أقول ان منهم طائفة تسمى الكويكرز (Quakers) لايركعون الا للعلو المتعالى ولا يرفعون قبعتهم لاحدما (كما هي عادة الافرنج)

ويخاطبون الناس قاطبة بالكاف (أى لا يعظمون المفرد باستعمال الجمع كما هى العادة فى أوروبا فلا يقولون حضرتمكم أو أنتم أو ما أشبه ذلك بل قلت لك أنك فعلت كيت وكيت . . . الخ وهذا النوع من التعبير يسمى عند العرب المخاطبة بالكاف) وعند الفرنسيين (Tutoyer) ولا يخافون أبدا حتى امام المحاكم ويمتنعون من الدخول فى سلك العسكرية لانهم يعتبرون الحرب محرمة وجناية حتى ان جون بريت السيماسى الانكليزى المشهور استعفى من وزارة غلادستون فى سنة ١٨٨٢ بسبب الحرب التى وقعت بين انكلترة وأهل الثورة العربية فى مصر ولهم غير ذلك من الاطوار والاخلاق

وأما جيش السلام فلا أنسلكم عليه الآن وانما أقول ان جماعة من البوذيين الوثنيين جاؤا الى لوندرة بقصد تبويد الانكليز (اذ اصح التعبير أى جعل الانكليز كلهم على مذهب بوذه) وبلغنى ان لهم هيكلًا تقام فيه شعائرهم الدينية فى خط وبت شابل (White Chapel) المعمور بالوف من الخسلائق وعلمت ان أعمالهم سائرة فى طريق التقدم وان بعضا من رجال البوليس الانكليزيين قد دخلوا فى زميرتهم

تبويد
الانكليز

وبمناسبة الديانة والكلام عليها أقول الآن ان أمة الانكليز الاستراحة
انفردت عن سائر سكان الارض بمراعاة الراحة المطلقة في يوم ^{يوم الاحد} _{بأنكليز}
الاحد فهو عندهم يوم مقدس تنقطع فيه الاعمال مرة واحدة
ويستعدون لذلك من ابتداء عصارى السبت فترى الخلائق
تتناقص والازدحام يقل شيئاً فشيئاً والمخازن تغلق والنواقيس تدق
ومتى جن الليل عادت الحركة الى منتهائها ورجع الاضطراب الى
اقصاه لكن في الاسواق فقط اذ يتوجه القوم اليها من كل صوب
لاخذ المؤنة والذخيرة اللازمة لذلك اليوم الذي يقف فيه دولاب
الاعمال وينقطع الاخذ والعطاء والبيع والشراء حتى فيما يتعلق
بالقوت اللازم لحياة النفوس ومتى أصبح الصبح رأيت المدينة
قفراً بلقماً ليس فيها سوى القليل من رجال الشرطة وبعض نفر
منشور في شوارعها واما المخازن والابواب والشبابيك وديار
التحف والآثار والسيارات فكلها مغلقة والعربات بجميع أنواعها
يقل وجودها بالكليّة واما القهاوى واللوكادات فتفتح في مواقيت
الفراغ من الصلاة فقط أى من الساعة الاولى الى الساعة الثالثة
بعد الظهر ومن الساعة السادسة بعده الى ما قبل نصف الليل
بساعة ولكن الاغرب من ذلك كله ان البوسنة مع أهميتها
تتعطل حركتها فلا تباشر أى عمل ما ولا توزع الخطابات الواردة اليها

ولا ترسل المكاتب الصادرة الى الخارج ومثلها التلغراف فان اسلاكه تستريح أيضا في هذا اليوم يوم الراحة العامة إلا في بعض المحطات الكبيرة جدا وكذلك الكرك فانه يحجز البضائع وامتعة المسافرين الذين يقدمون الى هذه البلاد في هذا اليوم المشؤم فانه حقيقة يوم الحسرة على الغريب يضطره للاعتكاف في منزله وتضييع يوم من حياته بلا ثمرة ولا عمل والسكة الحديدية لا تمشى القطارات عليها اثناء القداس وفي غير هذا الوقت تقل حركتها الى الربع أو أقل وترى في جداول مواقيت السفر خاتمة عمومية لايام الاسبوع وخاتمة خصوصية للقطارات القليلة التي تقوم في يوم الاحد وتلك المحاط التي كانت بالامس عامرة آهلة بالخلائق تصبح وهي ساكنة مطعنة ويكون منظرها مع عظمتها واتساعها مشوبا بشيء من الايحاش يجعلها أشبه بقبرها مثل وخلاصة القول ان المدينة كلها ينقطع منها الحس وتبارحها الحياة فكأنها سراج قد خبا نوره فجأة ولا يتصور المرء انه مازال في تلك المدينة المتموجة بهذه المخلوقات بل يخطر على باله انه دخل بلدا جاءها النذير بقرب جيشها جرم عليها فولى أهلها الادبار وتركوا الديار ومافى الديار ملتجئين الى الخلووات والقفار وابقوا بعضا من الرجال يراقب حركات العدو ويعلمهم باعماله حتى اذا أقبل المساء

ابتدأت الحياة تدب في هذه الآلة العظيمة المعروفة بلوندره فترى
بعض الناس يتبدؤون في الجولان ومتى قابل الواحد منهم صاحبه
(من الرجال والنساء) سأله هل كنت في الكنيسة فيجيبه بالإيجاب
أو يعتذر بعذر قوى مقبول ولاجل ذلك ينبغي للغريب ان يغتنم
فرصة الاحد في التوجه الى الكنيسة في الصباح ثم يخرج الى
أرباض البلد لاستنشاق الهواء الصحيح فانه يكون محتاجا اليه
لقلته في لوندره بسبب الدخان ولكني اشير عليه بأن يرجع في
عصاري النهار ويطوف بهض الشوارع ويمر ببعض الحدائق مثل
هايدپارك وغيره فانه يرى فيها كثيرا من الخطباء وأغلبهم من الشغالة
واقفين يخطبون في أى موضوع يدور في أدمغتهم مثل الفوضى
والاشتراكية والديانة بسائر أجزائها عندهم وترى الرجل منهم
يخطب وحواليه جماهير تهتف كالكثكثهم على ذى جنه وهو
لا يقول لهم افرقعوا بل كلما زاد عددهم رفع عقيرته مشيرا الى
اليمين والى الشمال والاغرب من ذلك ان بعضهم يقف يتكلم
بصوت مرتفع ويشير بيديه مع انه وحده وليس حوله من يستمع
له ولكنه يوالى الكلام كأنه محاط بالاقوام ويستمر بالايحاء الى
من يفرض وجودهم ذات اليمين وذات الشمال ومنهم من يحيى
في ركب جليل بالموسيقى والاعاني والانشيد وغير ذلك من

الخطباء في
هايدپارك
وغیره

المقدمات التي تصطاد العامة وتجذبهم الى حضور مقالاته ومنهم من يطوفون في الشوارع بالالحان والانغام والرايات والاعلام وبالاختصار ان كل واحد منهم تزين له نفسه الكلام يقف في أى مكان ثم يتكلم بما يريد ويجمع الناس حوله أو لا يجتمعون ويكون رجال الشرطة بجانبهم غير مباينين بتجمعهم مهما كانت أقوال الخطيب موجهة ضد الدولة أو بالحث على احراق دور الاغنياء وسلب المخازن الكبيرة وما أشبه ذلك فان حرية المقال في هذه البلاد وصات الى ما هو فوق منتهاهما وفي يوم الاحد يكثر السكر والسرقه أيضا لان الانسكيلر لا يعرفون الوسط فان بلادهم بلاد التناقض جمعت الاطراف فاما التناهي في الغنى واما التناهي في الفقر واما التناهي في الفضيلة والعفاف واما التناهي في الرذيلة والفجور واما التناهي في العمل واما التناهي في الكسل الى غير ذلك من الاطراف حتى ان المدينة اما أن تكون غاصة بالجماهير أو تكون خلوا من العالم بالمره (في يوم الاحد) وهكذا

التناقض
بانسكلتره

وابكثره اللصوص وتفنتهم فيها ينبغى بل يجب على الانسان أن لا يكلم أحدا لا يعرفه وان يجتنب كل من يعرض عليه خدمته وارشاداته أو يبادره بالكلام واذا احتاج لاي أمر من الامور فلا يسأل الا رجال البوليس فانهم يبادرون بالاجابة بمحذوق وفضانة

لا تكلم من
لا تعرفه
بلوندره

أو يدخل في بعض المخازن ويستعمل فيها عما يريد وقد اعتاد
الانكليز أنفسهم على ذلك فإذا اتفق لك أنك كتبت واحدا منهم
فإن كان من أصحاب الادب وأهل المجاملة أجابك بنعم أولا من
غير زيادة وكثيرا ما يعرض عن الاجابة ويلزم الصمت ويستمر
في طريقه من غير ان يلتفت اليك بالمرّة وان كان شرسا اعطاك
درسا أو قلع لك شرسا

هذا وأينما سار الانسان في شوارع لوندرة رأى حوانيت
عليها صناديق للبوستة وفي كل صندوق فتحتان كبيرتان
احدهما لوضع المراسلات الخاصة بالمدينة نفسها والثانية للمراسلات
التي يرسم أقاليم انكلترة والبلاد الاجنبية وفي بعض الشوارع
المتباعدة عن هذه الحوانيت ترى على برازيق الطريق اسطوانات
كثيرة من الحديد الملوّن بالبوية الحمراء لوضع المراسلات فيها
حتى لا يلتزم الانسان بالتوجه الى المكتب القريب منه وعن تذكرة
البوستة للمملكة البريطانية نصف بنس (أى ٢ مليم) وللخارج
بنس واحد (أربعة مليم) وعدد مرات التوزيع في السبتي اثنتا
عشرة مرة في كل يوم واحدى عشرة في المواضع التي حول دار
البوستة المركزية على مسافة ثلاثة أميال ويتبدى التوزيع

من الساعة ٧ ونصف أفرنكي صباحا وفي بعض الجهات يكون
ارسال المكاتبات بالتلغراف في قناة بفرغون منها الهواء وعلامة
ساعي البوستة أن يدق على الباب دقتين عنيفتين وفيما عدا الجهات
المحيطة بدار البوستة يكون التوزيع ست مرات في اليوم الواحد
ويجوز إرجاع طوابع البوستة الى مكاتبها فتخصم من قيمتها ٢
ونصف في المائة في نظير العمولة والاصدار واعلم أنه يوجد بهذه
المدينة شوارع كثيرة لها اسم واحد وقد يبلغ عددها ١٠ أو ١٥
فلاجل منع الاختلاط الذي يتأتى حصوله بهذا السبب قسمت ادارة
البوستة المدينة الى ثمانية أقسام باعتبار الجهات الاربع الاصلية
والجهات الاربع الفرعية ووضعت حرفا أو حرفين (ج ش أى
جنوب شرق مثلا) للتمييز بينهما بالسهولة حتى لا يحصل عائق أو غلط
في التوزيع ولذلك ينبغي لكل من يرسل أحدا من أهل لوندرة
النازلين بها أن يضع هذه الحروف الصغيرة بعد ذكر اسم الشارع
والمدينة لسهولة التسليم وعدم التعطيل

عموميات على
التلغراف
أما التلغراف فكان قبل سنة ١٨٧١ لثلاثين شركة ثم
أخذته الحكومة وجعلته تابعا لمصلحة البوستة ومع أن أقل أجرة
لارسال أى تلغراف من لوندرة واليها هى أعلى مما فى بلادنا لانها
هنا ست بنسات (أى خمسة قروش من العملة الدارجة) وهى فى

بلادنا قرشان فقط بالعملة الصاغ ولكن القوم يستخـرمونه بكثرة
لا يتصورها العقل لانهم يفضـلون خسارة القليل من المال
واكتساب الوقت ومع ذلك فأعمال البوستة أيضا مازالت رابحة
وإذا دفع الانسان أجرة رد التلغراف وفات الوقت المقرر للاجابة
أمـكنه استرجاع مادفعه لهذا الغرض في ظرف ثلاثة أيام
من تاريخ الارسال ويجوز إرسال الرسالة البرقية الى جله أشخاص
مقيمين في قسم واحد بشرط أن يدفع المرسل ٨ مليات على كل
نسخة غير النسخة الاصلية ويجوز أيضا إرسالها الى أشخاص
مقيمين في جهات مختلفة بعد دفع نصف الاجرة العادية على كل
نسخة خلاف النسخة الاصلية وهذه التسهيلات المفيدة للصحة
وللجمهور غير موجودة في بلادنا

وبمناسبة التلغراف أذكر أنه يوجد بين باريس ولوندره سلك عموميات على
التلفون وأجرة التـكلم فيه لاي فرد من أفراد الناس مدة ثلاث
دقائق ٨ شلنات (٤ قرشا صاعا) أما التلفون الخاص في لوندره
وحدها فهو في يد جملة شركات

ولايسـمى الآن أوجبـل الكلام على التعليم والمستشفيات المدارس
وأكتفي بأن أقول ان المدارس في هذه البلاد تعنى عناية عظيمة
بتربية الجسد والعقل لان العقل السليم لا يكون الا في الجسد السليم

ومن جملة المدارس التي زرتها مدرسة ايزلورث المعروفة باسم
(نيوبرود كولايج) فرأيت النظام فيها بالغاً حده وناظرها
المسيو بارنت (Barnett) على غاية الظرف واللطف وحسن
المعاملة ودمائة الاخلاق وعلمت منه وتحققت بنفسى ان تلامذتنا
المصريين فيها بلغوا من التقدم والتجاح درجة يغبطون عليها وأنا
متأكد من الآن أنهم سيخدمون الوطن خدمة جليلة عند
رجوعهم اليه بما اكتسبوه من المعارف والآداب ويسرني بل
يجب على أن أورد أسماءهم في هذا المقام وهم حضرات
الافندية أحمد براده ومحمود يوسف ومحمود قاسم
وقد أصدرت نظارة المعارف العمومية أمرها الى وطنينا المجهتد
الفاضل حسن أفندى توفيق الذى كان فى برلين بالتوجه الى
لوندرة لتعلم اللغة الانكليزية وغيرها بهذه المدرسة وقد رأيت
وعلمت منه بكل ارتياح وانشراح أنه ألف كتاباً فى التاريخ العام
وأنه بعد أن يتمه قريباً يشرع فى تدوين ما استفاده من
أنواع العرفان ووقف عليه من شتى الفوائد التى تنفع ابناء
بلاده ولعمري الحق ان هذه النتائج مما يسر مصر وكل محب
لها ولاهلها وأقول مثل ذلك أيضاً عن حضرات الافندية
التلامذة على عمر وأجد فهمى ومحمود اسمعيل الموجودين بمدرسة

هو مرتن فاني توتمت فيهم التجابة والفظانة وتفurst انهم عند
عودتهم الى وطنهم بعد زمن قريب سيرهنون على أنهم لم يضيعوا
اوقاتهم سدى بل اكتسبوا من العلوم ما يجعلهم هم واخوانهم
ان شاء الله وساءدتهم العناية في مقدمة العاملين على اتخاف
أبناء بلادهم بما يفيدهم في ميدان العرفان (وان غمد الناظره
قريب) وسأشرح لك الكلام في الرحلة على التعليم وطرقه وقرب
الوصول الى ثمراته في بلاد الانكليز وعلى مدرسة اكسفورد
الجامعة بنوع خصوصى لاني زرتها بالتفصيل وأكتفي الان
بايراد بعض المرتبات التي للاساتذة لتعلم ان مرتبات أمثالهم في
بلادنا أقل مما يكسبه الواحد منهم في يوم أو بعض يوم مثال
ذلك أن المدرسة الجامعة في اسكتلندة تدفع لمدرس الكيمياء ۸
ألف فرنك في السنة أى ثلاثة آلاف ومائتى جنيهه أى مائتين
وسمته وستين جنيها وثلاثى جنيهه في الشهر الواحد ولمدرس
التشريح ۷۵۰۰۰ فرنك ولمدرس الطب ۶۵۰۰۰ فرنك وللكل
من مدرس التاريخ الطبيعى والباوتولوجيا ۴۰۰۰۰ فرنك ومدرس
النباتات مرتبه السنوى ۵۵۰۰۰ فرنك ويوجد في المدرسة
الجامعة بمدينة جلاسكو مدرس للتشريح ومرتبه ۵۵۰۰۰ فرنك
في السنة وأما المدرسة الجامعة باكسفورد ففيها ۴۴ مدرساً

مجموع مرتبهم السنوى أربعة ملايين من الفرنكات أى متوسط
الواحد منهم ٩٥٠٠ فرنك وفى المدرسة الجامعة بـكبريدج
٤٨٣ ومجموع مرتبهم السنوى ٣٣٠٠٠٠ فرنك وفى دبلين
عاصمة ايرلندة مدرسة اسمها الترينتى (أى التثليث) وفيها ٥٩
مدرسا مرتبهم ٨٠٠٠٠٠ فرنك فى السنة فهكذا تكون العناية
بالتعليم والقائمين به

ومن الامور التى تدهش القادم الى لوندرة كثرة الاعلانات
التي يراها على جدران المحطة وكل مكان فيها حتى لا يمكنه مطلقا
معرفة اسم المحطة وتمييزه عن الاعلانات ثم متى سار فى الشوارع
رآها كلها اعلانات واذا ركب فى عربات الاومينيبيوس أو غيرها رآها كلها
اعلانات من الداخل والخارج والاسفل والاعلى ولقد كان صدرى
يضيق من رؤيتها وهى كأنها تهددنى بوجوب قراءتها والعمل
بما تشير اليه والاستحصال على ما تدل عليه فكنت اذا قلبت
طرفى يمنة ويسرة أو رفعت به الى أعلى أو خفضته الى أسفل
أو حولته الى الخلف أو رجعت به الى الامام رأيت الاعلان واقفا
لى بالمرصاد فاذا انمضت الطرف لاستريح منه قليلا ثم انتهت فلا
مناص لى من رؤيته على الدوام وفى كل مكان مختلف الصور
والاشكال والرسوم والالوان فاذا أخذت تذكرة للسكة الحديدية

الاعلانات
وهولها

أو لعربات الاومنيبوس أو غير ذلك رأيت الاعلان مقتفيا أثرى
وأثر كل من كان في أى مكان وأى زمان فاذا اشتريت كتابا أو
جريدة أو تعريفة أو خريطة أو ما أشبه ذلك رأيت الاعلان هو
هو على الدوام يرض طرفى لقراءته بالرغم عنى قبل أى موضوع
يهمنى فاذا مشيت على برازيق الطريق رأيت الاعلان يتمطر
على من حيث أدرى ولا أدرى فأحترق فى كيفية التحاض منه فاذا
جن الظلام رأيت الاعلان مكتوبا بالانوار على صفحات الزجاج
أو بواسطة القنوات الخاصة بنور الاستصباح

وقد جرت عادة الجرائد أنها تخصص صفحاتها الاولى للفصول
المهمة والمواضيع ذات الفائدة العامة ولكن الامر هنا بالعكس
لان الانجليز يعتبرون الاعلان من أهم الاشياء فترى جرائدهم
كلها على اختلاف مواضعها وتنوع مشاربها مشحونة بالاعلان
خصوصا الصفحات الاولى والصفحات الاخيرة حتى ان الانسان
ليحترق قبل أن يتظر الى مواضع الاخبار والفصول السياسية اذ لا يد
من المرور على الاعلان مثال ذلك جريدة التيمس المعروفة بملكية
الجرائد تحتوى على 16 صحيفة منها نحو احدى عشر صحيفة
مخصصة للاعلان وقس عليها سائر رعاياها وقد علمت ورأيت
أن بعض البيوت التجارية يتكبد النفقات الطائلة والمصاريف

الهائلة لنشر الاعلان على صحائف - حديدية في جميع المحطات
ثم لاتكتفى بذلك فتضع صحائف أخرى في عربات السكة الحديدية
(خصوصا التي تحت الارض) ثم لاتكتفى بذلك فتشره في
عربات الاومنيبوس في كافة أرجائها ثم لاتكتفى بذلك فتشره في
جميع الجرائد ثم لاتكتفى بذلك فتشره على غطاء جميع الكتب
التي تظهر حديثا وفي الصفحات الاولى والاخيرة منها ثم لاتكتفى
بذلك فتعلقه في جميع أنحاء المدينة ثم لاتكتفى بذلك فتستخدم
رجالا تلبسهم بشكل مخصوص وتضع أطواقا من الحديد على
خواصرهم وأكتافهم لتعليق الاعلان فيمشى الرجل منهم
(ويسمونه سندويش Sandwich) وامامه وخلفه وفوق رأسه
ألواح من خشب مكتوب عليها الاعلان ثم لاتكتفى بذلك فتطبع
أوراقا صغيرة تضعها في يد السندويش فيفرقها على المارة فهذا
هو الحصار بعينه وكل واحد من أصحاب الاعلان يجتهد في
التفنن في اعلانه حتى يجعله يضطر الانظار بالانتفات اليه لما فيه
من الرسوم والحروف والالوان وغير ذلك مما يضيق الصدر
ويقضى على الانسان بان يحسد العميان

وهنا تذكرت العميان فقد سبق لي القول بأن المقعدين
استغنوا عن خدمتهم وقلت لابد لي أن أجد طائفة العميان قد

العميان في
لوندرة

وجدت هي أيضا طريقة تكفيها الحاجة الى أنظار المقعدين ولا
أريد أن أتكلم على التكايا المخصصة لهم بواسطة الحكومات أو أهل
البر والاحسان فانها ليست من تفننهم وقد كنت أعرف أنهم
اتخذوا الكلاب للاسترشاد بها والسير خلفها ولكني قرأت من
بعض الجرائد أثناء مروري على باريس أن أحد العميان جلس على
بر زوق الطريق ووضع بجانبه لوحة مكتوب عليها هذه العبارة
(القوا نظرة وصلديا الى الذي لا يمكن أن يردهما اليكم) فكيف
لا يحن قلب الانسان وتدفعه عوامل الشفقة الى امداد صاحب
ذلك الفكر الحسن ولما جئت لوندرة رأيت العميان قد تفننوا في
الاختصار لان الوقت عند الانكليز من ذهب فترى الرجل واقفا
حيث تمر الالوف المولفة في كل لحظة وعلى صدره صندوق صغير
فيه فوهة ومكتوب عليها (Blind) (أعمى) ليس الا ثمان بعضهم
أراح نفسه من الوقوف أيضا فوضع صندوقا بجانب شباك
التذاكر حتى ان المسافر بعد أن يأخذ الباقي له يضع بنسا
أو بنسين أو ما يتيسر بكل سهولة من غير أن يتكلف وضع يده
في جيبه واخراج الدراهم منه فان ذلك يضيع منه الزمان ويمتعه
عن الاحسان . وأتذكر أني أول مرة رأيت الرجل واقفا على
قنطرة لوندرة ومعه هذا الصندوق لم أفهم الكلمة التي عليه فوقف

أنظر هذا الامر ولما سألت من معي وعرفت سر المسئلة فرحت كثيرا اذ تمكنت بذلك من الايقاف بوعدي في رسالة فلورانس

ولكني مالبثت ان تكدرت لاني سمعت بعض المارين مواطف
وطنية بجانبى يقولون عنى انى أمين باشا (رجل خط الاستواء وهو الدكتور شنتيرز الالماني) فقد ثارت في العواطف الوطنية والاحساسات القومية لاني لأرضى أن أشبهه برجل مثل هذا الذى خان حكومتى وبلادى وباع أو أعطى أملاكها في خط الاستواء لدولته الاصلية أو اغيرها بعد ان رقبته حكومتنا السنمية الى مراتب العز والشرف وسهلت له سبيل الثروة واليسار وحسن السمعة والاشتهار ثم تكلفت النفقات الطائلة (وهى في احتياج اليها) لامدادته وانجاده وانقاذه فقابل ذلك المعروف وكل هذه الموااساة بالنكران وفعل ما فعل قاتله الله

وبالاسف انى بعد ذلك سمعت اناسا آخرين يقولون هذا القول عنى حينما يرون اسمرار وجهى واحمرار طربوشى

ولقد تجوت في بعض مدائن الانكليز وسأتكلم عليها وداع وسياحة
بانفراد بالاختصار في الرسالة الآتية وأترك التطويل الى الرحلة ثم رجعت الى هذه المدينة وكانت مدة مقامى فيها أولا وثانيا ثلاثة وثلاثين يوما ولم أشرع في السياحة الا بعد أن ودعت صديقى الفاضل عثمان

بلك غالب وكأني ودعت معه نفسي أو أودعته روجي لشدة الالم
الذي حصل لي من فراقه ولسكوني بقيت بعده وحيدا (وما أردت
أن أستعين بالتلامذة المصريين حتى لأشغلهم عن الدرس والتحصيل
وحتى أتعود على السياحة بمفردى)

ومن أخلاق الانكليز التي وقفت عاينها في سياحتي في بعض
مدائنهم المشهورة ان الجراءة والاقدام فيهم أكثر منهما في أية أمة
أخرى فهم يتحمون كل الاخطار التي تحظر على الببال وهم
مخلوقون للسياحة والتجوال ومتى خرج الواحد منهم من وطنه
فاصدا أى جهة وقابلته الصعوبة والمشقات والاهوال والاطار
فلا يزيد ذلك إلا ثباتا واقداما وعمادا لانه رسم خط سيره ولا يمكنه
أن يعدله أو يرجع عنه واذا كتب في دفتر سياحته أنه في يوم كذا
وساعة كذا يكون في المحل الفلاني فاذا لم تصادفه منيته في
الطريق فلا شك أنه يكون فيه في الوقت المعين

واذا سافر لاقصى أقاصى الارض فعل من غير ضجة ولا رجة
ولاحية وذلك عنده بمثابة السفر الى القبة والمطرية لاهل القاهرة
والى الرمل لاهل الاسكندرية وانما هنالك سؤال وحيد لا يمكن
أن ينساه وهذا هو (هل أرجع من طريق الصين أو طريق
أمرى بكا)

ولوع الانكليز ولا بد لكل انكليزي من أبناء البيوتات الكبيرة أن يكون عارفا بقيادة المراكب والخيل والعربات ويتعود من نعومة أظفاره على الرياضات الجسدية فلا يبدأ بالمشي مسافة مائة ميل أو بالتقديف في الزورق من لوندرة الى اكسفورد (٦٩ ميلا) وكثير منهم يذهبون من لوندرة الى ايدمبورج عاصمة اسكتلنده سعيا على الاقدام والمسافة (٤٠٤ أميال) ومنهم من سار على أقدامه ٤٠٠٠ مرحلة في بلاد السويد وهم يستمرون على المشي بهذه الكيفية حتى يصبحوا طاعنين في السن وترى الشيوخ الهرمين يشون في الارياف كل يوم خمسة أو ستة كيلومترات ولا يمتنعون عن ذلك الا اذا أصابهم مرض لابد أن تعقبه الوفاة ومعلوم أن غلادستون مازال الى الآن يقطع الاحطاب بنفسه حتى لقد اتفق له في الشهر الماضي أن بقرة نطحته وكادت تبقره بينما كان مواظبا على عادته في الغاية

وفيهم كثير من الشيوخ يغتسلون بالماء البارد صباحا ومساء صيفا وشتاء ولا يتناولون فطورهم الا بعد مشى ثلاثة أو أربعة أميال

ويوجد باكسفورد أستاذ جرت عادته أن يمضى المساحة السنوية مع زوجته في قارب يقوم هو فيه بالتقديف وهي

بامسالك الدفة ويستمر على ذلك شهرا أو شهرين في كل سنة ومتى
أقبل المساء نزل بأحد الخانات التي على ساحل النهر وعند الصباح
يأخذ منه المونة ثم يستمر في تجواله وقد ساح بهذه الكيفية على
أغلب أنهار أوروبا

وكثير منهم يذهبون على عجلة الاسلاك (السيكل Cycle)
من احدى عواصم أوروبا الى الاخرى وقد جرت عادة أغلب
المتزوجين حديثا بقضاء الشهر الاول المعروف عند الافرنج
بهلال العسل على ظهر هذه العجلة في الوديان والغابات والبراري
والجبلات متنقلين من قرية الى أخرى بدون أن يكون مع
الزوجين شخص ثالث

وإذا سألت الواحد من هؤلاء الاقوام عن سؤال أجابك
لحرصه على الوقت بنعم أولا فقط وفي النادر يجيبك بكلام قليل
جدا بحيث انه لا يتخلى عن عمله الذي في يديه أو قراءة جريدته
وكذلك السائل يطرح السؤال ثم يوالى عمله وفي المكاتب الخاصة
بالادارات العمومية أو بالشركات ترى هذا الاعلام (الرجامنك
أن لا تتكلم الا فيما يختص بالاشغال) وفي الكتيختانات والمحلات
العمومية ترى كلمة (صه) أو (الكلام ممنوع) مطبوعة في كل جهة
وترى طريق الدخول وطريق الخروج واضحا في كل المحطات وما
أشبهها من المحال العمومية وبجانبه أصبع يشير الى الطريق

حرصهم
الكلى على
الوقت

وما أصدق الذي قال ان الانكليز لا يشبهون أية أمة أخرى
ولكنهم كلهم متشابهون متجانسون على منوال واحد وطرز
واحد وهم يتحاشون القول الهراء بكل ما في وسعهم فيعبرون عن
الزنا بقولهم (مسامرة جنائية) ويستبدلون هذه الجملة (ممنوع إلقاء
القاذورات وممنوع التبول الخ) بهذه (لا ترتكب أى اتلاف)
ويسمون المبولة والمرتفق (مغسلا) ولاجل تأييد هذه التسمية
يضعون طشتا لغسيل الوجه وفرشا لتنظيف الشعر والملابس ولذلك
يقول الرجل منهم (انى أريد أن أغسل يدي) بدلا من قولنا (أنا
رايح زى الناس أو رايح أزبل أو أنتقض أو أفك وضوئى) ولا يقولون
عن المرأة انها حبللى بل انها (فى طريق العائلة) أو (فى حالة
تستدعى الاهتمام) وهم يتحاشون المزاح بالمرءة أمام النساء وفى
بعض المبالى العمومية يكتبون هذا الاعلام (أصلح ملابسك
وإنطافئك قبل الخروج) وهكذا

تحشمهم
فى بعض
عبارات

وفيهم ثقة تامة يجب بها الغريب حتى فى الاعمال والتجارة
والصدق فيهم منتشر جدا فيكتفى الرجل منهم عند الزواج بأن
يعلم عن سنه وانه عزب أو لم يتزوج ولا يبرز أوراقا لتأييد أقواله
وإذا كذب الواحد منهم مرة فى الامور القضائية حوكم كمن
يحنث فى يمينه أو يخون عهده وإذا كذب عند أحد الافراد طرد

الثقة
والصدق

في الحال ومن ثقتهم ان عمال الكرك يسألون القادم عما معه
من الاشياء الخاضعة للرسوم ويعتدون قوله فاذا ظهر كذبه
صودرت الاشياء المضروبة عليها الرسوم الكركية لجانب
الحكومة وألزم الكذاب بدفع قيمة الرسوم ثلاثة أضعاف

ومتى اصطحب شاب بفتاة كان له أن يعرفها بأصحابه مبادئ الزواج
وينفرد بها في الفسحة والنزهة والمراقص والسيارات والخلوات
وغير ذلك وقد يتيق عقد الخطبة بينهما سنين طوالا الى أن
يتيسر للشاب القيام بما يلزم من المصروف ومتى حصلت
المفاتيحة في الخطبة فلا يجوز لاحدهما أن يعدل عن الزواج
الابرض الاخر فلو عدل الشاب طالبت الفتاة وأهلها بالعطل
والاضرار وأبرزوا في الجلسة المخاطبات والمكاتبات التي تبادلها
المحبان وتعتزف الفتاة أمام المحكمة بالاقسام التي أغلظها لها
بالبقاء على حبها وبغير ذلك واذا كان العدول من طرف المخطوبة
لا يتأخر الفتى في اقامة القضية واكتساب مبلغ وافر من المال
في نظير العطل والاضرار

وللانكايزتسك شديد بعاداتهم وتقاليدهم يشبه محبتهم لغتهم
وتفضيلهم لها على ما عداها حتى انهم يحتقرون الغريب الذي
يزورهم أو يتوجه الى التياترو أو يجلس في الفندق على مأدئة
شدت قسوتهم
بعاداتهم

الاضيف بغير الملابس السوداء الرسمية المعتبرة عندهم في ليالي
الاحتفالات وأغلب النساء في البيوتات الكبيرة يتكلمن
بالفرنساوية جيداً ومن عاداتهن أنهن يقمن عن المائدة بعد تمام
الاكل ويبقى الرجال وحدهم لشرب الدخان وغيره والمسامرة
والمحادثة ثم يتقابل الكل في قاعات الاستقبال أو غيرها وفي
النساء لدى التكلم خفة في الحركة وشمم وجرأة واقدام ولولا اني
وعدت بعدم الرجوع لهذا الموضوع لشرحت الحال وأطلت
المقال وحسبي أن أقول ان الذي يحكم عليهم بحسب العينات
التي يراها في مصر يعترف بأنه أخطأ وجازف متى جاء هذه البلاد
ومن الغرابة أن الواحدة منهن متى كانت جميلة فليس لها مثيل
على وجه الارض ومتى كانت قبيحة فلا يضارعها في السماجة
انسان وذلك لان الوسط غير موجود في بلادهم في كل الامور

احذر النساء

ومما ينبغي تنبيه الغريب اليه أن لا ينفرد بالجلوس مع أية
امرأة كانت في غرفة من عربات السكة الحديدية مهما ظهرت
له في مظاهر الاحتشام والوقار والنبيل والكمال فلقد تجتمع كثير
منهن (كما تجتمع الرجال واشتركوا في التجارة والصناعة) وانفقن
على جعل القطارات ميدانا لاعمالهن فمنهن النصابات المحتملات
النشالات الطرارات ومنهن التي تطالب بمبالغ عظيم وتهدد صاحبها

بأنه ان لم يؤد هذه الجزية عن يدهو من الصاغرين بلغت رجال الشرطة عنه في المحطة التالية بأنه فاتحها بما يخجل بالآداب وغير ذلك ومنهن المتدينات المترهبات اللاتي يلازمن الرجل بدعوى انهن يخلصن روحه ويهدينه الى الصراط المستقيم صراط الذين اتبعوا المذهب البروتستانتى ثم تأخذ في ايراد الدلائل والبراهين لاقتناعه بوجوب الدخول فيه وفي هذا القدر كفاية الآن

واعلم أن مباني لوندرة كلها على طرز واحد ومثال متشابه مباني لوندرة ومنوال متجانس وكلها متسربة بملابس الحداد كأن أهلها يرون مثل بنى العباس ان (النور فى السواد) ويظهر للتأمل فيها انها مبنية بالطوب الاحمر ولا تزيد عن الدورين الا فى النادر ولكنها متى تعدت هذا العدد أو تجاوزت النموذج المتبع عندهم فى البناء فيكون ذلك للطرف الاخر مرة واحدة فقد شاهدت بعض الدور فيها ثلاثة عشر دوراً وقد شاهدت من جمال بعض المنازل والقصور ما جعلنى أحكم بانى فى احدى مدائن ايطاليا بعيداً عن لوندرة بمراحل وكيلومترات ومثال ذلك كنيسة ماربولس تترأى على مسافة ٢٠٠٠٠ متر مما حولها وفى كل المباني ترى طبقة تحت الارض يستخدمونها للطبخ والغسيل والتخزين وغير ذلك من

اللوازم المنزلية حتى لا يكون ذلك بجانب المساكن بل ان النزول الى هذه الطبقات يكون من سلم على برزوق الطريق فلا يدخل الفحام أو الحزاز أو الخباز أو الخضرى أو غيرهم من المتعهدين بالتوريد فى المساكن مطلقا وقد دبروا النور والهواء فى تلك الطبقات الارضية بما يجعلها موافقة للصحة وقد رأيت فى بعضها قاعات للجلوس وغرفا للاستقبال فى غاية الزخرفة والجمال بحيث انها تروق فى عين الانسان وتسميه الى اطالة الجلوس فيها أما المساكن فان منظرها من الخارج عادى حقير ولكنه من الداخل محفوف بالتأنق وله من التزيين رونق يأخذ بالابصار فترى فيها المفروشات الثمينة والطرف والتحف التى لاتقدر قيمتها وترى الكراسى والمقاعد مختلفة الاصناف والاشكال وترى الامتعة والمراني فى جميع النواحي مرتبة بذوق وحسن قد تجرد منهما خارج المنزل بالمره وهذا أيضا من باب التناقض

وأما طبخهم فعادب تافه وفى غاية البساطة فكأنهم لا يزالون على الفطرة فان الاشكال التى يعرفونها قليلة العدد وليس لهم من تنويع أو تعديل بل ما زالوا سائرين فيها على سنة آبائهم الاولين ولكنها كلها والحق يقال صحيحة نظيفة وقد فاقوا الامم جميعا فى اصطناع الروزيه فانك ترى كتلة من اللحم تزن

المطبخ
الانكليزى

ثلاثين أو أربعين رطلا وكلها مسواة بالسواء من الداخل والخارج
ومن جميع الجوانب وهم لا يضعون الملح في الخبز أيضا أما الفنادق
الكبيرة وأغنياء القوم فيستخدمون طبّاخين فرنساويين حتى أنهم
يضطرون (مع شدة محبتهم للغتهم) الكتابة وفهم أسماء الألوان
بالفرنساوية ولقد أحسن فولتير حيث قال (إن الناس في بلاد
الانكليز يعبدون الله على خمسين نوعا ولكنهم لا يهتمون البقرى
والضاني الأعلى نوع واحد)

أما نمر المنازل في الشوارع والحارات فليست منتظمة كافي
مصر بطريقة الشفع والوتر بل قد ترى الجانب الأيمن مبدئاً بعدد ١
ثم ٢ وهكذا حتى إذا انتهى الشارع بعدد ما رجعوا بالعدد
الذي يليه من نهاية الجانب الأيسر فيكون أول الشارع فيه أول
أعداد المنازل من جهة اليمين وآخرها من جهة الشمال وفي
القليل منها قد اتبع القوم طريقة الترتيب الحسن المتعارفة في
مصر وغيرها من ديار أوروبا

وفي جميع المحطات والمتاحف والآثار العمومية والأسواق
المهمة والميادين التي بين الشوارع ترى مرتفعات ومباني عمومية
بعضها خاص بالنساء والباقي للرجال وكلها في غاية النظافة ونهاية
الاستعداد وتضاء بالليل بالكهربائية وفيها للماء متساظ بأحكام

المرتفعات
والمباني
العمومية

على الدوام من أحواض قد ترى في بعضها الاسماك المختلفة الالوان
يربها الحارس في هذه البحيرة التي يتجدد ماؤها في كل
لحظة وكثير من هذه المرتفعات متسعة جدا وينزل اليها بدرج
لانها تحت الارض (فكانها البنفسج قد اختبأ من عيون النرجس)
وإذا اضطر أحد لقضاء الحاجة ولم يجد المرتفق قريبا منه فله
أن يدخل في أى دكان فطاطرى ويدفع بنسا واحد (٤) ملجم
للخادم

وصف السقي وقد سبق لى ذكر السقي (المدينة) وسهى على أن أقول
انها مركز الصناعة والتجارة لا للوندره وحدها بل للعالم أجمع تتوارد
اليها كنوز الثروة من جميع أقطار الارض وتديرها هي كيف
شأت وترسلها أينما أرادت ومن نظر الى جوها تصور أن رتبلاء
هائلة جاءت ونسجت خيوطها وأرسلتها في جميع أطرافها فان
الاسلاك التلفونية والكهربائية التي فيها عددا أعسر من احصاء
قطرات الامطار ومما يدل على أن الحركة في هذه الجهة من
لوندره قد وصلت الى نهايات التصور أن الرسائل الواردة عن طريق
البوستة توزع فيها في كل ساعة من ساعات النهار حتى ان عدد
المكاتيب التي ترد اليها في كل صباح يزيد عن الالف ألف (وهناك
مخزن واحد يرد له في اليوم أكثر من ثلاثة آلاف رسالة) وعدد

سكان السنتي المقيمين بها ٣٧٦٩٤ نفسا ولكنها في ساعات
الاشغال تتوافد اليها الخلائق من كل فج عميق حتى يبلغ عدد
الذين بها طول النهار أكثر من ٣٠١٣٨٥ منهم ٢٩٥٢٠ رؤساء
بيوت تجارية و ٢٠٢٢١٥ مستخدما و ٥٠٤١٦ مستخدممة
و ١٩٢٣٥٥ غلاما لا يزيد سنهم عن ١٥ سنة وقد حسبوا ان في
٢٤ ساعة (في يوم ٢٧ ابريل سنة ١٨٩١) دخل الى حدود
السنتي ١١٨٦٠٩٤ شخصا و ٩٢٣٧٢ عربية مختلفة الانواع
ومتى أقبل الليل رجعت هذه الخلائق كلها وتركت السنتي قاعا
صفصفا حتى اذا شقشق النهار رأيت هذه الافوام تنهال عليها
من كل جانب بمئات الالوف كالسيل المنهمر فهى أشبهه بالبحر
يحدث فيه المد والجزر

ومما يدل على ان روح التجارة مجموعة في العاصمة الانكليزية بلوندره روح
التجارة
ان الرسائل التي توزعها البوسمة في لوندره وحدها تزيد عن ربع
مجموع الرسائل التي يرسم بريطانيا العظمى كلها بل ان بلاد
اسكتلندة (Scotland) (وتعرف عند العرب باسم سقوسمية)
باجمعها لا يرد لها من الرسائل نصف ما يرد للوندره كما ان ايرلندة
(وتسمى كذلك في كتب العرب القديمة) بسائر مدائنها ومعاملها
ومتاجرها البحرية لا يرد لها الثلث

فكيف لاتنهال جداول الثروة على هؤلاء القوم العاملين
الذين يعرفون حقيقة قيمة الوقت حتى ان الرجل منهم اذا افكر
في أى أمر من التسهيل والتيسير وثابر عليه بتقليل من الثبات
وساعده حسن جده لا يلبث أن يصير من أغنيائهم وأشرفهم
ونبلائهم مثال ذلك رجل كان يصطنع البيرة (الجمعه) واسمه (باس)
فاتقن عملها وتفنن في طرق التعريف بها حتى انه وصل الآن
الى ثروة لا يمكن تقديرها الا لمن يعلم أنه اشترى الدار التي كان
يسكنها اللورد بيكونسفيلد وزير انكلترا الشهير ثم فرشها بالمتاع
الفاخر وبلغت نفقات الفرش وهدد ٦٥ ألف جنيهه تقريبا
من ذلك لوحتان فيهما بعض الصور والمناظر بستة عشر ألف جنيهه
ولما وصل الى ماوصل من اليسار توصل الى ان صار من اللوردات
الكبار (اللورد برتون) وعنده الآن سبعة آلاف عامل وله ايرادات
كثيرة ودخله من الجمعة وحدها بين ٣٠٠ ألف و ٤٠٠ ألف
جنيه في السنة الواحدة ومرتب مدير الادارة عنده هو ٥ آلاف
جنيه انكليزي في السنة

ومثله كوك المشهور وتاريخه معلوم في مصر وقد أصبح لميته
الآن أقلام ومكاتب في كافة البلاد المتمدنة بل ان له في لوندرة وحدها
نحو من ثمانية مكاتب وكلها تشبهه بل تفوق المصالح المنتظمة

المشهود لها بالاجادة ومما يدل على انتظام ادارته وتيقظ عماله لراحة
معامله انهم اطلعوني في لوندرة على ترجمة شكواى من وكلائهم
في برندى أرسلها لهم وكيلهم في القاهرة نقلا عن رسالى الاولى
واستفهموا منى عن اللازم وأوعدوني بمعاينة المقصرين حتى
لا يعودوا للاخلال بواجباتهم وسأفرد للكلام عليه في الرحلة فصلا
ان شاء الله

ومثله رجلان اسمهما سبيرز وپوند قد التزما بان ينشئا فى
جميع محطات لوندرة وبريطانيا العظمى سكرانات (١) للآكين
والشاربين من المتردين على القطرات فراجت تجانتهما وربحت
أعمالهما حتى تعديا هذا النوع الى غيره فأنشآ دكاكين بدالين
(بقالين) وخياطين وغير ذلك وعندهما من النساء المستخدمات
نحو الخمائة امرأة

ومثلهما كثير غيرهما اتبعوا طريق الحد فى أعمالهم ففازوا
وصاروا من أهل الثروة وأقبلت عليهم الخلائق وأقرت لهم

(١) يؤخذ من كلام شفاء الغليل فيما فى لغة العرب من الدخيل ان
السكردان لفظ فارسى معرب ومن شرحه له يستفاد انه يقابله فى اللغة
الافرنكية كلمة بوفيه Buffet المستعملة الآن فى اللغة العربية وحيثئذ
فالرجوع الى السكردان أولى وأفضل

بالفصاحة والاصالة وصار لهم في النفوس مهابة وجلال حتى ان كثيرا من المحدثين بهذه الصفة أصبحوا أعضاء في البرلمان بالنيابة عن بعض المقاطعات بل عن بعض المدارس الجامعة وهم كثيرون لأريد أن أطيل الرسالة بذكرهم ولكني لأرى مندوحة عن

الكلام على رجل اسمه هويتلي Whitely

هذا الرجل كان في مبدا أمره من طائفة المتسبين يبيع بعض الاصناف على عربنة يدفعها بيده أو يقف بها بجانب البرزوق وقد أصبح الآن وهو صاحب مخازن واسعة في لوندرة لا يضاهاها غيرها في كل البلاد التي رأيتها وقد علمت أنها فريدة في العالم بأجمعه وقد دخلت هذه المخازن فحرت واندهشت وضلت عن الطريق لتشعب مسالكها وتنوع الاصناف فيها فانك تجد عنده كل ما يحتاجه الانسان من أى طبقة كان من يوم مولده الى يوم ممته من جميع الاصناف وكافة الانواع من ملابس للجسم والرأس واليدين وللأقدام داخلية وخارجية للرجال والاطفال والنساء والبنيات جاهزة أو مفصلة بحسب الارادة ومن أقشة لجميع اصناف الناس للملكية والعسكرية البرية والبحرية ومن حرائر ومنسوجات مختلفة متعددة متنوعة ومن روائح واعطار ومن بضائع أجنبية من جميع أقطار الدنيا من مصاعات

ومجوهرات مختلفة الاقدار والاحجام والاثمان ومن مشغولات
الحديد وكافة المعادن على الاطلاق ومن أخشاب وأحطاب ومن
كتب وورق وما يقتضيه ذلك من جميع الانواع ومن فواكه
طرية وناشفة وخضراوات جافة ورطبة جنية ومن لحوم
الحيوانات والصيد ومن حيوانات حية وأطياف وأسماك بل تجد
عنده الفحم الحجري بل الكبريت بل كل ما يتصوره الانسان يجده
في هذه الدكان وعلى الضمان ذهب اليه في أحد الايام رجل
من اللوردات وأراد أن يربكه ويضحك عليه فقال له اني أريد
فيلا أبيض (ومعلوم انه من الندرية بمكان) فتلقاه الرجل بكل
هدو وسكينة واستوصفه الفيل اللازم وسأومه الثمن وأخذ عنوانه
ثم قال له أضرب لك موعدا بعد ثلاثة شهور يحضر مطلوبك فلم
يمض الاجل المعين حتى جاء الى صاحبنا اللورد كآب في البوستة
يعلمه بوصول الفيل حائزا لكافة الشروط المطلوبة والوصاف
المرغوبة وانه مستعد لارساله اليه في المكان الذي يعينه وبلغني
ان عدد الفتيات المستخدمات في مخازنه يقارب الخمسة آلاف
وأمثال هؤلاء كثيرون

فلا يجب الانسان حينئذ اذا اضطر القوم للاستعمار الغني والفقير
والاجتهاد في جلب الذهب الى بلادهم من كافة أقطار الارض

حتى صارت مدينتهم سوق العالم كله وأصبح كثير منهم يكتسبون
في الدقيقة الواحدة خمسة أو عشرة جنيهات أو أكثر ومنهم من
يراده السنوى يعتبر في بلاد أخرى رأس مال عظيم جدا ومنهم
دوك اف فونشير يملك من الاراضى فقط ما قيمته ثمانية آلاف
ألف جنيه ومع ذلك فان ثروته هذه ليست شيئا يذكر بجانب
دوك وستستر فانه لم يتيسر حصرها لالآن

وبهذه المناسبة أقول ان الباحث المدقق لا يرى في اى نقطة
في الكون منظرا أبشع ومشهدا أشنع من الفقر الذى أناخ
بكله على جانب عظيم من سكان لوندرة فان ذلك المنظر يوجب
لوعة وألما لا يضاھيم - ما شئ من الاحزان لقربه من تلك الثروة
الطائلة وتلك النعمة الكاملة الآخذة في النماء والازدياد بقدر
استداد واطاة الفاقة وتناهى الاعسار فهلا يرى الناظر بعد ذلك
ان هذه المدينة قد تفردت بالجمع بين الاطراف وانعدام فيها
الوسط في كل أمر من أمور الحياة حتى لقد صدق شاعرهم
شيلي إذ قال مامعناه

ان جهنم المستعرة * أشبه بمدينة لوندرة

الرسالة الحادية عشرة

تجول في بعض مدائن الانكليز

قت من لوندرة في يوم الخميس ٢٢ ستمبر وقد اكنهه روجه وصف المطر
والضباب والسماء واحتجبت شمس الضياء وخيمت في المدينة ككتائب
الضباب ثم تمزقت ضلائع السحاب فتساقطت الامطار كالانهار
وتساققت السيول من أعلى التلال وتتابع الرعد القاصف يصحبه
البرق الخاطف ورأيت الناس يبتدؤن في ايقاد النور في الشوارع
والحوانيت والدور فنزلت من العربة الى جهة مستقرية للتفرج
على هذه الحركة المستغربة غير مبال بهاطل الوايل نجيل لي أني
في صندوق كبير من الزجاج القائم وعلى جدرانه شبه أشجار
منضودة ومياه معدودة وطرائق ممدودة وأشباح في غدو ورواح
وما وصلت الى سكة الحديد الا وقد بلغ الظلام منتهاه فأسرعت الى
عربة القطار السريع ورأيت الماء ينهال من ميازيها كأنها أفواه
القرب ولما استقر بي الجلوس واستأنست بالجلوس ورأيت النفوس
تنضج من هذا الجو العبوس فالتحت بعض القوم بهول هذا
اليوم فقال هذا هو الضباب الاسود ولعله يقف عند هذا الحد
فلا يكون طليعة لعمرم الضباب الاصفر فانه هو الموت الاحمر

فأظهرت الاشتياق لمعرفة هذا الافتراق فأخبرني أن الضباب
عندهم قسمان أولهما وهو الذي نشاهده الآن أكثر غرابة وأقل
ضررا للإنسان فإنه يجعل وقت الظهيرة البريج كمنصف الليل البهيم
فيسارع الناس بإضاءة النبراس ومتى كان الضباب في الطبقات
العالية فليس فيه من الضرر ما يستحق أن يذكر ولكنه على كل
حال لا يوجب عطلا في دولا ب التجارة وحركة الاعمال وأما الصنف
الثاني فهو الاصفر يؤثر على الحلق ويتهدد الخلق بالخنق ويوجب
التحفظ على الأقسام بالا كلام وقد اخترعوا للوقاية منه كلمات
مخصوصة للتمكن من التنفس بسهولة وكل من أهمل الاحتراز
بهذا الغطاء أو بهذه الحكمة خرج الدم من فيه مع اللعاب ان لم
ترهق النفس وتذهب الى الرمس وفي الحال يسرجون المصابيح في
الشوارع والحارات والدور والدكاكين ولكنه يستحيل على
الانسان أن يرى النور نفسه ولو كان بمقربة منه وبعضهم يلتجئون
الى العربات فيلبثون بها ساعات وترى هذه الحركة الهائلة التي
تفردت بها لوندرة تقف كلها مرة واحدة ولا يتجاسر الجريء على
أن يتقدم فترا أو يتأخر شهرا خوفا من الاصطدام بشيء مما لا يراه
وهذا الصنف من الضباب لا يظهر الامدة خمسة عشر يوما وأخص
الاقوات به شهر نوفمبر فقد يمر الاسبوع الكامل كأنه ليلة واحدة

قد يتخللها أحيانا شفق باهت يزيد في الحزن والسكابة المنتشرة على أرجاء المدينة ولذلك كان الانكليز أعرف الناس بمضار الجو في مدينتهم فيبارحونها في فصل الشتاء (الامن تضطره حوائجهم وأعماله) ويفر الاعيان والاشراف واللوردات منها في هذه الاوقات لانها تكون والحق يقال غير قابلة للسكنى بما يغشاها من ركام الضباب المتوالى الذى يمزج فيها بين النور والظلام ويزيد في درجة الرطوبة الى حد لا يطاق فشكرت الرجل على هذه الافادة وأردت أن أحيطه علما باعتدال الجو في بلادنا وبهاء السماء عندنا مما يجعلها جنة تقر النواظر وتشرح الخواطر ولكن رأيتهم لا يعبأوا الا بيلاده ولا يلتفت الى غير ما هو في معلومه فأقفلت باب الحديث وأخذ هو والجماعة في تدخين شبقاتهم القصيرة الشهيرة وتلاوة جرائدهم الكثيرة واشتغلت باضافة هذه الفوائد على ما علمته من سرعة تغير الجو في لوندرة فان متوسط درجة الحرارة فيها هو ٤٥ ر ٩ من درجات ستميجراد وقد تنزل في الشتاء الى ٣ تحت الصفر ولم يمس الا قليل من الزمن حتى وصلنا برمنغام Birmingham مدينة برمنغام فنزلت بها وهى مدينة قديمة اسمها الاصلى بروموياشام ثم حرفها العامة الى بروماجم واشتهرت الان باسمها المتداول المعروف وهى مركز المعامل التى تشتغل باصطناع الحديد فى بلاد الانكليز وفيها

ورش للجلوانوبلستيا ولاصطناع الريش الفولاذ التي يستعملها
الافرنج في الكتابة بدل الاقلام وللمصنوعات الحديدية الخاصة
بالسكائن وعلى مقربة منها ورشة لاصطناع الزجاجات العدسية
الخاصة بالفنارات البحرية وأخرى لعمل العربات ومن أجل مبانيها
دار المدينة وفيها متحف واف ومكتبة أهلية يقوم بالخدمة فيها
نساء في غابة الفطانة وفيها غرفة مخصصة لمؤلفات شاعرهم
الفيلسوف الشهير شكسبير تحتمى على مجموعة فيها كتبه التي
طبعت في جميع المطابع وفيها تراجمها الى كافة اللغات الاوروبية
وكذلك البوستة يقوم بمباشرة أعمالها نساء لهن حظ واف من
علم الجغرافية

مدينة دربي ثم قمت منها الى مدينة دربي (Derby) وتفجرت
على مكتبتها ومتحفها ولكنها ليست الا عبارة عن معالم كثيرة
خالية مما يشرح صدر الغريب أو يستميله لاطالة البقاء فيها وأهم
شيء يستحق الذكر هو اني حطت بها الرحال (أعني جعبة
ملابسي ووطاب أوراق) مدة ٢٤ ساعة

مدينة منشستر وأسرت بالقيام منها الى مدينة منشستر (Manchester) على
القطار السريع فركبت نفق اسمه بيك فورست تونل وطوله ميلان
كاملان ولكن القطار قطعهما في دقيقتين وفيه بطرية كهربائية
منشستر

لاضافة كافة العربات بالليل أو عند دخولها نهارا في بعض الانفاق فقط ومنشستر مدينة كبيرة عامرة فيها كثير من المعامل وأهم شئ تفرغت له فيها مكاتبها الكثيرة المجانية التي أعدت لتثقيف عقول الاهالي وتشجيع أذهان العمال في أوقات خلوهم من الاعمال وقد رأيت في أهم مكنتها مجموعة مستوفاة لانظير لها في أعظم مكاتب أوروبا حيث احتوت على جميع ما ألفه العلماء في فن اختزال الكتابة (الستنوغرافيا) وفيها مجموعة كاملة لاهم جرائد بريطانيا العظمى واعمال البرلمان وكتب قديمة نادرة ومعمل للتجليد ورأيت فيها طابعا يؤثر على الورق من غير حبر استخدموه حتى لا يتمكن أحد القراء من اختلاس بعض أوراق الكتب التي يكون فيها تصاوير ورسوم أو جداول أو غير ذلك مما يستشره الغواة للاختصاص به واتلاف الكتاب برمته وهي طريقة لطيفة يحسن اتباعها في الكتب الخشبية حفظا لما فيها من الذخائر والنقائس حتى ان الذي يستعير الكتاب النادر لاتسول له نفسه بتجريده من بعض الصفحات فيصبح أتر عديم القيمة وفيها غرفة للقراءة يجرد الانسان فيها جميع الجرائد التي تصدر في اليوم وسأشرح الكلام بالتفصيل على مكاتبها التسعة وغرف المطالعة المتعددة اظهارا لما جاءت به من الفوائد التي لاتقدر وعدد سكان

هذه المدينة ٧٠٠٠٠ نسمة بما فيها ساقدور من ارباضها وهى
كما لا يخفى مركزا لصناعة الاقطان (وفى متحفها نموذج من
جميع محصولات القطن بأنواعه فى كافة أقطار العالم) وليست من
شئ فى حسن المنظر وبهاء الرونق وهى كسوق بتمون فيه أهمل
المدائن التى حولها وكلها مختصة بغزل القطن ونسجه وبما يتبعه
من الصنائع وفيها بعض عمارتستحق الذكر مثل دارأمانة المدينة
ودار التجارة الحرة وهى معدة للاجتماعات العمومية تسع ٥٠٠٠
نفس وفيها بستان للنبات فى غاية الانتظام وفيها كثير من الاسواق
والسكائس المهمة وفى شوارعها وميادينها أنصاب لتخليد كرمشاهير
الأنكليز وقدمضى على فيها أحد الأحماد فكأنها ولوندره قد
أفرغتا فى قالب واحد ومما زاد فى أهمية المدينة أن شركة تالفت
وساقت مياه البحر الاطلانطيقى من ليفربول إليها فى ترعة سموها
قنال مانشستر لىكى يتيسر للسفن أن تدخل فى انكراحتى تصل
إليها بما فيها من البضائع وقد بلغت نفقات هذا القنال نحو ٦ ملايين
من الجنيهات والمنظور أنهم يصرفون أيضا أربعة ملايين أخرى
ثم قمت منها الى ليفربول (Liverpool) ونزلت
لفربول
وفندق أدانى
بفندق ادلى وهو من أنخر وأنخم الفنادق التى رأيتها بأوروبا
من حيث الاتساع والاثقان وكمال المعدات حتى ان أدنى

غرفة فيه يضيئها النور الكهربائي وفيها التلفون للمخاطبة مع ادارة
القدرق وخدمه ولكاملة النازلين به مع بعضهم ومع المشتركين في
التلفون من أهل المدينة

الجمعية
الاسلامية
الانكليزية

وقد تفرجت فيها على المحاكم وعرفت أساليب التقاضى والمحاماة
عندهم وزرت مكنتها ومتاحفها وشاهدت آثارها وأنصباها وتقابلت
فيها مع الشيخ عبدالله ويليم كويليم رئيس الطائفة الاسلامية من
أبناء الانكليز ودعاني لتناول الطعام عنده وأكرم منواى ورأيت
قائما هو وأصحابه بتأدية الفروض الدينية الشرعية بقدر اجتهادهم
في دار جعلوا فيها قبلة ومحرابا ومكانا للصلاة ومنبرا للوعظ والخطابة
وفيها مدرسة اسلامية لتعليم الآداب والفنون الانكليزية على ما يوافق
النصوص الشرعية وهى الى الآن في عهد الطفولية وكلهم متوددون
لبعضهم رجاء بينهم مقبلون على تكسب أرزاقهم يتخاطبون
بالفاظ الاخاء ويحيون بعضهم بتحية الاسلام ويزيد عددهم
الآن عن الستين بما فيهم بعض النساء ولا شك انهن سيكون
لهن اليد البيضاء في تعميم نشر المبادئ الحقة واطهار مزاي الدين
الخنيف شأنهن في كل عمل أقبلن عليه في أى قطر من أقطار
المسكونة وقد ترجوا بعض السور الكريمة ونظموها في قصائد

يرتلونها في بعض الاجتماعات وعندى نسخة منها وقد اديت
معهم فريضة العشاء في ليلة ٢٧ - ٢٨ ستمبر وقد اشتد الزمهرير الزمهيري في
سبتمبر
وتنازات الحرارة وارتفعت البرودة بما لم أعهد له مثيلا من قبل
حتى كانت جوارحي تنتفض وفرائصي تزعد كأني العصفور بالله
القطر واستمرت أسناني على الاصطكاك والاحتكاك حتى تحققت
ان برد العجوز في بلادنا ليس بالشئ الذي يذكر بجانب ماسميته
برد الشباب عندهم وكانوا كلهم يقولون أين هذا من البرد الصحيح
وبعد أن خرجنا من المسجد صاحبني اثنان منهم لارشادي على نار السعير
الغندق وبينما نحن في اثناء الطريق واذا بمبادئ حريقة في
مخزن خشب فوقفنا نتأمل أفاعيل النار مع اشتداد هبوب الرياح
ولم تض برهة كبيرة حتى ارتفع لسان اللهب الى عنان السماء
وتطاير الشرر الى جهة الشرق فأنت على المخزن وبعض البيوت
المجاورة له ولم يتغاب عليها رجال المطافئ مع إقدامهم وبراعتهم
الابعد أن بلغت النفس التراقي ولولا حذاقتهم وسكون الاهالي
وعدم اضطرابهم واستيلاء الهلع عليهم لكانت أحدى تلك الافا
أعظم مما حدث وسأكتب عليها بالتفصيل وانما أذكر الآن ثبات
الانكليز فاني لم أسمع في الجماهير التي تجمهرت الا صياحا واحدا
من امرأة استعانت بالقوم لانقاذ ولدها وألقت نفسها في مقدمتهم

لاستخلاص فلذة كبدها وبعد ذلك استولى الضمت والسكون
حتى في أهالي المنازل المجاورة التي كانت ألسنة النار تنطاول
اليها وبقي رجال المطافئ مالكين لحريتهم في العمل حتى انقضت
هذه القارعة ولم يمت فيها أحد من الناس والمجدته

وعدد أهالي ليثربول ٥١٧٠٠٠ نفس وهي أول الموانئ عموميات

البريطانية بعد لوندرة بل قد تفوق عليها بما يصدر منها الى الخارج
وأخص تجارتها مع بلاد امريكا اذ يجيئها منها كميات من الحبوب
والاقطان وغير ذلك من المحصولات مما لا يكاد يتصوره العقل ثم
تصدرها بعد اصطناعها في معاملها الى جميع انحاء العالم
وأحواضها أهم ما يوجد في أعظم موانئ الدنيا تدخل اليها أكبر
السفن في كل لحظة وهي متقاطرة صفوفها صفوفها وراء بعضها
على مدى ستة أميال وزيادة بحيث ان منظرها يعتبر من عجائب
العالم ولا يزالون الى الآن يشتملون بحفر أحواض جديدة وانشاء
مخازن للتجارة البحرية

ومن أهم مبانيها قاعة سنت جورج وهي عمارة ضخمة
جليلة بما فيها من الرونق والبهاء وحسن النظام يجتمع فيها القوم
أثناء الانتخابات أو الاحتفالات العمومية ورأيت قصر متحف
الفنون والصور والرسوم وغرفة المطالعة والمكتبة الحرة

والمورصة وغير ذلك من عظام الآثار التي لا يسمع لي المقام
بالتوسع في الكلام عليها الآن وفيها كما في غيرها من مدائن
الانكليز تلك الرياض الهندسية التي تنقى الهواء وتسرفؤاد
بما فيها من الخضرة والفضرة والمياه المتدفقة والاشجار القليلة
حتى يتيسر للنظر ان يمتد الى منتهى الافق وفيها مدرسة جامعة
وغير ذلك مما أستبقى شرحه للوقت والمكان المناسبين له
هذا وقد كنت عقدت النية على الرجوع الى لوندرة مباشرة
ولكنني عدلت عن ذلك وعولت على زيارة بعض مدائن الغال
لقربي منها واعلمى بانه لم يسبقني أحد من أبناء جلدتى من هذا
الجيل فى التوجه اليها وستكون موضوع الكلام فى الرسالة التالية
ان شاء الله



الرسالة الثانية عشر

تجوال في بلاد الغال

خلق الله الانسان في أحسن تقويم وبرأه على أبداع تكوين
وصوره في أجل مثال وفطره على أكمل منوال ثم أودع فيه من
غرائب الغرائز وخفي الاسرار ومكنون القوى ما لا يرتاب في
وجوده الخاذق الفطين أو يتخيله الدراكة الفهيم أو يحظر على
بال اللبيب الاريب ولا يزال العلم يكشف لنا في كل يوم عن قناع
هذه الخبايا ويكشفنا بما في تلك الزوايا ويطلعنا بمقدار تقدم
العرفان على مافي الانسان العاجز من آثار الاقتدار كلما قرن
الارادة بالعمل ووفق بين الفكر والتحقيق في مظاهر الوجود وهذه
كلها قضايا ثابتة عند من قدح زناد القرينة الصحيحة وتدبر في
سلائق الخلائق وأرسل رائد التأمل الى عجائب الارتقاء العصري
وما كان من نتائج سعي العقلاء في الايام الخوالي

أقول ذلك بمناسبة ما شهته به المصريون من الركون الى
السكون والخلود الى الراحة والقناعة بالكفاف وما ذلك الا لتوفر
العيش في بلادهم البارة بأهلها وتيسر أسباب الكسب ونوال
الرزق من غير ماكد ولا كدح كما هو الشأن في الامم المتوطنة

السبب في
عدم تغرب
المصريين

بالبلاد الجبلية أو الاصقاع المجذبة القاحلة أو البلاد التي ضاق
ذرعها عن القيام بأود أبنائها حتى اضطروا للتزوح عنها الى ما هو
أخصب وأبرك سعيا وراء القوت أو طلبا للرفاهية والنعيم
وليس السكون من شؤون المصريين دون من عداهم ممن

يدبون على وجه الكرة الارضية فاهم وربك إلا كسواهم من
طوائف المخملوقات الذين أفاضت عليهم يد العناية الازلية نعمها
المتراذفة حتى جعلت بلادهم مطمحا لانظار الغريب عنها يلتجئ
اليها على الدوام ويقرع أبوابها طلبا للقرى والضيافة

ثم اننا اذا نزلنا في سلم الكائنات الى الحيوانات رأينا هذه
النتيجة بعينها فانواع الدبابات وأصناف الحشرات وأطيوار الهواء
وأسمالك الماء خاضعة لهذا الناموس الكوني العام فما كان منها
في وسط مشحون بالخيرات تراه من طبيعته ميالا للسكنة وعدم
العنفوان وما كان بعكسه يكون من خلقه البطش والبغي
والعدوان وقد استمر الحال على هذا المنهاج حتى تأصلت هذه
الاخلاق وصارت وراثية في كل من الفريقين يتناقلها الابناء عن
الآباء والاحفاد عن الاجداد ولكننا اذ قلبنا الموضوع وعكسنا
القضية كما يفعل علماء الطبيعيات ببعض الحيوانات لا تلبث
الجبلات ان تتغير والسجاييا ان تتحور والطبائع أن تتنوع وتتحول

والاميال أن تتبدل وتتعدل بحسب ما يقتضيه الحال ويستوجبه
المقام

لذلك كان البدو على العموم مجبولين على الترحال والضرب
في أطراف البلاد حتى اذا تمصروا أصبحوا كأهل الحضرة أفـل
استعدادا للهجرة والتغرب عن الاوطان والابتعاد عن الارض
التي نبثوا بها واستمقوا من مائها وتغذوا بنباتها

ولما كانت بلاد الانكليز كثيرة البعد عن ان يصدق عليها السبب في
ولوع الانكليز
مالمسيحة
انها من الخصب وتوفر الرزق بحيث تكفي لمؤنة أهلها تولد فيهم
بالضرورة حب السياحة والسعي في مناكب الارض وبذل كل
مافي وسعهم من الوسائل الحسية والوسائل المعنوية لجلب الثروة
من أقطار الارض وأطرافها الى تلك الجزيرة التي يسكنون بها
ثم لما ضاقت عنهم الترموا بالاستمكثار من الاستعمار والانتشار في
سائر الاقطار مثل الفينيقيين وأبنائهم القرطاجيين ومثل
الاعريق والرومانيين ومثل العرب في أول دولتهم والبرتقاليين
والاسبانيين في مبدأ نشأتهم ومثل الالمانيين واليونانيين وغيرهم
من أعم هذا الزمان

وبعد ان كانت السياحات للانكليز من أول الحاجيات
أصبحت الآن من ضروريات الكليات لانها رسخت في ملكاتهم

وثبتت في أخلاقهم حتى أنهم فاقوا جميع أمم الأرض في هذا
الموضوع

استعداد
المصريين
للسياحة

وبعكسهم المصريون واشباههم من الاقوام فانهم لم تحوهم
بلادهم للخروج من حوزتها ومبارحة حومتها فانها تكفلت لهم
بلوازم الحياة ولم تضن عليهم بما يسد رمقهم حتى انه ما أمكن
ولا يمكن ولن يمكن أن يموت فيها أحد بسبب الجوع كما هو حاصل
في كل يوم بلوندره وغيرها من مدائن الانكليز ولا يمكن أن لا يجد
العامل فيها عملاً يغنيه عن بذل ماء الوجه وإخلاق الديباچه أو
الانتحار ان كان في نفسه شئ من الشمم والشهامة وأما لوندرة
وحدها فقد شهد الاستاذ كيرهاردى نفسه وأكد بأن عدد العمال
الذين لا عمل لهم هو ١٠٠٠٠٠ ومعلوم ان أقل تعطيل في
معامل أية مدينة من بلاد الانكليز يوجب انقطاع الخبز عن
مئات ألوف من العمال كما تشهد به التلغرافات

فلا غرابة حينئذ في أن مصر لم تخرج كثيرين من أهل
السياحة والزياره ومحبي الاستطلاع وليكن ذلك ليس برهانا على
عدم استعداد أهلها لها بل ان البارئ جل وعلا خصهم أيضا
بهذه الغريزة كما حلالهم بصفاء القريحة وجودة الذهن وسمو
المدارك وغير ذلك من المزايا العقلية التي يعترف لهم بها حتى

أعداؤهم من الاجانب وانما الاعمال محك الرجال فلا يصح للعاقل
المنصف حينئذ الآن يسخر ويستخف بأوائك السائحين الذين
جاؤا مصر وحكموا بأن أهلها ليس فيهم اقتدار على السياحة
وطلب العزى فى التنقل فان أول طواف حول افريقية كان فى
عهد الفراعنة الاقدمين وعلى سفائن المصريين وبواسطة المصريين
خرجوا من بحر الروم مغربين حتى تجاوزوا ببحر الزقاق (بوغاز
جبل طارق) ثم اجتازوا ببحر الظلمات (الحيظ الاطلانطيقى) الى أن
باغوا ما يعرف الآن برأس عشم الخير ثم جابوا البحر الهندى
وألقوا المراسى عند مدينة القلزم (قريبا من السويس) ومن
نظر فى كتاب (مصر والجغرافيا) الذى وُفقت الى اظهاره حديثا
اذعن بأنهم قد كانت لهم اليد البيضاء فى الاكتشافات الجغرافية
التي حصلت ببلاد السودان وغيرها وان كانت رسائلهم
وتقاريرهم وكتاباتهم لم تنل حقهما من الانتشار حتى تكون بهجة
فى عين المحب وقذى فى عين المبغضين

الاندفاع
للسياحة

ولقد صدق الفرنسيون فى المثل الذى أرسلوه حيث قالوا (ان
الشهية تحضر وقت الاكل L'appétit vient en mangeant)
واصدق منهم امامنا البوصيرى فيما أتى به من الحكم (ان الطعام
يقوى شهوة النهم) فانى حينما أتيت لى مبارحة الربوع التى ألفتها

والديار التي عهدتها وهذه هي المرة الاولى عرفت مقدار الحنين اليها والتوجع من مفارقتها حتى لقد اشتد بي الوجد عليها وأنا بفلورانس على مقربة منها ولايعرف الشوق الا من يكابده ولاينكر هذه العواطف النبيلة الا من تجرد منها ولاكنى كنت كلما طوحت بي الاسفار استأنس الى السياحة وأرى في نفسي مايجذبني الى رؤية بلاد كثيرة واقوام عديدة حتى اني لما كنت بلفربول شعرت بما يدفعني الى زيارة بلاد الغال وقد دارت المكالمة بيني وبين بعض الانكليز على ما عزمت عليه من التوغل في هذه البلاد فاستكبر هذا المشروع على شاب من المصريين وقال لي انه من باب المجازفة سيما مع قلّة بضاعتي في اللغة الانكليزية مع كوني لو كنت متقنا لها لما أفادتني بشيء كثير لان أهل تلك البلاد لهم لسان آخر خاص بهم وهو بعيد عن الانكليزية بعدا شاسعا فقلت له ولم تقدمون انتم الى بلادنا وتكتبون عليها مع عدم معرفتكم بلساننا ولاوقوفكم على اخلاقنا فقال لي اتنا نستعين بما كتبه اسلافنا الذين خالطوكم وأقاموا بين ظهرانيكم فضلا عن انتشار لساننا في أوطانكم وكثرة الترجمة الذين نستخدمهم في التفهم والتفهم فأجبتهم بانى لأرى من مانع في ان اكون لقوى مثل أولئك الاسلاف الذين تشير اليهم وانى

أستمعين بترجان من أهل تلك البلاد يفهمنى بالانكليزية وعلى قدر الامكان ما ليس فى وسعى ادراكه من لغة قومها فان الانكليز والامريكانيين لابدأن يكونوا قد موالىها وحديثها فلا شك فى وجود نفر من أهلها يكلمونى بالانكليزية على قدر ما أفهم ثم أحطت صاحبى بمشروع سياحتى فى الانداس والبرتقال وانى لأفهم كلمة واحدة من اللغة الاسبانية فقال ذلك سهل عليك لانها قريبة من الفرنسية والاطليانية ولك بهما اللسان فسلمت له بسداد هذا الجواب فقال لى وهناك عوائق أخرى ربما لا تقوى على مقاومتها وهى البرد الشديد والرطوبة الزائدة وتوالى الامطار فى هذه البلاد الجميلة فقلت له وفوق ذلك فانى عازم على النزول الى مناجم الفحم الحجرى فهز رأسه وبرم شاربيه وتبسم ضاحكا ثم قال بصوت متقطع (اذا كان الكلام سهلا على اللسان فالعمل صعب على الانسان) فترجعت له ما قاله شعراؤنا (أنجز حر ما وعد - وان غدا لناظره قريب) ثم ودعته بعد ان وعدته بانى اكتبه من هاتيك البلاد وركبت القطار فى عصرى النهار

ولما وصلت الى مدينة شستر Chester استدعيت جمالا ^{دخول بلاد} نقل متاعى الى قطار آخر وأعطيته جنهما ليستحضر لى تذكرة الى لنجولن Ljengollen ويرد لى الباقى فذهب وغاب ثم رجع ^{الغال}

موفيا بالمراد فأتحفته بما قدرني الله عليه لانني افكرت أنه كان
لنجوئلن في وسعه عدم الرجوع ووصلت لنجوئلن في منتصف الليل أو قبله
بقليل وكان المطر متواليا عليها بمالم أعهده في عمري وأما البرد ^{ومناظرها}
فيكفيني أن أقول انه أهداني بالزكام مدة أربعة أيام وسمعت ليامه
خيرا يشبه الهدير والزئير وكأنها متدفقة من صخور عالية
متأطمة على جنادل متوالية متساقطة في جداول سافلة وبلغت
الزل كالغريق لا يخاف البلبل فأوقدوا نارا حامية اصطليت بها
واستأنست لها وما سمعت أذان الديكة في الايكة وتسبيح الاطيار
على أفنان الاشجار حتى وثبت الى الشباك وألقيت نظرا متسارعا
الى ما أمامي من المناظر فاذا جبال شاهقة تكسوها خضرة رائقة
تخللها ازهار شائقة تكتنفها أشجار باسقة تنساب بينها مياه
دافقة لونها ضارب الى الاصفرار والاحرار مثل مياه النيل المبارك
أيام الفيضان فانبج فوادى كما انبج جسمي وقرت عيني بباهر هذه
المناظر وجمال هذه الحال حتى عولت على اطالة الإقامة في هذه
المدينة الصغيرة التي يبلغ عدد سكانها ٣١٣٣ نسمة فأخذت
الى الراحة فيها وترويح البال بمرائيها بعد أن لاقيت من لغظ
المدائن الكبيرة وضجتها ومتناهي اضطرابها وحركتها ما جعلني
محتسجا لقليل من الراحة حتى يعود لي النشاط لموالاته السباحة

ومن الغرابة أنى علمت بعد مبارحتى لها بزمان ان أهل التجوال
لا يحطون بها الرحال الا للاستراحة

فانها مدينة صغيرة واقعة على نهر الدي (ومعنى دى باللغة عوميات على
لنجولن) الغالية الاسود وبالانكليزية بلاك) وتسمى بلسان أهلها لنجولن
وان كانوا يسمون اسمها فى الكتابة هكذا (لنجلولن) وعلى نحو
ميلين منها اطلال دارسة لدير قديم وهى أجمل ما بقى من عمائر
القدماء فى شمال هذه الاراضى وعلى ميل ونصف منها بقايا
حصون منيعة قائمة بشكل مخروطى على تل مرتفع يطل على
المدينة ويصد عنها المغيرين عليها وقد زرتها بالتفصيل وشاهدت
أعمال الحفر فيها وكشف ما كان دارسا تحت الارض منها - ما
وفيما وراء هذه الحصون يمتد النظر الى مسافة أربعة أميال
تشغلها جبال طباشيرية وتخللها مروج أريجة ومرع فسيحة
ويحف بالمدينة من الشمال الى الجنوب واد يسمى بيج يبلغ طوله
٢٤ ميلا ينعش الفؤاد ويشجى النفس بنوره وزهره وخضرته
وقد آثرت التوجه اليه على عربة فى طريق البر عن ركوب
القطار حتى أتمتع باجتلاء محاسنه وتسريح الطرف فى مشاهدته
ورأيت ما أبقاه فيه الدهر من آثار القصور الدارسة التى تتعلق
بما كان لها من المكانة فى الفخامة والجلال وتشهد بان الايام
خلعت عليها ما عندها من الجمال

طباع أهل
الغال
وقد تنقلت من هناك الى قرى كثيرة حول لنجوثلن وتحققت
في أهل الغال بشاشة وبشرا واثمناسا ويسرا مع الطباع الكريمة
والاخلاق الفاضلة النبيلة ولهم بالغريب حفاوة وأى حفاوة فهم
يتهاكون على خدمته والاجتهاد في مرضاته من غير أن تكون
لهم غاية مافي ديناره وخلاصة القول انى عهدت فيهم تلك السجايا
البدوية العربية الفاضلة التى تتجلى مظاهرها فى الارياض
والخلوات أكثر منها فى المدائن والامصار وهذا ما حدانى على إطالة
المكث بلنجوثلن أكثر مما تستحق فى الحقيقة وخصوصا ان الفندق
الذى نزلت فيه وهو (هانذ هوتل Hand Hotel) قد قام أهله
بخدمتى فوق اللازم ويسروا لى جميع المطالب بما كتب لهم على
صحيحة فؤادى آيات من الشكر لا يعوها الدهر ولقد وطنت نفسى
على الذهاب الى هذه المدينة اذا ساءتنى العناية بالقدم الى
أوروبا مرة ثانية

نساء الغال
وقد رأيت النساء فى بلاد الغال يفسقن اضرابهن فى بلاد
النجارة الحقيقية فيما هو من مميزات الجنس اللطيف مع ما هن
عليه من البساطة التى تستوجبها المعيشة الخلوية وبعدهن عن
التائق الذى يضطر اليه أترابهن حينما يطلعن فى سماء الامصار
وللسيدات فى لنجوثلن جمعية خاصة بهن فى دارهى فى الحقيقة

تحفة للناظرين وطرفة للقادمين فقد حوت من آثار الصناعة
وبدائع الاعمال مالا يمكنه المقام من استيفائه الا ان فانها كلها
من الخشب القديم المشغول شغلا دقيا على يد أمهر الصناع وفيها
طرائف قديمة ومجموعات نفيسة من حلي وجواهر ومناظر فاخر
وصور ومناظر وأسلمة ونقوش وأشكال وأواني يلمق بها
ان تعرض في أهم المتاحف المعتبرة وفيها رجام قبر من الرخام مكتوب
عليه عبارة باللغة التركية

وفي هذه المدينة الصغيرة أكثر من اثني عشر معملا لغزل
الصوف ونسجه يديرها التيار والبحار وقد تفرجت على بعضها
ورأيت الصوف كيف يفرز ثم ينظف ثم يغزل ثم ينسج ثم يغسل
ثم يكوى ثم يلف وكل ذلك بواسطة الآلات وتحت مراقبة
شركة من الغلمان وثلة من البنات

ولا أعلم كيف استولت على الرغبة في التوجه الى منبع نهر
الذي ورؤيته وهو يخرج من البحيرة التي تجتمع فيها المياه
المتساقطة من الجبال فجهزني أهل الفندق بما يلزم وأحضروا لي
ترجانا صاحبني في ذهابي بالسكة الحديدية الى مدينة بالا Bala
وسرت مسافة ساعة حول بحيرتها ورأيت الجداول تنساب من
قلل الصخور القريبة منها وتمهل في حياضها ثم تجرى الى الوادي
فيكون منها نهر الذي

وصف مناجم الفحم الحجري كل ذلك والمطرمة - وال لا ينقطع الا مقدار خمس دقائق
تطلع فيها الغزالة ثم لا تلبث ان تختبئ وراء حجاب السحاب يكسفهها
قوس قزح مزدوجا بل قد لاتهملها الامطار ريثما تختفي عن
الانظار ولقد طاب لي المقام في هذه المدينة الهادئة المطمئنة مع
ما فيها من التغيرات الجوية التي لا تحظر على بال من تعود اقليمنا
ولكني ما قدمت في الحقيقة الى بلاد الغال الا طمعا في رؤية
مناجم الفحم الحجري اس الصناعة وينبوع الثروة ومحور العمران
في هذا الزمان ذلك المعدن النفيس الذي يجدر بنا أن نسميه الحجر
الكريم والا كسير الصحح فانه فضلا عن فوائده المتعارفة قد
استخرج منه علماء الكيمياء اصباغا باهية متنوعة واعطارا اذكي
من جميع الاصناف المعروفة وسكريات في الصيدليات والدرهم منه
يوازي أكثر من ثلاثين من أجود أنواع السكر المعتاد وقد أثبتوا
أن حجر الماس من الكربون وبذلك يجوز لاهل البيان أن يقولوا
ان الماس من الفحم في الحقيقة والمجاز (وسبحان من يفتق النور
من رتق الظلمات ويخرج الاحياء من الاموات) وفيه غير ذلك من
الجواهر والمنافع والمزايا التي ربما أتعرض لشرحها عند الكلام
على المنجم الذي زرته بالتدقيق والتفصيل فاني قمت من لنجولتن
يصحبنى ابن ربة النزل حتى وصلت الى مدينة شيرك Chirk

على طريق يشبهه السكك الزراعية في بلادنا وانعظقت منها الى
منجم بقربها

وما تمكنت من زيارته الا بعد عناء شديد لان القوم
حسبوني في اول الامر رائدا من طرف أصحاب المناجم الالمانية
بحث أسترق أسرارهم وأقف على طرائقهم الى غير ذلك مما يخشاه
أهل الفن الواحد من بعضهم ولكن المدير لما عرف صدقي
ووطني واطلع على رقعة زيارتي فتح لي الابواب ومهد امامي الطرق
وأتحفني بكافة المعلومات وأعطاني نسخا من التقارير الرسمية
والرسائل الفنية لاستعين بها على الاشباع في هذا الموضوع ثم
قام بنفسه وطاق معي جميع الاماكن وأحاطني بكيفية العمل
ثم أمر وكيله ان ينزل معي داخل المنجم بعد ان ألبسني رداء
قصيرا من الجوخ الغليظ الخشن وسلمني هراوة أوكأ عليها
وأستعين بها على التماس في السير داخل هوة النفق الحالكه
وأعطاني مصباحا من مصابيح الامان اهتدى به في السير واستعين
به على النظر ثم قدم لي شيئا من المرطبات وقال لي (قد صرت
الآن من عمالنا فأخضع لنواميسنا فبادر بالعمل بلا مهل) فامتثلت
وانحيت مع الوكيل في أحد الصناديق الموضوعه على المركبة المعده

الخراج الفحم من جوف الارض الى وجهها فهوت بنا المصعدة
(Ascenseur) وكان سطح الصندوق الاسفل يفر من تحت أقدمى
بمناسبة سرعة الآلة في النزول حتى رست بنا على بعد ثمانمائة
متر عن سطح البسيطة فاستلمنا أحد العمال وقتش جيمونا لثلا
يكون معنا شيء من الدخان أو الكبريت أو المواد القابلة
للانفجار ثم خص المصباح الذي معنا (وكان الوكيل نفسه خاضعا
قبلي لهذا الاختبار) وبعد ذلك سمح لنا في المرور فسرنا من سرداب
الى سرداب صاعدين هابطين مقبلين مدبرين بالتواء وانعطاف
بحسب اتجاه عرق الفحم في بطن الارض وكنا نمر على سلك
حديدية عليها قطارات مختلفة الاتجاهات بحسب دفع البخار
وجذبه بواسطة السلاسل الحديدية وفي الجهات المظلمة رأينا
خيولا تجر العربات مشحونة بالفحم وتتركها بجانب المصعدة
تترفعها الى وجه الارض ولهذه الخيول التي لاتنقص عن الثلاثين
اصطبلات في السرايب فيها كل ما تحتاجه من المؤونة والراحة
وفي السرايب حنفيات للمياه وتنانير للنيران وآلات للبخار وفوهة
كبيرة عليها آلة عظيمة تدخل الهواء بكثرة زائدة الى هذه الهاويات
العنيفة وهذا المنجم مركب من دورين أحدهما فوق الآخر
فالاول تحت سطح الارض بمسافة ثلثمائة متر والثاني تحته

بخمسة مائة متر وقد طفت فيهما ثلاث ساعات ولم يتيسر لى أن
أسلك في كل طرفاتها لان ذلك يستغرق يومين أو ثلاثة
ولكننى استعضت عن ذلك بالتوجه الى أقصى ناحية وصل
اليها العمال واقتنعت بذلك ودخلت الى أبعد نقطة في كليهما
حيث رأيت العمال يقيمون الاخشاب لاسناد السقف حتى لا ينهار
عليهم ووقفت حينئذ مبهما باقتدار الانسان واذا بفكر مظلم
تولانى فاقشعر منه جسمى ووقف له شعير رأيت اذ مررت على
ذا كرتى كالسهم الخاطف تاريخ تلك الكوراث والقوارع الكثيرة
الوقوع فى المناجم وتذكرت أحدثها وهو ما كنت قرأته بالجراند
الافرنكية فى مصر فى شهر مارس الماضى من الانفجار الذريع
الذى حصل بأحد المعادن فى بلاد البلجيكا حتى انه لسدة الرجة
التي أحدثها جعل أهل البلاد البعيدة عن موقع هذه الطامة
بمسافة خمسة كيلومترات يتخيّلون حصول زلزال عنيف ومالبت
الخبر أن انتشر حتى توافد الناس أفواجا الى محل الوقعة الفظيعة
وأخصهم أهالى العملة وعمالهم واشتغل أهل الاقدام والجرأة
بترتيب وسائل استنقاذ الارواح من هذا الموت الزؤام ولكن
اجتهادهم ذهب ادراج الرياح وضاعت مساعيهم سدى فقد كتب
الله أن تكون هذه الطامة عامة فانهم شعروا بتزعزع جديد فى

بواطن الارض أعقبه صياح رنان (النار النار) وأبصروا الشرر
يتطاير في الهواء من بئر التهوية يحيط به دخان كثيف كان يتسارع
الى وجه الارض نذيرا باعتراك العناصر في احشائها واجتماعها
على اهلاك من فيها من العملة المساكين بشر أنواع العذاب المبين
ثم أنهار أحد جدران بئر التهوية فساعد على اشتداد النيران وقطع
جبال الرجا في الانقاذ والقداء وكان الناس وهم في حالة اليأس
يسمعون زئيرا شديدا يخرج من الاعماق ويشعرون باضطراب
وارتجاج وفي بعض الاحيان كانت تهب عليهم روائح خصوصية
وتهاجمهم أبخرة كبريتية فتعلمهم باشتداد الكرب وتوالى الخطب
وتنبئهم بان الحريق آخذ في الازدياد وانه لامطمع في استخلاص
ضحايا النار حتى اصفرت الوجوه وذهبت العقول وضاع الصواب
فأقبل كثير من الحاضرين وفيهم جسم غفير من النساء يترايون
على البئر وقد أحاط به الجند ولم ينجحوا في صد المعتوهين عن
الذوق بأبائهم وأزواجهم وأبنائهم وأقربائهم لانقاذهم من مخالب
النار الا بعد أن أشهروا السيف البتار وتكاثفت جموعهم
فزحزحوا الناس بقوة السلاح وهم يتظرون اليهم بعيون زائغة
تنظروا لآثرى وأفواه تصطك أسنانها وقد انعقد لسانها ووجوه تولاها
الذهول واعتراها الخبال فصاروا كالاشباح بلا أرواح ولا أتذكر

الآن بالضبط عدد الذين ذهبوا فريسة هذه القارعة ولكني أذكر
انه يبلغ المائتين وهذه حادثة واحدة من كثير دقنها تاريخ المناجم
و كنت أفتكّر فيها كلها ولم يخرجني من هذا الحال الاتباجي العمال
بلسان الغال فاني لو كنت من البارعين في فن المغارقات لقلت انه
يتركب بحسب هذا البيان (أى النسخة باعتبار بعض المصريين)

قيراط

ألماني	٨
انكليزي	٢
لاوندى	١٠
يوناني	٢
سرياني	١
عربي وعبري	١

٢٤ ممزوجة مع بعضها ينشأ عنها اللسان الغالى

وحيثئذ بادرت بالخروج الى وجه الارض وشكرت افضال
المدير وان ارتجف من هول الخطر الذى ألقىت بنفسى في تهالكته
ولكننى قلت في نفسى ان الذى يبجى بلاد الانكليز ولايرى
معادن الفحم الحجري فلا يصح له أن يقول انه كان في انجلترا
أوزار هذه الجزيرة

ثم انطلقت من هذه المدينة (شيرك) الى مدينة أخرى

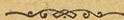
تفرحت فيها على معمل اصطناع الطوب المطبوخ (الاجر) بواسطة
البخار وهو معمل كبير يأخذ الطين اللازم من تل كبير مجاور له ثم
انتقلت الى مدينة أخرى قريبة منها ورأيت فيها العملة يلعبون
بعد خروجهم من المعادن بالكرة بأقدامهم (الفوت بول) وهو لعب
رياضي خاص بالانكليز ولهم فيه مهارة غريبة

ومن هنا ركبنا القطار راجعا الى شستر وهي فيما بين بلاد
الغال وبلاد الانكليز ولكنها تعتبر من الثانية ومع ذلك فسأذكر
عليها الآن تفصيلا قليلا

مدينة شستر هذه المدينة قديمة أسسها الرومانيون على مصب نهر الذي
الذي يمر على لنجوثن وعدد سكانها ٣٦٧٩٤ نفسا ولا يزال
فيها كثير من بقايا الرومان وأبراجهم وأسوارهم التي هي كشوارع
معلقة في المدينة اعتاد الاهالي على التزهة والرياضة فيها و يبلغ
طولها ميلين ومن الامور التي انفردت بها ان برازيق الطريق
يكون عليها حوانيت وخلفها مماشي فيها دكاكين أخرى وفوق
الحوانيت الامامية يرتفع الدور الاول من المنازل فيكون الشارع
عليه من الجانبين صفان من المخازن وخلف كل منهما ممشى فسبح
مواز للشارع وعليه دكاكين أخرى وسقفه هو أرضية الطبقة
الاولى من المساكن وفيها كنائس عميقة بعضها مشيد بالطوب

الاحمر وفيها ميدان فسيح تتسابق فيه الخيول في بعض أيام السنة
وخلاصة القول أن لها منظرا انفردت به دون المدائن التي مررت
عليها ببلاد المشرق وأوروبا وقد اشتهرت بصناعة الجبن وان لم يكن
من طبيعتها أهلها فقد بيضوا صفحات تاريخهم بالزود عن
حياضها أيام كانت بلاد الانكليز منقسمة الى ممالك صغيرة
كثيرة في عراق مستديم وحروب مستمرة

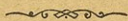
والى هنا أستوقف اليراع عن الافاضة في شرح ما عندي من
المعلقات والمفكرات فان ما ذكرته عن بلاد الغال قليل في جانب
ما استحصلت عليه من الفوائد والمعلومات ولكن القليل دليل
على الكثير



الرسالة الثالثة عشر

العودة الى لوندرة

* (وفيها ايماء بايجاز الى نهر التيمس وقناطره والانفاق التي تحت الارض والحدائق والكائس والقصور وبنك انجلترا ودار الضرب وبرج لوندرة ومحلات البر والاحسان ومؤنة المدينة ومينائها وتنويرها ومطافئها وشربها ومصارفها وضواحيها (رثمنند ببساتينها ووندسور بقصر الملكة ورياضها) ومعرض « مصر القديمة » في لوندرة والصناعة الشرقية العربية فيه واستنهاض الهمم اليها) *



رجعت من بلاد الغال الزاهرة التي هي في انجلترا بمنابة سويسرة بما يتجلى فيها من محاسن الطبيعة ونضرة الخيالات ونزلت ثانية بعاصمة الانكليز ورأيت فيها ما رأيت مما قصت بعضه في رساتي الاولى عليها وهي وان طالت بقدر ما طالت فليست في الحقيقة بالنسبة لهذه المدينة الا كالبعوضة بجانب الطود الشامخ ولا يطاوعني قلمي على الانتقال منها الى غيرها ولكنني لايتسنى لي بأى حال من الاحوال ان افيض في شرح الكلام على التيمس وقناطره الاربعة عشرة وأرصفته المنضودة المدودة على جانبيه أو الانفاق التي تمر تحت قاعه كأن

الآلاف المؤلفه من العربات المختلفة الانواع وقطارات البخار
والترامواى والزوارق التى تجرى على وجه النهر كعدد النمل كلها
غير وافية بحاجات أهل هذه المدينة للانتقال من شاطئ الى شاطئ
فقداهم ميلهم للاختصار وتوفير الزمن وتسهيل العمل الى احداث
هذه الاعمال الشاقة فان أحدها (ثيمس تونل) يبلغ طوله ٣٦٦
مترا وهو عبارة عن ممشين معقودتين متصلتين بيواكى واساطين
على مسافات متساوية ويمر تحت قاع الماء بعمق ستة أمتار وقد
بلغت نفقاته ١٥,٣٥٠,٠٠٠ فرنك وكان فى أول الامر
مخصصا لافراد الناس ينزلون اليه من سلم مظلم من ارتفاعه
١٩ مترا ولكنه لم يحز من الخلائق اقبالا مع كون أجرة المرور
كانت زهيدة جدا وهى بنس واحد (٤ مليمات) فاشترته شركة
خصوصية فى سنة ١٨٧٢ ومدت فيه خطوطا حديدية تجرى
عليها القطارات وتتصل بسكة حديد العاصمة وقد كان انشاؤه
فى سنة ١٨٢٥ وأما النفق الثانى فهو بجانب برج لوندرة واهمه
(نور سبوى) وهو عبارة عن قناة من حديد الزهر قطرهما متران
وطولها ٣٧٥ مترا ينزل اليه من سلين حلزونيين على ٩٦
درجة موضوعين على ككل من ضفتى النهر (واجرة المرور
نصف بنس أى مليمان) وكان البدء فيه فى شهر فبراير سنة

١٨٦٩ واتمامه في شهر ابريل سنة ١٨٧٠ ولم تزد نفقائه عن
٤٥٠,٠٠٠ فرنك

وأما الثالث فقد انشأته شركة السمكة الحديدية الكهربية

وقد احتفل البرنس دوغال بافتتاحه في ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٠

نعم انني خصصت هذه الرسالة لذكر بعض آثار لوندرة وعمارتها
وتحفتها وضواحيها ولكني لأجد متسعاً للقول على حدائقها
العشرة التي يضرب بها المثل في العالم كله ولاعلى بستان البنات
وما فيه من غرائب الحيوانات ولاعلى كمناسمها المهمة مثل
القديس بولس ودير وستمينستر والهيكل والكائس الانكليزية
والبيع المنسقة عنها والبيع الكاثوليكية والاجنبية فان عددها
في المدينة وارباضها يناهز الالف ونصف الالف لليهود فيها ٦٠
كنيسة الى غير ذلك من أما كن العبادة العديدة التي أقامتها
طوائف دينية لا يحصىها الا الله . وكيف يتسنى لي أو لغيري
تلخيص شيء جيز في مثل هذه العجالة عن قصور تلك المدينة مثل
دار الندوة (البرلمان) وقصر سان جيمس وقصر بوكينجهم والويت
هول (وقد كان فيه اعدام الملك تشارلس الاول) وقصر مارلبورو
وقصر كنسنتن وقصر لمبث (وهو مقر رئيس أساقفة الكنيسة
الانكليزية) وقد رأيت فيه مصحفاً بخط أحد سلاطين مصر

موضوعا في الكنيسة بجانب الانجيل وغير ذلك من قصور الملوك
والامراء أو المخصصة للنوادي والاجتماعات وبمثل ذلك أعترف بأنه
ليس في وسعي أن آتى بلع يسيرة عن الأماكن المدنية والمعائر
العمومية مثل جلد هول (الذي هو دار أمانة المدينة) وفي أحد
قاعاتها تماثيلان عظيمان من الخشب المجوف يمثلان بأجوج ومأجوج
وتسع هذه القاعة ٧ آلاف نفس وفيها مكتبة حرة فيها سبعون
ألف مجلد وفيها متحف للآثار والمخلفات الباقية من لوندرة القديمة
وقد عرضوا فيها امضاء شاعرهم شكسبير على عقد مبايعة اشتروه
للمتحف بمبلغ لا يقل عن ١٤٥ جنيتها وفي الدار تلك العربية التي
يركب عليها اللورد أمين المدينة في التاسع من شهر نوفمبر يوم
الاحتفال بتبتيته وتبلغ النفقات اللازمة لترميمها ٢٥٠ جنيتها
في كل سنة منذ انشائها في سنة ١٧٥٧ أو المنشئ هوس
(هو القصر الذي يسكن فيه اللورد أمين المدينة مدة سنة انتخابه)
أو البنك (ويرد اليه في كل يوم ٥٠ ألف ورقة قيمتها مليون جنيه
فيمزقون أحدا طرفها ويحفظونها مدة ١٠ سنوات ويصدرون غيرها
للتعامل وفيه مطابع كثيرة كل واحدة تخرج في اليوم الواحد ١٦
ألف ورقة مختلفة القيمة وقد بلغ عدد الورق الذي أرجع الى
البنك في يوم ٨ اكتوبر سنة ١٧٩٢ ٦٧٤١٧ وقيمتها ١٥٠٧٢٧٥

جنيتها ورأيت فيه ورقة قيمتها مليون جنيهه ولا ثمانية لها ورأيت
ورقة تداولتها الايدي مدة ١١١ سنة وبلغت أرباحها المركبة
٦٠٠٠ جنيهه وفيه ٤٩ مكتبا ويخفزه بالليل قره قول فيه ٣٤
عسكريا وضابط واحد وهو غير قابل للاحتراق وفيه سبائك كثيرة
من الذهب الابريز والفضة الخالصة وفيه آلة لوزن الجنيهات تلقى
بالجنيهات الصحيحة في مكان وبآلة تقصت بالمدولة والمعاملة في
مكان آخر وترن في الدقيقة الواحدة ٣٣ جنيتها وفي كل يوم من
٦٠ ألف الى ٧٠ ألف جنيهه وقد كان رأس مال البنك في
أول الامر ١٢٠٠٠٠٠٠ جنيهه وصار الآن ١٤٥٥٣٠٠٠٠ جنيهه
انكليزي وقد بلغ عدد الورق الذي صدره البنك في خمس سنوات
ثم عاد اليه ودفع قيمته ٧٧٧٤٥٠٠٠٠ ورقة بنك نوت تمسلا
١٣٤٠٠ علبه واذا وضعت هذه العلب بجانب بعضها بلغ طولها
مليون اثنين وثلاث ميل ولو وضعت هذه الاوراق فوق بعضها
لكان ارتفاعها خمسة أميال وثاني ميل ولو صفت الى جانب
بعضها طرفا لطرف لتكون منها شريط طوله ١٢٤٥٥ ولو حسبنا
مسطحها لوجدناه يساوي مسطح حديقة الهايد بارك (ومعلوم ان
سطحها ١٦٠ هيكتارا) وقد كانت قيمتها الاصلمية عبارة عن
١٧٥٠٦٢٦٦٠٠ جنيتها انكليزيا وثقلها ٩٠ طونولاطة وثلاث
طونولاطة

ولأذكر الآن شيئاً عن البورصة وأعمالها ودار البورصة
والتلغراف والكبرك ودار الضرب (ويبلغ عدد العملة التي
تصطنعها في الأربعة وعشرين ساعة ٥٠٠٠٠ جنيه إنكليزي)
وكيف يتسنى لي التلميح بكلمتين إلى برج لوندرة وما فيه من
الأسلحة الفاخرة والحلي المجوهرة أو المتحف البريطاني وقد طار
صيته في الآفاق بكثرة ما فيه من الذخائر والأعلاق وتنوع
النقائس واختلاف المخلفات مما يجعله في مقدمة متاحف الدنيا
حتى أن غرفة المطالعة فيه لا مثيل لها في العالم كله بل أن مجرد
المرور على ما فيه من المحفوظات يستغرق نحو الأسبوع بالتام
بل أن برنامجاته وفهارسه هي عبارة عن مجلدات ضخام ويصعب
بعده غيره من المتاحف الكثيرة المتنوعة ومعارض الصور والرسوم
والفنون والعلوم

وماذا عساني أقول الآن على نظام البلدية في هذه المدينة
الواسعة أو على ترتيب الشرطة الذين يزيد عددهم عن ١٤٩٠٠
رجل أو على محاكمها الكثيرة العدد المتنوعة الاختصاصات أو
على مدارس الحقوق الأربعة أو على محلات البر والاحسان
ودور النقاها والجمعيات الخيرية المخصصة لتربية أبناء الفقراء فإن
عددها يتجاوز الألف ومقدار المبالغ التي تنفقها بما فيها التبرعات

والهبات (والنقوطة التي تجتمع في الكنايس) تزيد عن سبعة ملايين
من الجنبيات والمستشفيات فيها على أنواع فمنها ماهو عمومي ومنها
ماهو مخصص لبعض الامراض مثل مداواة الطواعين والوقاية
منها وعلل الصدر والربو والرمم وادواء العين وغير ذلك من
الآفات والعماهات ومنها ماهو للمجاذيب (وعدهم في بعضها ٥٠٠
ولاغرابه) ومنها ماهو للاطفال أو للنساء أو للولادة هذا بصرف
النظر عن الاجزائات العديدة التي توزع الادوية احتسابا لوجه
الله وعدد الاسرة في هذه المستشفيات يزيد عن ٩٠٠٠ ويدخل
بها في السنة أكثر من ٨٠,٠٠٠ مريض وهي توزع الادوية
مجانا على أكثر من ١,٢٣٠,٠٠٠ نفس وفي بعضها مدارس
للطب والتشريح أو الاقرباذين أو غير ذلك من فروع الطب
وفها كمتجاننات معتبرة ومتاحف متنوعة ومعامل كيمياوية وغرف
للطبيعة ولسانين للنبات ومجاميع باولوجية وغير ذلك وفيها
مرابي للايتام قديزيد عددهم في بعضها عن ٤٦٠ وقد كان أحد
الماهرين في صناعة الموسيقى يجيء فيها ويقرر أرغنا في غاية
الاتقان أهده له (وهو فيسه الى الآن) وكانت الخلائق تنهافت
على هذا المكان من كل فج لسماع هذا المطرب الفريد وقد
تحصل من أجرة دخولهم مبلغ يزيد على ١٠٠٠٠ جنيه خصصه

للربي ومن فيه من الايتام ولم يأخذ منه بارة واحدة وفي لوندرة
فضلا عن ذلك كثير من الاماكن الخيرية وجمعيات البر ومساعدة
العمالة والسعي في نفع بني الانسان وفيها كثير من التكايا التي
يجبر المتكفون على الدخول فيها والاشتغال بما هم أهل له
وفوق ذلك ترى هناك كثيرا من المستشفيات المختلفة الانواع لاجل
الجنود البرية والبحرية الذين أصابتهم العاهات

وماذا أقول على المؤنة في مدينة يزيد عدد السكان فيها
عن الخمسة ملايين ونصف مليون وكاهم لا بد لهم من الطعام فيها
أربع مرات تقريبا في كل يوم حتى ان ماتستهلكه في العام
الواحد يبلغ هذه المقادير

ثور ٨٠٠,٠٠٠

رأس من الضأن والعجول والخنازير ٤٠٠,٠٠٠

(وقد أثبت علماء الاحصاء ان متوسط ما يستهلكه
النفر الواحد من سكانها في اليوم الواحد يزيد عن
١٤٠ جراما من اللحم)

من الطيور وحيوانات الصيد ٩,٠٠٠,٠٠٠

(أما الاسماك مثل سمك المرجان المعروف في كتب العرب
باسم طرستوج وعند اليونان طربقلا وعند عوام

الاندلس المول . ثم السلباج المعروف بالمارماهيح وبالنون
وبالانقليس وبشعبان البحر . ثم التين (واسمه كذلك في
كتب العربية) . ثم السردين واسمه عند العرب العرم .

ثم ومحصولات البحر من الحيوانات الرخوة مثل الجندفلي
والقرقله والاسترديا والمحار بأنواعه والسرطان الكبير وأبو
جلهبو وأبو تكي والبضالينس وبراعيث البحر وبلده
والحلزون والسرطان وقنفذ البحر المعروف عند أهل
الاسكندرية الآن باسم رتسا ويسمى عندهم أيضا قنشد
(ولاشك عندي ان هذه اللفظة محرفة عن كلمة قنفذ) وغير
ذلك من الاصناف العديدة التي لأعرف أسماءها فانها
تنهال على المدينة بمقادير هائلة لا يتصورها العقل يشهد
لذلك ان هناك آلاف وآلاف من الزوارق والقوارب لاحرفه
لها سوى نقل هذه الحيوانات الرخوة القوقعة والروبيان
هي المعروف عند الفرنسيات باسم هومار (Homard)
وقال ابن البيطار (ان المصريين يسمونه فرنس وان أهل
الاندلس كانوا يسمونه تقرون)

هيكولتر من اللبن ١٠٠٠٠٠٠٠

بيضة ٢٠٠٠٠٠٠٠٠

١٠,٠٠٠,٠٠٠	كيلوجرام من السمن والزبدة
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	كيلوجرام من الجبن
٤٥٠,٠٠٠	طونولاته من أصناف الخضروات المهمة ومنها نبات الحرف فقط (وهو المعروف عند العرب أيضا بالرشاد وعند الفرنسيين بالكرسون (Cresson) مامقداره من ثمانمائة الى تسعمائة طونولاته
٥٠٠٠٠	طونولاته من أنواع الفاكهة
	وغير ذلك وغير ذلك وغير ذلك

أما السوائل التي يستهلكونها فلا تقل عن ذلك بل هي أيضا بنسبة هذه المقادير الهائلة فانها تتجاوز ١٨٠ مليون لتر في الاربعة آلاف خبازة والسبعمائة ألف بيت خصوصي ويمكن تقدير المشروبات الروحية بثمانية عشر مليوناً من اللترات واذا قابلنا بين النبيذ وبين البيرة (البيرة) وجدناه شيئاً لا يذكريجانبها اذ لا يشربه الا الاواسط والاعنياء ومع ذلك فكمية استهلاكه في العام الواحد لا تقل عن ٣١ مليوناً من اللترات أما الفحم الحجري فيجب منه في كل عام كميات تزيد على ١١ مليون طونولاته وثلاثة ارباع المقادير الجسمة ترد عن طريق النهر والباقي في السكة الحديدية

وأهم أسواقها (وهو سوق سجينفلد) يشغل مسطحاً قدره ٣٧ ألف متر وفيها سوق آخر (اسمه سوق البهائم) قد يسع في آن واحد ٧٠٠٠ ثور و ٢٠٠٠ عجل و ٣٥٠٠٠ شاة و ٤٠٠٠ خنزير وقد يكون في بعض الايام مخصصاً لبيع الخيول وفيها سوق آخر للسمك والقواقع ليس الا وآخر للاطيار فقط وآخر للخضار والاشجار والازهار دون ما عداها وآخر للخيل وحدها الى غير ذلك مما يطول شرحه

أما التجارة والصناعة والمينا وأحواضها ومخازنها فهي عالم كبير مستقل بنفسه ولأعلم ماذا أقول عنها الآن بعد أن تحققت ان مينائها هي أهم موانى العالم وأكثرها محطاً للسفن فإذن ان متوسط ما يرد عليها سنوياً يبلغ ٧٠٠٠٠ سفينة مجموع حمولتها ١٢٠٠٠٠٠٠ طونولاً طه وقيمة ما فيها من البضائع والارزاق يزيد على مائة وعشرين مليوناً من الجنيهات الانكليزية أما الاحواض ومخازن التجارة فمن أهم مناظر لوندرة وأبدعها تجعل للمناظر (خصوصاً اذا وقف على قنطرة لوندرة - لندن بريدج -) فكرة في أهمية العاصمة الانكليزية وجسامتها واتساع نطاقها بما فيها من المراكب المتراكمة والبضائع المتراكمة والخلائق المتزاحة ولا يسمع لى المقام بتفصيل قليل عن حركتها الهائلة

وفي المدينة ثلاث شركات متمهدة بإضاءتها بالغاز وقد قدره أهل المعرفة بمبلغ ٥٦٠ مليوناً من الامتار المربعة وتستهلك للحصول عليه مليوني طونولاطه من الفحم الحجري وغاز الاستصباح هذا يجرى في قنوات مجموع طولها ٤ مليون كيلومتر وتزيد النفقات السنوية عن ٣٦٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه مع ان المبالغ اللازمة لسقي المدينة بالمياه لاتصل الى نصف هذا المبلغ الجسيم وهناك شركات كثيرة تألفت للاضاءة بالنور الكهربائي وكان قبل هذه السنة قاصراً على منازل الافراد ومحازتهم ولكنه في أول هذا العام صار استخدامه في بعض الشوارع المهمة والميادين الاصلية ويجري في الكلام على النور الى الحديث على النار فقد كان رجال المطافئ قبل سنة ١٨٣٣ تحت ادارة شركات خصوصية تجارية أو تابعين لبعض فروع الادارة البلدية وكانت نتيجة هذا الافتراق وقوع أضرار بالغة لانهم في أغلب الاحيان كانوا يتكفون النار تفعل أفاعيلها وتلتهم المنازل التي لم تكن مؤمنة عندهم أو تابعة لهم ولكن هذه الشركات اجتمعت كلها في تلك السنة واتحدت وامتزجت ببعضها فألفت شركة عمومية واحدة لمقاومة الحرائق واعلم ان اعمالها مهارة لا يناظرهم فيها أحد في الكون الاماعلمته عن رجال المطافئ في أمريكا ويستخدمون في مصالحهم

١٨ سلكا تلغرافيا و ٧٥ سلكا تلفونيا يجمع بينها وبين بعضها
٥٥ مكتبا اداريا فاذا شئت النار في بعض المواضع تيسر لهم أن
يستحضروا من الآلات والاجهزة كل ما يلزم في بضعة دقائق
وتتصل مراكز رجال المطافئ بدواوين النظارات والمصالح العمومية
والمتاحف والمعارض وغير ذلك من المباني الاميرية بواسطة ٣٨٥
مزولة استغاثة وعدد رجال المطافئ ٧٠٠ ولهم زى مخصوص
معروف وعندهم ٤٧ طلمبة بخارية و ٩ طلمبات بخارية عوامة
و ٢٢٤ سلم للاستئقاذ من مخالب الحريق وغير ذلك من الاجهزة
الكثيرة المتفرقة في كافة أنحاء المدينة وقد أطفئوا في سنة ١٨٩٠
حرائق باغ عددها ٢٥٥٥ منها ١٥٣ ذات أهمية عظيمة ومات
في هذه الحرائق ٤٤ شخصا

وبعد الكلام على الناريين بالطبع الكلام على الماء
فاعلم ان المياه اللازمة للشرب في لوندرة ليست من نهر التيمس
بل قد تأسست شركات عديدة جلبها من غدران ونهيرات أخرى
في قنوات هائلة مرفوعة على عمدان عظيمة وقباب جسمية (مثل
الدواميس المعروفة بالعميون التي كانت تستقي بها قلعة الجبل
في الزمان السابق ولا تزال آثارها باقية الى الآن) ثم تنصب المياه
في أحواض واسعة ثم ترشح من قاعها بمرورها على أحجار هشة

تعلوها طبقات من الرمل الغليظ والحصى الدقيق وتبلغ كمية المياه الواردة الى المدينة في كل يوم بالتعديل المتوسط ٦٧١,٠٠٠,٠٠٠ لترا منها ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ يستعملها الاهالى في قضاء حوائجهم ولوازم منازلهم فيكون متوسط ما يستهلكه النفر الواحد من سكان لوندرة ١١٧ لترا من الماء في كل يوم

وأستطرد بهذه المناسبة الى الاشارة الى مصارف لوندرة وبالواعتها فقد كانت كلها تتصب في أول الامر في نهر التيمس حتى جعلته مقرا للاقذار ومنبعا للجراثيم القتالة وأصلا في تسميم الهواء وسببا في ازدياد الامراض واتلاف صحة السكان وقتك الموت بهم فتكاذريعا فان متوسط المواد العفوية التي كانت تنساق اليه في كل يوم يبلغ ٤٠٠,٠٠٠ متر مكعب وفي سنة ١٨٥٥ اجتهت مجلس شورى العاصمة (البلدية) بدفع هذه المضار ودرس مشروعا للمصارف يصرف عن المدينة هذه المخاوف ويلقى بهذه القاذورات الى ماتحت لوندرة بستة وعشرين ميلا في النهر الى البحر بواسطة طلمبات بخارية قوتها ١٠٠٠ حصان بخارى ولكن هذه العملية لا تحصل الا في وقت الجزر أى عند نزول مياه النهر في البحر فيأخذ التيسار هذه القاذورات وهذه العفونات بعيدا عن المدينة ويذهب بأضرارها ادراج الرياح وتبلغ كمية المواد البرازية الملقاة بهذه الكيفية في النهر ٣٢٣٧٣٤ مترا مكعبا في كل يوم

وايس هذا كله شياً في جانب ما يمكن أن يقال على لوندرة
لكن لا بد من الانتقال الى ذكر طرف وجيز على بعض ضواحيها
مثل رشمند فانها مدينة صغيرة تختمال في حلال الجمال واقعة على
الضفة اليمنى لنهر التيمس وعلى منحد رلال بهيجة فيها غابات
ومنازل خلوية تبتهج العين برؤيتها وفيها قنطرة بديعة وآثار قصر
قديم وهي مشهورة بصناعة فطير يجبن يسمونه (بنات الشرف) لان
وصائف مليكة الانكليز هن اللاتي اخترعنه وأشهر مافي هذه
المدينة هو روضها الاريض الكائن على هضبة فسيحة وفي وسطه
برك كثيرة تبدو منها للناظر مشاهد تروق النواظر ويخرج القوم
الى هذا الروض للرياضة في فصل الصيف واستنشاق النسيم
الصحيح العليل وخالصة القول ان وجودها على مقربة من لوندرة
نعمة كبرى للنازلين بها والمقيمين فيها بل برهان جديد على ان
الانكليز ينتقلون من الطرف الى الطرف ولا يعرفون الوسط

وأما وندسور فهي مدينة تبعد عن لوندرة ٢٢ ميلا تقريبا
وعدد سكانها ١٢٢٧٨ وأهم ما فيها هو قصر الملكة المعروف
باسمها وهو عبارة عن قلعة حصينة ولا يشبهه قصور الملوك الا بما
حواه من بعض الزخرفة والرسوم ولكنه في نظري لا يضاهي أقل
قصر من القصور الملوكية التي شاهدها بايطاليا بل إن أهم

مدخنة للاصـطلاع فيه هي أقل من أقل مدخنة في قصور الجزيرة
والجزيرة ونحوهما مع عدم لزومها في بلادنا وشدة احتياجهم لها
في إنجلترا وقد زرت الاصـطبيلات والعربخانات الملوكية ولكني
أستغرب كيف ان نفقاتها بلغت ٧٠٠٠٠ جنيه انكليزي نعم
انهم لم يطلعونا على عربات التشريفة الخاصة بالملكة ولكن
عربات معيتها وحاشيتها يمكنني أن أقول انها أقل من نظائرها في
المعية السنية وكذلك الخيول فانها وان كانت من الاصائل البالغة
في انقوة والجمال ولكني (وان لم أكن من أهل هذا الفن) أقدر
أن أقول انها أقل من الجياد الاصائل التي عند سعادة علي باشا
شريف وأما بقاء الاصـطبيلات نفسه فأقول ولا أخشى تكديبا
انه أقل زخرفة واتقاناً من الاصـطبل الجميل الجليل الذي ابتناه
حضرة عزت بك القاضي بالحكمة المختلطة في سرايه التي بجانب
السراي المنيرة وان كان هذا صغيرا جدا في جانب جسامته تلك
أما الحدائق التي في القصر وحواليه فهي من أبهى ما يراه
الانسان وأجمل منها تلك الغابة البعيدة عن مدينة وندسور قليلا
المعروفة باسم (فرجينيا ووتر) والذي يزيد في بهجتها انها كانت
في أول الامر عبارة عن مستنقعات تبعث بالعفونة الى الهواء
وبجراثيم الامراض الى ما حوالها من الجهات فحولوها ونظـموها

ودبروا تصريف الماء منها واليها حتى أصبحت جنة تسر الناظرين
وسيجان من غير ولا يتغير تبارك الله رب العالمين
وقبل أن أختم هذه الرسالة أرى من الواجب على ذكر
معرض أقامه بعض الافراد في مدينة لوندرة وسماه (نياجارا هول)
ولكنه يفرج الزائرين فيه الآن على مدينة منف عاصمة الفراعنة
أيام مجدها وعظمتها ولا أقدر أن أوفى صانع الرسم حقه من
المدح على تصوير القصور والاشجار والاصنام والمعابد والنيل
والاهرام وأبي الهول والاسرائيليين حين خروجهم من مصر وغير
ذلك فانه أبدع كل الابداع حتى ان الرائي يتخيلها مجسمة للعيان
بعيدة عن بعضها كافي الطبيعة بأحسن شكل وأكل اسلوب وكل
ذلك على قطعة كبيرة من القماش تحيط بالمكان الذي يقف فيه
المتفرج مجبأ به هذه الدقة في العمل وهذا التناهي في الاتقان
وسأشرح الكلام عليها في الرحلة ان شاء الله فقد رحب بي صاحب
المكان ترحيبا خصوصيا لكوني من المصريين ولكونه من اعضاء
المؤتمر وأتحفني بجميع الاستعلامات اللازمة وأطلعني على جميع
التفاصيل التي لا يطاع عليها الجمهور بما استوجب جزيل شكراني
وجليل امتناني وأغرب ما رأيته في ملحقات هذا المكان رجل من
اخواتنا أبناء الشرق واسمه المعلم الياس ليان - حلة قد برع في أعمال

النقش على الخشب بالطرق الشرقية القديمة التي كادت تندثر في هذا
الزمان وقد رأيت له من الاعمال ما أدهشني اتقانها ونظامها وتناسقها
مما جعل أهل الفن من الاور وباو بين الذين يقدمون الى هذا المكان
يعترفون له بالبراعة والافتدار وقال لي انه يعدّ جميع هذه المصنوعات
لمعرض أميركا القادم تشريفا للشرق وبنية ورأيت فيه من
العواطف القومية والاحساسات الوطنية ما زادني إعجابي به وفوق
ذلك فهو خبير بلعب السيف والنقر على آلات الطرب وقد تأثرت
حينما رأيته محافظا على محبة ملته ودولته وعادات أهله وبلدته
ووددت لو أن أهل الشرق يلتفتون لصنائعهم ويشجعون القائمين
بها لكيلا تزول وتصبح أثرا بعد عين خصوصا لما رأيت أمم الغرب
يتفاخرون بصناعاتهم الخاصة بهم وبراعتهم فيها على من عداهم
وحكوماتهم تساعدهم على الارتقاء والتفنن فيها حتى يفوقوا
أمثالهم فتكتسب بذلك أوطانهم حسا ومعنى مكاسب لا تقدر
ووددت أيضا لو كانت ظروف الاحوال تساعدني على مساعـدة
هذا الرجل وأمثاله من أهل بلادنا حتى يكون لها بهم وبأمثالهم
شأن رفيع في سوق الحضارة ومعرض العمران الذي سيقوم في
شيكا جو وعسى أن يكون لهذا النداء صدى في الاوطان لما وراءه
من المنافع التي لا تنكر والله يهدي من كان له قلب أو ألقى السمع
وهو شهيد

الرسالة الرابعة عشرة

السفر من إنجلترا الى فرنسا
عن طريق دوفر وكالة
وذكر اميان

مبارحة لوندرة لقد احترت والله حينما اخترت الانتقال من الكلام على لوندرة بعد الاطالة في الكتابة عليها والتوسع في القول عنها بمقدار ما وصلت اليه يدي في الرسالتين الخاصتين بها فاني لا ازال اجد للشرح مجالا يستغرق رسائل ضافية الذبول بل مجلدات تملأ المكاتب وتسخن الازهان بالغرائب وتذكر من يتذكر بما يمكن الانسان أن يصل اليه بالاجتهاد بمفرده أو مع استعانته بابناء جنسه وتجلو على ابصار أولى البصائر بعض ما أودعته القدرة الالهية في العوالم الطبيعية من القوى التي يتوصل العقل لاستكناه خباياها واستكشاف أسرارها ولكني أرى بالرغم عنى وجوب الانتقال من هذا الموضوع مع ما أتيت به فيه من التقصير مضافا الى ما في ذهني من القصور

التعصب
المطلق
والتساهل
المطلق
على أنى لأرى لى مندوحة في إغفال حادثة خطيرة وقعت بالمدينة قبيل مبارحتي لها فلا بد لي من ذكرها في هذا المقام ولولتأييد ما قلته عن هذه الامة من ميلها للاطراف وغرامها بالتماقض في كل الاحوال الادبية بل والمادية فقد سبق لي اثناء الكلام على دياناتهم

انهم يحترمون جميع المذاهب والعقائد ولكنهم يبغضون المذهب الكاثوليكي بغضا ليس له أول يعرف ولا آخر يوصف وانهم يكرهون البابا كراهة التحريم فاسمع الآن ما حصل اثناء انتخاب اللورد امين المدينة اجتمع رؤساء الطوائف وأكابر التجار لانتخاب شيخ لهم فكان المختار هو المستر ستوارت كيمل فقام البروتستانت واعترضوا وصخبوا وبلجوا بالسخط وهاجوا وماجوا وكتبوا استرحامات كثيرة وقع عليها الالوف والالوف من أهالي لوندرة يسألون فيها الملكة ان لا توافق على هذا التعيين وتصدر أمرها باعادة الانتخاب فانهقدت جمعية لفصل الخلاف فقال قائل منهم مانالت لندرة حريتها وما تمتعت بامتيازاتها الا بعد ان أهرق البروتستانت دماءهم في هذا السبيل فن العار على العاصمة أن يكون شيخ مشائخها منتميا الى الكرسي البابوي وعضده في هذا الرأي كثيرون من المجتمعين ولكن المعتدلين فازوا بالغلبة بعد أن طالت المشاطات وتعارضت المشاحنات فانهم قالوا قد امتازت المجلثة بحب الحرية في العمل وان لوندرة مدينة الحرية الدينية وهذه المشاجرات لا تليق بامثالهم فقد سبق أن كان شيخ مشائخ لوندرة اسراييليا فكيف يجوز ذلك ولا يصح في شرع المنصفين أن يكون كاثوليكيا فالزمتهم الحجة وتقررت الرئاسة للرجل ثم اذا نظرنا الى

المختار نفسه نراه أشد تعصبا من خصومه فقد قرر أنه لا يعترف
الإبالبابا ثم بالملكية وهي كلمة لم يجسر على التفوه بها من قبله
انسان ولذلك رفض الحضور الى كثير من الاجتماعات الدينية
جرت العادة بان يحضرها اللورد امين المدينة منذ القديم وقد أبى
أن يذهب بموجب وظيفته الرسمية الى الكنيسة الفلانية والمعبد
الفلاني وقد أصرف في عدم الذهاب بنفسه وفي ارسال مندوب من
قبله فانه اشتراط عليهم ان لا يكون له معاون ينوب عنه في هذه
الامور الرسمية فهلا ترى من أعرب الغرائب شدة تمسك أولئك
وعدم تنازل هذا الى هذه الدرجة حتى كان كل من الفريقين
على طرفي نقيض بحيث يكاد الانسان يثبت الحق للبروتستانت
في اعتراضهم على نصب شيخ يأبى ان يسايرهم الى هذا الحد في
شعائرهم الدينية ولو حرمة للعادات القديمة والاصول المرعية

ولما كنت في باريس وافتنى الجرائد في ١٠ نوفمبر منبهة بأنه
في اليوم الماضي قد تم الاحتفال بتثبيت اللورد امين المدينة في
هذه السنة وكون الرجل من الكاثوليكين وهذه أول مرة
انتخب فيها كاثوليكي للقيام بهذه الوظيفة المهمة عقيب الانشقاق
الذي جعل للذهب البروتستانتى السيطرة في إنجلترا كان للاحتفال
أهمية خصوصية وقد بلغت اكلافه ٢٥٠٠٠ فرنك وهذا

نقشات
أمين مدينة
لوندرة

الرجل (ستوارت كيل) من الثروة والغنى والعلم بمكان ولكنه مهتما كان
يراده لا يمكنه أن يقوم بالمصاريف الباهظة التي يستوجبها مركزه إذالم
تساعده لجان الطوائف الحرفية والصناعية في لوندرة والدليل على ذلك أن
سلفه في السنة الماضية صرف ٣.٠٠٠ فرنك في أمور متنوعة وقد
بلغت ولائم الغداء والعشاء التي أقامها احتفالا باللجان الرئيسية
لمدينة لوندرة ١٠٠.٠٠٠ فرنك وبلغت نفقات الوليمة التي أعدها
أحياء لعيد الملكة ٣٧٥.٠٠٠ فرنك وأما المأدبة التي أقامها ابتهاجا
بنجاة البرنس دوغال من المرض فقد بلغت مبلغا يفوق حساب
الجاسبين فانها أوجبت عليه صرف ٦٧٥.٠٠٠ فرنك مع ان
مرتب الوظيفة في السنة هو ١٠.٠٠٠ جنيه انكليزي ليس الا

هذا وقد دقت من لوندرة في مساء ١١ أكتوبر
وركبت القطار بالليل كما جرت عادتي للاستكثار من الوقت
وعدم ضياع الفرص هباء منشورا فوصلت مدينة دوفر في
منتصف الليل وكان في امكاني ركوب متن البخار والتوجه لولا
الى فرنسا ولكنني آثرت رؤية دوفر وتمضية نصف نهار بها كي
أودع فيها إنجلترا بعد أن أشاهد ما خلفه الرومان في هذه المدينة
الساحلية من الآثار وما أحدثه الانكليز من موجبات التحصين
والدفاع فعولت على النزول بها وما افتقرت لغير الصباح حتى تجولت

في المدينة وطففت انحاءها مع دليل من أهلها واليهك ماوقفت
عليه فيها بالاجمال

عمويات
على دوفر

هذه المدينة لايزيد عدد سكانها عن ٣٠٢٧٠ من النفوس
وهي ذات موقع مجيب في نهايته واد رائق وتعلوها أبحراف عالية
من الصخور تحيط بها من كل الجهات وكان أول شيء عنيت به بعد
التجوال في طرفاتها وميادينها اني صعدت على جبل عال فوقه
قلعة حصينة ترتفع عن مستوى سطح البحر ثلاثة وتسعين مترا
ورأيت فيها كثيرا من المباني القديمة الرومانية ممتزجة بصروح
أقامها الانكليز لتكامل وسائل الدفاع في هذه النقطة الحربية
المهمة وأقدم جزء في هذه القلعة الممتدة بغير انتظام على مسافة
١٤ هيكتارا هو البرج الروماني وارتفاعه ١٢ مترا وشكله ثماني
من الخارج مربع من الداخل وليس فيه سلام تسمح بالصعود
الى قمته وقد وضعوا فيه ناقوس الكنيسة العسكرية التي الى
شرقيه وربما كان الرومان يستخدمونه في ارسال النور الى
المراكب القادمة بالليل وفي المخابرة معها برايات الاشارات حينما
يكون قدومها بالهارأما الكنيسة فان أسامها يدل على انها من
صنع السكسونيين (قدماء الانجليز) وهي من أقدم العمار

الدينية التي في بلاد انجلترا وأما المباني النورماندية فهي كثيرة جدا وأهمها صرح يرى على مسافة بعيدة في البحر وقد كانت الشمس طالعة فتميسر لي رؤية شطوط فرنسا بإرشاد الدليل قبل منتهى الأفق بقليل وقد توجهت الى قسلاق هناك ورأيت العساكر في حالة التعلم والتمرن على الحركات ولم أستفكف من زيارة المطبخ بل اني عجبت بنظافته واتقانه وجوده الماء كولات المخصصة للعساكر الانفار مما يرغبهم أو يحسددهم عليه آلاف وآلاف من أهل انجلترا الذين يموتون جوعا ثم زرت خزانة السلاح وما فيها من الخلفات الحربية والغنائم التي أخذها الانجليز من أعدائهم في ساحات الوغى البرية والبحرية ورأيت فيما بين المدافع الكبيرة مدفعا طويلا أرسلته احدى ملكات هولاندة (الفلمنك) هدية لانكلترا وعليه أشعار منظومة على لسان حاله بمعنى انه يرسل القل إلى الاعداء فيردهم على أعقابهم خاسرين ويبعث بمقدوفاته إلى القلاع والحصون فيتلقيها عن آخرها ثم نزلت من طوابي هذه الروابي إلى أهم ميدان في المدينة فرأيت موسيقى تصدح في ضحى النهار وعلمت أن مجلس البلدية هو القائم بنفقاتها لايجاد الطرب والانشراح في المدينة على الدوام

و لكنني لم يسمح لي وقتي بتشريف آذاني الشرقية بمنعاتها
الغربية لان القطار حضر من لوندرة وفيه جماعة المسافرين الى
قارة أوروبا فلحقت بهم وانبعث خطواتهم حتى وصلنا السفينة
وتبوأ القوم مقعدهم منها وأخذت أطوف جوانبها وأعلو ظهرها
لرؤية المناظر وتعهدها ماحولى من المعاهد وما هو الان أبحرت
(أو أبحرت) حتى رأيت أغلب الحاضرين قد انقسموا قسمين
بقي بعضهم فى مؤخرها وذهب الآخرون الى مقدمها وكان
الفريق الاول يطيل النظر الى المدينة وأطرافها وإبراجها والفريق
الثانى يحدد النظر والنظارات الى الامام والى أقاصى الأفق
وبقيت أطوف ذات اليمين وذات اليسار وأدفع بخطواتى الى الامام
ثم أكر راجعا الى الخلف الى أن أدركت بعد سماع تلاغى
الفريقين ان أهل الخلف من أبناء الجزيرة يحبون بلادهم
ويتزودون منها بنظرة أخيرة وان أهل الامام اشتد بهم الهيام
للتجميعيل برؤية بقاعهم ولكن الضباب يصعبه السحاب انتشر
بأقرب من لمح البصر فكان يحول دون ادراكهم الوطر غير
انه لم يثن عزيمتهم عن التكرار فى اطالة الانتظار وانشاد
الاعانى والاشعار والتبخ اقرب الوصول من الديار واستمر الطرفان
على هذا الشأن حتى انتصف الطريق فتبدت صحور فرنسا

حال المفارق
وطنه والقادم
عليه ومن
لا يزال بعيدا
عنه

وشطوطها كأنها أشباح تتظاهر في ظلال الخيال وحينئذ أخذ
الانكليز يقتربون من أواخر السفينة بقدر ما أمكنهم مستعينين
بآلات التقريب كأنهم يسألون تلك الجزيرة بل الام الحنونة
ان تبقى محافظة عليهم مراعية لهم في غربتهم ناشرة لواء حمايتها
عليهم أينما حلوا وأينما ساروا وأما أنا فكنت في هذه الحال
أرسل اشعة القلب وانظار القواد الى ديار الفتها وربوع نبت بها
واقوام ترعرعت بينهم قد شبوا على المكرمات واستقوا من نيل
الكالات فحييتهم على البعادية ممزوجة بخالص الوداد والاخلاص
وكلفت التوسيم بالتسليم على خير أمة أخرجت للناس

ولما اقتربنا من شطوط فرانسأ رأيت في الافق شيئاً يشبه
الاجبال والاسلاك قد وصلت بين الارض والسماء وبعد تحقيق
النظر علمت انه المطر فبقيت أتأمل فيه وأسبح مرسله ومنشيه
حتى ألفت السفينة مرساعا وقد كان باسم الله مجراها ومرساها
فان البحر كان برا بنا ولم يمسننا بأذى والمجد لله

ولما نزلت بكاله فضلت التعريج على أمان على التوجه الى دخول فرانسأ
باريس لكي أزور كنيسها الجامعة التي طارصيتها في الآفاق
فأمضيت الليلة بها ولما جاءت كتائب النور برزت في طليعتها

وظفت المدينة ومتاحفها ومكاتبها وآثارها مما لا أجد مندوحة
عن الإشارة اليه بالإيجاز في هذه الرسالة كما سيأتى

عموميات على
أسيان
تعيين الوقت الذى ظهرت فيه ولا معرفة الذين وضعوا قواعدها

ورفعوا معالمها ولها فى تاريخ فرانسا الحربى نخر أثيل وذ كرجيل
وقد توجه أهلها فى الزمان العتيق لمحاربة انطيوخوس ملك الشام

ورجعوا حاملين ألوية التمرد مما اكتسبوه فى آسيا من العرفان
وعدد سكانها الآن ٨٣٦٤٩ نفسا وفيها جمعية للفنون الادبية

وبستان للتجارب ومدرسة زراعية عمالية وفيها ادارة تلتقط الاطفال
والايتام والمعتوهين الفقراء وتقوم بلوازمهم وفيها برج قديم مظلم

اسمه بقروا قد التهمته النيران فى كثير من الاحيان وهو حبس
لبلدية وفيه ربيثة يقيم به على الدوام للانذار بما يقع فى المدينة

من الحرائق فاذا رأى آثار النار فى احدى الدياردق جرسا زنته
١١٠٠٠ كيلوجرام فيبادر رجال المطافئ لاختاد أنفاسها وتلقى

اتلافها وهم يستخدمون هذا الجرس أيضا فى المواسم والاحتفالات
وفيه ساعة كبيرة جدا لتعيين الوقت بصفة رسمية وقد صعدت الى

قته ولكن ظلمته الداخلية أحدثت فى انزعاجا لا يمكن أن أضفه
الآن مع ان شكله من الخارج أنيق ومنظر المدينة من أعلاهم

رشيق فله هذا البرج قد جمع بين الانذار بالشرور والتبشير
بالسرور وجوفه مستودع للظلام وجسمه محفوف بالنور وأما
المكتبة العمومية المعروفة بمكتبة الخط (بضم الخاء) فان أهميتها
تزيد عن حاجات المدينة اذ فيها ٥٠٠ كتاب بخط اليد وأكثر
من ٨٠٠٠٠ مجلد مطبوع ومما يستحق الذكر فيها ان أرملة
الكونت روليسكا كير (وهو من أبناء المدينة) تبرعت للمكتبة
بجميع الكتب التي خلفها زوجها (وقدرها ١٥٠٠٠ مجلد)
مع ما يتبعها من الدوايب والادراج والتحف القديمة والصور
الثمينة وأغلبها له علاقة بالرموز النصرانية والخلفات الدينية
العتيقة والقسم المهم من هذه الكتب هو عبارة عن مجموعة
للسياحات في الارض المقدسة وفي الكتبخانة تماثيل كثيرة لأهم
رجال المدينة الذين خدموها وأخص بالذكر منهم تمثال الموسيو
بوفيللي وسأتكلم عليه بعد قليل وقد رأيت في الحديقة العمومية
بهذه المدينة جذع شجرة نخرة عليها بعض أغصان نضرة وفيها
تجاويف كما يشاهد في الاشجار العتيقة التي نزل بها البلي وما زالت
فيها قوة الحياة ولكن هذا الجذع وهذه الاغصان ليست الامن
الصاح والاسمنت اصطنعها بعض المتقنين بناء على اختبار جعلت
له المدينة مكافأة عينتها وقد رأيت في دار بعض الافراد تماثلاً

نخيمًا من المرمر الناصع يمثل وجهاء المدينة وعظماؤها الذين
فأقوا غيرهم في فنون الرسم والعمارة والتصوير اصططنعه ذلك
الرجل على نفقته بقصد وضعه في الميدان العام ولكن المجلس
البلدى رأى من المحذورات ما يمنعه عن قبول هذه الهدية النفيسة
فوضعها الرجل في داره بحيث يراها المارة

وقد رأيت فيها ملعبًا للخيول والحيوانات المستأنسة (سيرك)
وكاه مبني بالآجر ولكنّه مكسوة بطبقات من الاسمنت بحيث تمثل
للناظر انه مشيد كاه بأحجار النحت والدرستور والرخام وهو من
الاهمية بمكان عظيم ينطق بما للمهندسيه من المهارة والجرأة
والاقدام فانهم نظموه بحيث يمكن بسهولة وقتية تحويله الى قاعة
فسحة مثل القاعات التي في قهاوى الملاهى والمغاني وتسع ٣٥٠٠
متفرج وأما زخرفة الجدران فحدث عنها ولا حرج وأما تراكيب
الحديد المستند عليها السقف من غير ارتكاز على الارض في قاعة
بهذا الاتساع فانها تدهش الناظر بل تخيفه وتلزمه الاقرار بابداع
الصانع وهى مرتبة بحيث يمكن للجههه والجمهور الخروج منها في برهة
قصيرة اذا وقع اضطراب أو حدث طارئ وهى تضاء بالليل بالنور
الكهربائى ترسله اليها آلات موضوعة تحت الارض في غاية
النظام والاحكام

ودخلت في ملعب آخر أقامه بعض الافراد لعرض الحيوانات المفترسة وتسخيرها في الالعب امام الجمهور وانما أردت بهذه الاشارة تنبيه الاذهان الى صاحب هذا الملعب فاني سأشرح الكلام عليه في الرحلة وأبين ماناله بالجد من المجد حتى صار شياً مذكورا زنال الرعاية من الملوك والامراء بعد ان كان فقيرا معدما ويتيمام هملا وقد استخدمت السكة الحديدية بعض الخنادق التي كانت حول المدينة لمسير قسم من طريق القطارات فيها والبعض الآخر انظموه سككا ودروبات سلطانية كما في باريس وأغلب مدائن فرنسا

وتدور تجارة المدينة وصناعاتها على الاقشنة من جميع تجارة أميان وصناعاتها الاشكال والانواع والقطيفة الخاصة باللباس وبالاتاث وغير ذلك وفيها مغازل للكتان يشتغل فيها نحو ٣٠٠٠ من العمال وأما مغازل الصوف فيشتغل فيها ١٢٠٠ عامل وفيها غير ذلك من أنواع التجارة وأصناف الصناعة مما لا حاجة لذكره

وفيها أما كن لتعليم الالمانية والانكليزية للرجال والنساء بجانبنا التعليم باميان في ساعات معينة وأيضاً لتعليم الميكانيكا التطبيقية ورسم صور الآلات وقانون التجارة وفن التشريع الصناعي وفن امسالك الدفاتر في الصنائع والجغرافيا الصناعية والنسيج بالنظريات والنسيج العملي

وتطبيق الكيمياء على الصباغة وفن الصباغة ومعالجة الاصباغ
والموسيقى وفن تفصيل القطيفة وغير ذلك مثل الرسم الابتدائي
والتصوير بالجبس ونقش الاجار والرسم التقليدي والتشريح وتاريخ
الفنون والرسم العملي والرياضيات وفن الرسم (لأجل البنات) الخ
وليس على الطالب الآن يشعر كاتب أسرار أمين المدينة لنوال تذكرة
يكون دخوله بمقتضاها في الاوقات المعينة - وفي المدينة مدارس
منتظمة للعلمين والمدرسين (بدرجاتها الثلاث) وللفنون الصناعية
والحرفية وفيها ١٦ مدرسة ابتدائية للصبيان و ١٧ للبنات
و ١١ مدرسة للإمهات ومدرسة لتعليم الصنائع الخاصة بالحديد
والاخشاب وأخرى للطب والصيدلية وأخرى للموسيقى وأخرى
للفنون المنزلية الخ

عموميات على
أميان
وفي اميان كثير من التكايا المخصصة للطاعنين في السن
من الذكور والاناث والايتام والاطفال الذين يتركهم أهلهم بعد
الولادة وللصابين بالادواء العقيمة العضالة وللمعدين من الجنسين
وكفيعي البصر أو المصابين بأمراض في عيونهم وغير ذلك
وفيها بستان للنبات يحتوي على قاعات للتاريخ الطبيعي
وعنابر لتربية نباتات البلاد الحارة وتعطى فيه دروس عمومية في
علم النبات

وفي المدينة ٥ جرائد يومية و ٧ أسبوعية منها واحدة
نصف أسبوعية وواحدة دينية وواحدة زراعية وفيها غير ذلك
من المنشورات الدورية شئ كثير وفيها ثلاث متاحف أحدها
عام للفنون والصنائع والثاني خاص بالطيار والثالث للتاريخ
الطبيعي وسأتكلم عليها في الرحلة ان شاء الله

وفي المدينة خمسون قنطرة تصل أطرافها ببعضها لان نهر
السوم يشقها من أولها لاآخرها وأهمها سبعة

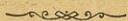
ومن أهم ما ينبغي ذكره ورؤيته في هذه المدينة دار تكية المجاذيب
والمعيمان
بمبلغ ٥٠٠٠٠٠ فرنك لتشييد المستشفى وبمئله لانشاء تكية
للمعيمان يكون فيها أقسام للمتزوجين وأخرى للعزاب والارامل من
الجنسين ومدرسة للبنات وأخرى للصبيان وقد زرت تكية المعيمان
بنوع خصوصي لانتشار الرمد في بلادنا وتفقدت كل ما فيها من
الترتيب والنظام بارشاد حضرة ناظرها فانهش للقائ ورحب بي
وقدم لي كل ما طلبته منه من البيانات ولكن لايسمح لي المقام
بسردها الآن فادخرها الى ما بعد وأتكلم على الكنيسة الجامعة
وبها تكون خاتمة رسالتي هذه

الكنيسة
الجامعة لأميان

أول من أدخل الديانة النصرانية الى هذه المدينة رجل
اسمه القديس فيرمان في سنة ٣٠١ ثم حكم عليه بضرب عنقه
في سنة ٣٠٣ في قصر قديم من بناء الرومان وبعد ذلك دفنت
جثته خارج المدينة وهو أول أساقفة أميان ثم توالى الايام
وتناسى الناس خبر ذلك الذي جاء مبشرا بالانجيل حتى ظهرت
كرامات على ما يرويه القوم وتتناقله الافواه فاستدل بها الاسقف
التاسع واسمه القديس سوق على قبر القديس فيرمان ولذلك تبرع
أهل أميان والمدن المجاورة لها بهدايا كثيرة وتحف نفيسة لبناء
كنيسة جامعة من الخشب داخل المدينة باسم القديس فيرمان
بجاء النورمانديون (ويعرفون عند عرب الاندلس باسم الجوس)
في سنة ٨٨١ وأحرقوها فأعادها أهلها ثم التهمت النيران واستمر
الامر على هذا الحال من تعير وتدمير حتى كانت سنة ١٢١٨
فاحترقت عن آخرها ولم يبق لها أثر في الوجود فلم ترض سنتان
حتى شرع القوم في وضع الحجر الاول من الكنيسة الحالية
وفي سنة ١٢٥٨ حصل حريق أتلف بهض أجزائها ووقعت
الصاعقة في سنة ١٥٢٧ على ناقوسها فخطمته تحطما ولكن
أهلها رموا ذلك وأصلحوا ما أفسده الدهر ومسطح الارض التي
تشغلها الآن عبارة عن ٨٠٠٠ متر وسورها يرتفع عن أعلى
نقطة من سطحها ٤٤ مترا ونصف متر وفوقه صليب من الحديد

ارتفاعه تسعة أمتار وفيها من الداخل ١٢٦ سارية تتكىء
عليها قبابها وعقودها وأما شبابيك الزجاج ففيها تصاوير وألوان
تدهش الانسان وكذلك الارغن والوردات الزجاجية الهائلة التي
تمثل الفصول الاربعة وفيها كثير من قبور المشاهير وعماثيل
القديسين وأما منبر الوعظ والخوروس فهما عجوبة من أعاجيب
الصناعة بما فيها من التقن في المقش على الخشب فانهما
يصوران للناظر جميع ما جاء في العهد العتيق من الحكايات والوقائع
تمثيلا باتقان واحكام ومن أغرب ما رأيته في هذا الخشب الغريب
ان النقاشين تركوا فيه بعض قطع طويلة متصلة به من الطرفين
وهي في هيئة الاوتار فاذا غمزها الانسان باصبعه أخرجت صوتا
مطربا لطيفا واذا نقر عليها الماهر في صناعة الموسيقى ربما أمكنه
ابراز بعض الانغام بايقاع متناسق متناسب كما هو في الآلات المعدة
لذلك وكل هذا الخشب من الجودة والمتانة بمكان عظيم وقد كانت
أجرة الصناع فيه من ٤ الى ٩ مليم في اليوم الواحد ويخيل
للناظر اليه أن الغبار يخيم عليه ولكنه بعيد من ذلك بل انه
نظيف جدا واذا لمس الانسان لا يملوث أصبعه بشئ من السواد
وقد قال لنا الخادم ان ذلك الشئ الشبيه بالغبار له سبب في التاريخ
وذلك انه لما وقعت إحدى الثورات بفرنسا خشى أسقف الكنيسة

على هذه المصنوعات الجميلة من أن تتناول اليها أيدي العوام
فيبددونها ويهشمونها فأحضر كثيرا من الهشيم والبرسيم وشحن به
الكنيسة من أولها الى آخرها وبقيت مخزنا بهذه الكيفية مدة
طويلة من الزمان أوجبت تداخل الغبار في جزئيات الخشب
واكتسابه هذا اللون الباهت الذي يشاهد عليها الآن وخلاصة
القول ان هذه الكنيسة من أجل وأبدع وأكمل وأبرع ما رأيت
للآن في سياحتي بل هي في هذه المدينة كدرية يتيمة تحسدها
عليها رومة وفي هذه الكلمة من مدحها ما ينبغي بالمرام لمن شاهد
أو علم جمال الكنائس في عاصمة النصرانية والسلام



الرسالة الخامسة عشرة

العودة الى باريس

من لى يباحث في أخلاق الانسان يكون قد وقف نفسه على
درس الحيرة والاضطراب وتحقيق تأثيرهما وتعرف تنوعاتهما
وقد حضرني حينما عولت على كتابة هذه الحروف وأعددت القلم
والقرطاس واستفتحت بتحرير ديباجة العنوان ثم أبقيت يدي
معلقة في الفضاء والقلم بين أصابعي في الهواء وأعيني شاخصة
تنظروا لآ ترى وأسنانى تصطك اصطكاكا متواترا وشفاهى يتلاعب
بها الاختلاج من غير انتظام ثم تقع السفلى منها بين الاسنان
فيمدني الالم فأضع القلم وأرفع يدي الى جبينى كأنى أعصره
عصرا لاستخرج التيمان منه قسرا ثم أسكن بها فكبرى طورا
وأرجع لحالتي الاولى من امسالك اليراع وامسالك الذهن حتى كدت
أعاني نفسى من الخوض في هذا الموضوع لولا سبق الوعد في
الرسالة الثامنة بتلخيص وجيز على باريز يعرف القارئ بها ويصف
لبعض أحوالها ويقص عليه شذورا من أبنائها

وما مصدر هذه الحيرة وحقق عجز عن التسطير أو اجمام في
ميدان التحرير والتعبير ولكن هى المواضيع انهالت على انيالا

هالني وتراجت تراجا تراخت معه عزائمي حتى أشبهت (هي)
أقواما احتشدوا في دار سبت بها النار فطفقوا يتسارعون للخروج
من باب ليس لهم سواه وصاروا يتصدافعون ولا يعلمون انهم
يتمانعون وأنهم عما قليل هالكون فقام فيهم شيخ فطين ونبهم
الى هذا الخطر المبين وحثهم على التوذة والسكينة للنجاة من هذه
المصيبة العظيمة فأراعوه السمع وسلموا كلهم من الروع وقالوا الحمد
لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

فعن لي حينئذ أن أقتدى بهم وأذ كر الحيرة في الابتداء ثم التوصل
للاهداء بقسمة المواضيع الى مطالب أنكم فيها على باريس
من جملة وجوه بحسب ما وصل اليه جهدي ووقفت عليه بنفسي

كلمتان على باريس

يقول أهل هذه المدينة انها الآن وستكون على مدى الازمان
حاضرة الحضارة والعمران ومدينة المدينة في كل ميدان
لايضيرها اضطراب السياسة فيها أو انشقاق الاحزاب بين أهاليها
وأن الاجانب يفدون اليها وسيتقاطرون عليها اذ ليس في العالم
الاباريس واحدة (وأنت تعلم أن في احدى الواحات المصرية
قرية حقيرة تسمى باريس - فيالله من هذا التناقض) وأن من

أقصى أمانى الاغراب ان يمتعوا أنظارهم بمجالى محاسنها ولاسيما
أهل الارياف والاقاليم فى فرنسا فانهم يرون وجوب الجحى اليها
خصوصا بعد الزواج ليقضوا بها (هلال العسل) وليس ذلك الا لانها
تفردت عما سواها وفاقت على ما عداها بما جعت من أسباب
اللهو ووسائل الانسراح وازاحة الخاطر وتعضية اويقات الصفاء
والهناء وخلاصة القول انها مركز للجذب العام وفتنة لجميع الانام
هذه المدينة يشبهها نهر السين الى نصفين يكادان يكونان
متعادلين وهى منقسمة الى ثمانين خطا (بضم الخاء) فى عشرين قسما
على رأس كل قسم رئيس يعرف بأمين المدينة (شيخ البلد) وثلاثة
مساعدين وعلى رأس الجميع موظف عال لتبته مأمور ضبطية
السين وعليه القيام بوظيفة الامين العام (شيخ عموم البلد)

وعدد سكانها ٢,٤٢٢,٦٦٩ نفسا ومسطح البقعة التى
تشغلها من الارض فيما بين الحصون التى حولها عبارة عن
٨.٠٠٠ هكتار وطول محيطها ٣٤ كيلومترا والحصون عبارة
دائرة مزدوجة طولها ٣٤ كيلومترا و ٥٣٠ مترا وفيها ٥٦
بابا للمدينة و ٩ معابر ترميها السكة الحديدية ومعبران انهر
السين وآخران لترعتين . وطول الطرقات العمومية فيها هو
٨٨٨,٠٠٠ متر ومسطحها عبارة عن ١٥٣٢ هكتارا وفيها

أكثر من ٨٢,٠٠٠ دار . وميزانيتها في السنة تبلغ ٢٨٠ مليوناً من الفرنكات (١٧٦٩٣٨ جنهما مصريا تقريبا)
ولما كانت الكوليرة ضاربة اطناها بها في الصيف الماضي
تكبدت المدينة نفقات باعظة في رش السوائل المطهرة في الطرق
العمومية ولغسل أماكن القاذورات والمباول في كل يوم من أيام
الوباء حتى بلغت المصاريف ٤,٣٠٠ فرنك في اليوم الواحد وقد
بلغت مصاريف التطهير وتنقية الهواء في المدارس التابعة
للمدينة ٨,٠٠٠ فرنك وقد كان مجموع المصاريف التي أنفقت
بهذا السبب في فترة اجتماع المجلس البلدي ٥٧,٠٤٦,٦٧ من
الفرنكات

متاحف باريس

أول شيء تنساق إليه اقدام السائح الذي يقصد الاطلاع على
الغرائب ومشاهدة الطرائف انما هو المتاحف واحقها بالتقديم
هو متحف اللوفر فانه يحتوي على أكمل مجموعة في العالم من حيث
الفنون الصناعية وقد كان انشاؤه في قصر اللوفر في سنة ١٧٩١
بأمر من الجمعية الاهلية فجعلوه مقرا لجميع الاعمال الغريبة التي
كانت متفرقة في قصور الملوك ثم جاء اساتذة الفنون المتقنين وحلوه

برسوماتهم ونقوشهم وكثير المتبرعون بفرائد الصور وذخائر الاشكال حتى أصبح من أكمل وأجمل متاحف الدنيا واني أشير الآن بالاجمال الى ما فيه من الاقسام فان التفصيل يكاد يكون من المستحيل - فيه قسم للتماثيل والانصاب من الرخام (ومنها الزهرة إلهة الجمال لميلوئتها ٦٠٠ ألف فرنك) ومن النحاس من صنع الاقدمين أو محاكاة لهم وفيه نقوش دينية على المرمر وأبواب هياكل ومعابد ثم نقوش وكتابات رومانية بارزة وفي إحدى قاعاته إنا أن كل واحد منهما من حجر واحد ومتباعدين عن بعضهما نحو ٣٠ مترا واذا تكلم الانسان في احدهما سمعه صاحبه من الثاني وهذا من غرائب الصدى وليس لهما من مثيل الا في أميركا وفيه قاعات لاواني الفخار واللوح الرسم والتصوير مما وراء العقول ولا تسلمني الآن عما فيه من مخلفات قدماء المصريين والرومانيين والاشوريين والبابليين وغيرهم من أمم السلف وفيه متحف للجزائر وآسيا الصغرى وخلاصة القول انه في باريس كالدرة اليتيمة في القلادة الثمينة - وفي الدور الثاني منه متحف للبحرية فيه صور المراكب وجميع آلات البحر وادوانه عند جميع الامم وفيه خريطة كبيرة مجسمة من الجبس تمثل قنال السويس وأعماله ومدائمه اهداهاله دولسپس وفيه متحف

صيني - أما أثمان الاعمال التي فيه وزخرفة القصر فهي من قبيل ماورد في ألف ليلة وليلة

أما متحف لكسمبرج فهو مخصص لحفظ رسوم المتقنين العصريين ونقوشهم وعلى بابه تمثال بهيئة فرنسا وهي تقدم أ كاليل الفخار الى الهتي النقش والتصوير وفيه كثير من النقوش في الحجر والرحام والرسوم على القماش مما يقضى بالعجب العجاب

أما متحف الحمامات ودار كلوني فيمتاز عن السابقين بأنه مخصص لكثير من المجموعات المحتوية على آثار الاقدمين ومخلفاتهم النفيسة من كل نوع ومن أعمال أمم مختلفة - وقصر الحمامات هو أقدم العمار في هذه المدينة حتى انني حينما شاهدته تنكرت انني في باريس وتصورت أنني في رومة خصوصا عندما دخلت في قاعته الكبيرة الباقية الى الآن في غاية المنظ والصيانة تحت قبعتها العتيقة الفسيحة ويقول بعض المؤرخين ان يوليوس المرتد نودي به امبراطورا رومانيا في هذه القاعة (سنة ٣٦٠ ق م) وفي المتحف الآن أكثر من ١٢٠٠٠ قطعة معروضة على الانظار وكلها من القائدة والاهمية بكان اذحتوى على كثير من أمتعة القدماء وأبسطهم ومنسوجاتهم وعلى عربات مذهبة كان يستعملها الملوك في القرون الوسطى وبعضها يجره الجياد وبعضها مما يحمله الرجال

على الاعناق ولا أظن ان في متاحف المدائن الاخرى مجموعة تعادلها وفي الدور الاول من هذا المتحف مجموعة من الاسلحة والدروع والدرق والجنمات والخوذ للقائلين وللخيول ومن الاواني المعدنية ثم مجموعة من الاواني الخزفية (وفيها مجموعة من صناعة رودس واخرى أندلسية) والمينا والخشب المنقوش المحلى بالصور الباهية ومجموعة من الاقداح والاكواب والقازوزات والقارورات وفي هذا المتحف غرفة تحتوي على مجموعة من المصنوعات العبرانية أهدهم اله البارونة ناتالى دوروتشيلد من ضمن ما فيها تماثيل لتابوت العهد على هيئة دولاب وشعدانات ذات سبعة فروع وعمانية وتسعة وكلها من الخشب المنقوش والفضة الخالصة والنحاس الصافي وفي المتحف خلاف ذلك من صناديق القدماء وأسرة الملوك والاواني المتخذة من خشب الابنوس وسن القميل ورقع الشطرنج والبالور الخضرى والساعات ومقارم الدخان والمفاتيح والسكرانات والمنافذ وكرة أرضية من نحاس مذهب والاقفال والاعلاق والدرابيس والمصانمات مثل تيجان الملوك القوطيين وأكالييل الابريز الخالص الاصم المحلاة باحجار الصفيير والدر العديم النظير ومذبح (من أقسام الكنيسة) من النضار الدقيق المطروق بصناعة واتقان والاساور

والخواتم وورد من الذهب وغـ يردلك مما يعجز القلم عن وصفه
وتحار الافكار من مشاهدته منضودا محفوظا كما كان وكأحسن
ما يكون

أما قصر الحمامات فقد كان بناؤه في سنة ٣٠٠ ميلادية
بامر الامبراطور الرومانى كونستانس كلود ثم اتخذه ملوك فرنسا
فيما بعد سكنا لهم مدة من الزمان ولما تركوه اشترى أطلاله أحد
القساوسة وبعد ذلك اشترته مدينة باريس واحاطته بحديقة لطيفة
وجعلته مقرا للتمثيل الرخامية والحجرية التى أقيمت فى باريس فى
العصر الذى شهيد فيه القصر وأطلق عليه اسم قصر الحمامات
لأنه لم يبق من معالمه سوى قاعة الاستحمام وفى البستان كثير من
الانصاب والعمدان أغلبها كانت فى القصر أيام كان يسكنه
القسيسون ومن أهم ما فيها صليب من الحديد انتزعه الفرنسيون
من كنيسة سان والدمير بمدينة سبا ستبول وغير ذلك

وأما متحف الآلات والفنون الصناعية (ويسمى أيضا
بالمحفظ الاهلى للفنون والصنائع) فقد أقيم فى مكان كنيسة قديمة
وأضيف إليها جملة قاعات كثيرة وعلى بوابة تمثالا العلم والصناعة
وفيه مكتبة تحتوى على ٣٠٠٠٠ مجلد خاصة بتطبيق العلوم
والفنون على الصناعة وفى إحدى غرفه رسم بعض الجميدى فى

التصوير تماثيل الصناعة والرسم والتصوير من جهة والعلم والطبيعة والكيمياء من جهة أخرى وفيه معامل للكيمياء والطبيعة وتعطى فيه دروس ليلية في العلوم وتطبيقها على الصنائع مجاناً لكل طالب يقوم بها رجال من أشهر النابغين في هذه الفروع وهو يحتوى على جميع أصناف المحارث وآلات متنوعة للتقطير وتكرير السكر ومثال معمل للعربات وأدوات الخراطة والخياطة والنسيج والغزل وبعض عينات من المنسوجات والآلات الخاصة بنظريات الحركة والانتقال وآلات تحويل الحركة وتوليدها وآلات العدد والتلغراف الكهربائي وغير الكهربائي والتلفون وآلات الصوت والجلوانوبلاستيا والموازين والاثقال وآلات علم الطبيعة وأدوات استخدام حرارة الشمس وجهازات كهربائية متنوعة وآلات علم الأتار العلوية وآلات تقييد الارصاد وآلات استخراج غاز الاستصباح وجهازات الاستمضاء وآلات الورق وآلات الطباعة والنقش والتصوير الشمسي ثم المتخصصات الكيماوية وآلات طبع اللون والاصباغ على الاقشة وتماثيل معامل حمض الكبريتيك ثم كيميائيات اصطناع الخزف والفخار والمينا والزجاج والبلور وغير ذلك مما تتعذر الاطاطة به ويستدعى المشاهدة وتمضية الوقت النفيس وأهم ما استوقف انظارى تماثيل

استخراج الفحم الحجري وأدواته وآلاته وجهازاته وآبارها وسبراغواره
والمعادن التي تخرج معه والاصمباغ والروائح والاعطار التي
تستخرج منه وغير ذلك وقد رأيت في نموذجات المتحفات المنسوجة قطعة
من شغل مصر اهداها الخديو الاسبق الى هذا المتحف وفيها اشعار
عربية مكتوبة باحرف من القصب ومزركشة بذوق وحدق
بحيث انها تجعل لصناعة بلادنا مقاما محمودا بين ما يجاورها من
منسوجات الامم الاخرى

وفي تياترو الاوبرا متحف ومكتبة للتشخيص والتمثيل
والروايات وفن الاطلاق ولكن المتحف ليس من الاهمية بحسب
ما يتصوره الذي يسمع عنه وبالعكس ذلك المكتبة
أما متحف فنون الزخرفة والتزيين فالغاية منه المساعدة على
توسيع نطاق أعمال المشتغلين بتطبيق العلوم على الصنائع اذ يرون
فيها نماذج لا تحصى من صنع الاقدمين والمحدثين فتتربى بذلك
ملكهم وبقية درون على الاختراع والتسويق فلها تحتوى على
مجاميع متعددة فيها تصاوير على القماش ونقوش على الاخشاب
والاجار والمعادن ومصنوعات شرقية مثل الانسجة والعاج
والابسطة والخزف والزجاج من صنع فارس وغيرها وفيها أيضا
تصاوير بالالوان وأقمشة قديمة وحديثة وأثاثات المنازل ثم طريق

التزيق بحسب العصور قديما وحديثا وغير ذلك مما يطول شرحه
أمامتحف تطبيق فن النحت فهو في قصر التروكاديرو ويحتوى
على غودجات بالجبس من أهم أعمال المباني فى مشارق الارض
ومغاربها فى العصور السالفة ومن بوابات وعمدان وجدران وعقود
وقبور ونقوش بارزة فى الحجر وغير ذلك مما يطلق عليه لفظة آثار
وهى مرتبة بحسب تاريخ أوقاتها و بيان الاماكن التى فيها
الآثار الاصلية وماهية الموضوع بالايجاز وأول ما يراه الانسان
فيها هو نقوش قدماء المصريين وغيرهم من الامم القديمة حتى
ينتهى الى القرن الثامن عشر فىرى غرفة فيها أعمال من جميع
الامم كأنها فهرست للغرف التى سبقتها أو بيان اجالى لما رآه
الانسان قبلها

وأمامتحف طبائع الامم وأحوالها فهو فى الدور الاول من قصر
التروكاديرو أيضا ويحتوى على ٤٠٠٠ قطعة تمثل أصناف الامم
وكيفية معيشتهم وتغذيتهم ولباسهم وسلاحهم بالافدار الطبيعية التى
تصورهم للانسان كأنه يراهم كماهم بالتمام فى أقاليم استراليا والاقيانوسية
وغيرها مثل ملبوس الرساء وشباك الصيد فى البحر وحبائل القنص
فى البر والمساكن وصورة المتوحشين وغير ذلك مما يتعلق بامم
أفريقية وامريكا وأوروبا وآسيا ويرى الانسان فيها الزوارق

والنقوش والاكواخ والمنسوجات والاسلحة والمصنوعات الزجاجية
والفخارية والاطلال الدارسة وسارية من حجر واحد تشبه
شكل الآدمي في تكوينها الطبيعي (واردة من بلاد المكسيك)
والحاريب والمعابد والهياكل وبعض موميات واردة من أمريكا
وجهازات الجنائز والاحتفالات بالاموات وكل ذلك مما يتعلق
بالقبائل المتوحشة والبدوية والمتمدنة والحضرية سواء كانت
تسكن عند القطب الشمالي أو بجانب الخط الاستوائى أو فيما
بينهما - وفيه غرفة مخصصة لبيان أهل فرنسا بحسب أقاليمها

وتنوع معيشتهم ومساكنهم واخلاقهم وغير ذلك

أما متحف التربية فيحتوى على مكتبة مركزية خاصة بالتعليم
الابتدائى فيها الكتب المؤلفة فى فن التربية واساليب التعليم
ورسوم واشكال وخرائط ومجاميع وكتب مطالعة وغير ذلك مما
يلزم الدارسين والمدرسين وفيه زيادة على ذلك مكتبة متنقلة تعير
الكتب الى القاطنين بوظائف التعليم فى سائر انحاء فرنسا وفيه
آلات التعليم وأدواته وأجهزته وجملة مجاميع للتاريخ الطبيعى
ولتعليم الرسم والتصوير فى المدارس الابتدائية والثانوية ومدارس
المعلمين وفيه تماثيل للبانى الدراسية لبيان أوفقها للصحة والتعليم
من حيث التهوية الاضاءة وغير ذلك من المرافق - وهذا

المتحف المقيم يحتوي على قاعة كبيرة فيها كلها خرائط جغرافية فقط وغرف أخرى للرسم ومعامل للكيمياء والطبيعة والاشغال اليدوية وأخرى تحتوي على أثاث المدارس وأدوات الدراسة ونحو ذلك تصور المدارس الغير فرنساوية وفي الدور الاول مكتبة التربية الفرنسية والفرنساوية والاجنبية وأهم قسم فيها هو مكتبة الموسيوي رابو تحتوي على ٦٨٤٨ مجلدا خاصة بهذا الفرع من التعليم وقد اشترتها الدولة بعد وفاته باسم هذا المتحف وبعض الكتب الموجودة في هذه المجموعة قد صارت الآن اندر من الكبريت الاحمر وفيها أيضا مجموعة تحتوي على كتب التعليم في القرن السادس عشر وفي الدور الاول مجموعة علمية ومعامل للعلوم الطبيعية وأثاثات مدرسية وشرائع فرنساوية وأجنبية خاصة بالمدارس - وقد ترتب على انشاء هذا المتحف فوائد كثيرة خصوصا المكتبة المتنقلة فانه قد يتفق وجود بعض من المترشحين لوظائف التدريس أوللترقى الى وظائف سامية ولا يكون في وسعهم الاستحصال على الكتب الدراسية اللازمة لبعدهم عن المدن الكبيرة ولضيق ذات يدهم فانشأت الدولة هذا المتحف ليعيرهم الكتب اللازمة بناء على طلبهم فيرسالها لهم خالصة أجرة البريد في صناديق محكمة من الخشب مدة شهر أو شهرين

بحسب ما يريدون ولهم الحق في تمديد الاجل المحدود وسأشرح الكلام في الرحلة على هذا المتحف بنوع خصوصي لماله من المزايا الكبيرة

أما متحف جيمى أو متحف الاديان الاهلى فانه يتضمن كل ما جمعه الموسيو ايميل جيمى E. Guimet اثناء سياحته في بلاد المشرق ثم انه تبرع بهذه المجموعة النفيسة التي تبلغ قيمتها أكثر من ٤ ملايين من الفرنكات لمدينة باريس لاجل افادة ابناء وطنه والغاية منها درس الاديان القديمة وعقائد المشرق بحسب الرسوم الصحيحة والتمثيل والكتب والتصاوير الاصلمية الصادرة عن نفس المتعبدين وهى مرتبة بحسب المذاهب والاعتقادات والاقوات ثم ان هذا الرجل الكريم فضلا عن هذه الهبة السنية تبرع بنصف المصاريف اللازمة لبناء دار المتحف وقد بلغنى من ثقة ان رجلا من اغنياء الانكليز عرض عليه مبلغا وافرا من النقود لشترى جزءا زهيدا من المجموعة فأجابها بما معناه (انما تعبت وجمعت ماترى لا فائدة ابناء بلادى وللإعانة على رفع شأن وطنى وذلك آمن وأعلى مما تعرضه على الآن بما لا يقدر بأى حال) فهكذا تكون الشهامة والمروءة فى محبة الوطن والسعي فى اعلاء كلمته وتحميد ذكره ومن أهـم ما فى هذا المتحف مكتبة تحتمى على

كتب كثيرة بخط اليد و ١٤٠٠٠ مجلد في مواضع متنوعة
و ٧٠٠٠ مجلد صيني وياباني ومصرى قديم وهو يحتوي على
مصنوعات من الخنزف خاصة بديانة الصين واليابان وقدماء اليونان
وايطاليا وفرنسا وقبائل افريقية والاقبانيوسية وآلهتهم وتعبداتهم
وهياكلهم ومعابدهم وفيه هياكل كثيرة منها هيكل يسمى بالمندره
يحتوي على ١٩ إلهة (والمندره هي المعبد الذي يجتمع فيه جميع
الالهة عند اليابان مثل البانتيون عند اليونان والكعبة عند
الجاهلية وأقدم هذه المنادر هي مندره سين جون وكان
فيها ١٠٦٠ إلهة) وآلهة الهيكل المحفوظ بهذا المتحف تنقسم
الى ثلاثة أقسام لتدبير الكون وهي الكمال في الاعتقاد البوذي
ثم التجسد لخلاص الارواح بطريق الاقناع ثم التحول بلذنب
النفوس بالوعيد والتهديد - وهناك أيضا آثار كثيرة مما يتعلق
بديانة الفراعنة وكيفية معيشتهم في هذه الدنيا ونعيمهم في الحياة
الآخري وفي ضمنها تماثيل آلهة وتماثيل وأوراق بردي ومذابح
وهياكل وأحجار مقدسة وغير ذلك - وفي هذا المتحف غرف
للتدريس والعمل وجميع جدرانها مغطاة برسوم وأشكال تناسب
الاشياء المعروضة في كل غرفة أو تكلمها بحيث ان الناظر الدقيق
يقف تمام الوقوف على كيفية التعبد والتدين عند كل قبيلة

من هذه القبائل - وقد رأيت في فناء المتحف عنسيرا لتربية
النباتات المحلوبة الى فرنسا من البلاد الحارة وفي أقصى الفناء
قاعة يصعد اليها بسلم وفيها مجموعة من الاجار المختلفة وشواهد
القبور القديمة عنى بجمعها اثناء سياحته في آسيا جناب الموسيو
دومرجان الذى هو مدير المتحف المصرى الآن - وقد تقرر اثناء
أقامتى فى باريس ان تلامذة المدارس العالمية وتلامذة المدارس
الحرفية فى هذه العاصمة يذهبون الى هذا المتحف فى كل يومين
مرة بالمناوبة مع بعضهم لاجل الوقوف على كيمييات اصطناع
الخزف والطقوس الدينية بارشاد الموكاين بحفظ المتحف أوالموسيو
جيمى نفسه

أما متحف والتنين هاوى فقد سمي باسم أول من أسس
مدارس العميان وهو وان كان صغير الآن لكنه جدير بالنظر اذ
يحتوى على الآلات والادوات الخاصة باعمال العميان وعلى كثير
من مصنوعاتهم فى جميع البلاد وقد كان دليلى فيه أحدهم وهو
الموسيو جيلبو أحد اساتذة مدرسة العميان وأطلعنى على جميع
مافيه قطعة قطعة بارشاد وثبات ومعرفة بمواضع كل شئ حتى
انبرت من هذا الدليل الماهر فانه له معرفة بالغزل والنسيج وكثير
من الصنائع اليدوية وأخص معلوماته الجغرافية والتاريخ والفنون

الادبية وقد اتحفني ببعض من مؤلفاته وفيها ديوان شعر يعبر فيه عن عواطف العيمان وأحاساساتهم وكيف يقدرون الاشياء وله كتب أخرى كثيرة تدل على فضله وسعة اطلاعه وهو الذي سعى في تأسيس هذا المتحف على نفقته ثم أمدته الجمعيات والمدارس في البلاد الاوروباية والامريكانية بمتحف أخرى ولا يزال يدفع ايجار المنزل من ايراده

وفي باريس متاحف أخرى كثيرة لايجوز لي ان أتكلم عليها لاني لم أزرها وقد جرت عادتي اني لأذكر الا ما عرفت به بنفسى ولكني أشير الى اسماء بعضها مثل متحف الطوبجية والاثاث الاهلي والطب ومقابلة التشريح والمعادن وآلات الموسيقى والرصدخانه والنقود والمحفوظات (الدفترخانه) والمتحف التاريخي لمدينة باريس (وبه مكتبة فيها نحو ٩٠.٠٠٠ مجلد) ومتحف المجموعات الفنية لمدينة باريس ومتحف كاين وقد أسست زوجة كاين ومتحف جاليرا ومتحف الغشاشين (ويوجد له نظير في كرك الاسكندرية) وفوق ذلك فان لاغلب المدارس والجمعيات العملية والفنية متاحف خاصة بها

قصور باريس

هـ - هذه بلد القصور حيثما قلب الانسان ناظره رأى قصرا شاهقا ونيانا شامخا واتقانا زائدا ولكنى لأتكمم الآن الاعلى بعض المقصور المهمة واترك الباقي لفرصة أخرى
من آخرها قصر التويلرى يدل على ذلك مابقى منه بعد الحريقة التى ألهمته اثناء ثورة الكومون فى شهر مايو سنة ١٨٧١ كانت بنيته فى سنة ١٥٦٤ وقد أقيمت فى مكانه الآن حديقة أنيقة مزدانه بأنواع الازهار تتخللها تماثيل رمزية وفساقى تدفع الماء الى حيطان بهجة بكيفيات رشيقة تسر الناظرين
أما قصر اللوفر فقد شيد فى عام ١٥٤١ على اطلال قلعة عثر القوم على بعض بقاياها تحت الارض فى سنة ١٨٨٣ وسكنه كـثير من ملوك فرنسا قبل أن يكمل تماما حتى جاء الامبراطور نابليون الاول فشدد الاوامر بانتهائه ولكنه لم يساعده الزمان على بلوغ الغاية فى هذا الامر الجليل فلما كان الامبراطور نابليون الثالث أتمه على الوجه المرغوب واحتفل بافتتاحه فى سنة ١٨٥٧ وقد بلغت اكلافه ثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترلينية (٧٥ مليون فرنك) وفيه رسوم ونقوش وتصاوير وتماثيل وزخرفة وتزيين فى الجبس والحجر والرخام والخشب وعلى وجهاته وعقوده وجدرانته

وسقوفه ونوافذه ومطلاته وافنائه ورحبانه تسلب العقول وتخلب
الاباب وواجهته الاصلية مركبة من عمد مستندة على عمد تمثيلا
لاجل وأعظم هياكل العبادة عند قدماء اليونان وخلاصة القول
انه اليوم تحفة حوت متاحف وعبودية جمعت عجائب

ومما يلحق بهذا القصر ميدان الكاروسل وهو من أجل
ميادين باريس ويبتدئ بقوس نخار هائل تحيط به البساتين الناضرة
ويحف به من اليمين والشمال تمثالان رعيان للحرية والشريعة
ومن هذا المكان يمتد النظر الى بستان التويلري والمسلة المصرية
وقصر الشانزلزي وقوس نخار الكوكب وينتهي الميدان المذكور
بحدائق اللوفر وفيه تجاه قوس نخار الكاروسل عمود أثرى أقيم
لتخليد ذكر غامبتا المشهور وهذا العمود يتركب من كتلة حجرية
عظيمة تحيط بها تماثيل من البرونز (الشهبان) تصور الحقيقة والقوة
والحرية والمساواة وفوق هذه القاعدة منشور هرمي من الصوان
يبرز منه تمثال الرجل واقفا ومائلا برأسه الى الخلف قليلا وباسطا
ذراعه الايمن بشهامة وهو يرشد أبناء وطنه الى الواجب والشرف
وتحت أقدامه الذائدون عن حياض الوطن يرعاهم ملاك فرنسا
وقدارتفع بأجنحته الى عنان السماء فقاموا من سقطتهم ونفضوا
ماعليهم من الغبار وجمعوا أسلحتهم المتكسرة وعلى الواجبات

الآخري من المنشور بجل مقتطفة من المقالات الرنانة التي ألقاها
هذا الخطيب على قومه يدعوهم الى الدفاع عن بلادهم الى آخر
نقطة من حياتهم وغير ذلك وفوق قمة هذا الاثر تمثال رمزي
للديمقراطية (أى حكومة الاهالى بأنفسهم) وقد فازت وعلت كلمتها
فامتدت صهوة غضنفرى أجنحة - وقد أقيم هذا التمثال في
١٣ يوليو سنة ١٨٨٨ بنقود جمعها التوم من اكتاب عام
اشترك فيه أبناء فرنسا المقيمين في حومتها والبعيدين عنها
وأما قصر البورصة فهو على شكل معبد يونانى بمائى واجهته
وحوله وفي داخله من السوارى والاساطين وطوله ٦٩ مترا وعرضه
٤١ وفي أركانه من الخارج تماثيل أربعة للتجارة والعدالة
القنصلية والصناعة والزراعة وفي داخله قاعة كبيرة للعمليات المالية
تسع أنفى شخص وعلى جدرانها تصاوير بالغة في الاتقان بحيث
يخالها الناظر نقوشا بارزة وهى عبارة عن الاحتفال بافتتاح
البورصة على يد شارل التاسع وفرنسا وهى تستقبل الاتاوة من
أقسام الدنيا الخمسة واتحاد التجارة والعلوم والصنائع وأهم المدائن
في فرنسا - وقد زرت هذا القصر ولسكنفى أعترف بأننى لم يتيسر
لى أن أدرك شيأ من أحواله أو أقف على نزر من تفاصيل
ماجرياته حتى كنت أتحف بها القراء وغاية ما رأيتيه فيه جلبة

وضوضاء وصياح وصخب وتماوج وتدافع وأيدى ترفع وأرجل
تهزول وأقوام يخرجون وآخرون يدخلون وفي يد كل واحد
قرطاس وقلم من الرصاص وصكوك مختلفة الالوان ولا أدرى
كيف يتفاهمون في بابلهم هذه وان كانوا كلهم بلغة واحدة
يتخاطبون - وفي هذا القصر مكتب للتاغراف وآخر للتلفون
وبارومتر كبير وسكردان يتناولون فيه غداهم من غير أن يتعدوا
عن الميدان

أما قصر الانواليد (لعساكر السقط) فقد شاده الملك لويز
الرابع عشر في سنة ١٦٧٠ فان هذا الملك العظيم أراد أن يضمن
حياة طيبة للعساكر الذين تبت بعض أعضائهم أو تصيبهم بعض
العاهات ولا يكون لهم وسيلة للتعيش بعد ان وخط الشيب رؤسهم
وهم في سلك النظام ولكن الذي نظم هذا القصر حقيقة وأجاد
ترتيبه انما هو نابليون - ومسطح الارض التي يشغلها هذا القصر
عبارة عن ١٢٦٩٨٥ مترا مربعا وهو معد في الاصل لسكن
٥٠٠٠ نفس ولكنه اليوم لا يحتوى الاعلى ربع خس هذا العدد
لان قدماء الجهادية في هذا الزمان يفضلون تمضية ما بقى من عمرهم
في استقلال وحرية وانفاق المعاش الذي يخوله لهم القانون
بحسب ما يريدون - أما النازلون به فتعنى الدولة عناية تامة

بمسكنهم ومطعمهم وملبسهم وتدفتهم وكل ما يلزم لهم
وامام هذا القصر رحبة فسيحة طولها ٥٠٠ متر وعرضها
٢٥٠ وفيها صنوف كثيرة من الاشجار

وبعد هذه الرحبة فناء خارجي تحف به الخنادق من كل
جانب ويحديق به من اليمين والشمال بطارية مدافع اعتمتها الجيش
الفرنساوى فى حروبه وهى التى تستخدم فى انباء الباريسيين
بالحوادث الكبيرة مثل الانتصارات والمواسم وغير ذلك وحول
هذه المدافع مدافع أخرى من طرازات متنوعة وعيارات مختلفة
وفى خلال صفوفها مماشى يتنزه فيها قدماء الجنود النازلين
بالقصر - أما واجهة هذه البناء الفخيم فتحدث فى النفس
جلالا وفى الفكر اجلالا وطولها ٢١٠ أمتار وفيها ١٣٣
شباكا وعلى يمين الباب تمثال إله الحرب وعلى يساره إله الحكمة
وفى الدهاليز تمثيل بعض الوقائع التى انتصر فيها الفرنسيون وفى
الفناء الداخلى تماثيل كثير من قوادهم وشجعانهم وأهم ما استوقف
انظارى فى نفس القصر هو المكتبة التى أسسها نابليون وهى
تحتوى على ٣٠ ألف مجلد تقريبا ولا يجوز الدخول والشغل
فيها الا للعساكر السقط ومن ملحقاتها قاعة تحتوى على صور
جميع مارشالات فرنسا ومديرى هذا القصر وتصغير يمثل للرأى

عمود وندوم المشهور والقنبلة التي قتلت تورين في سنة ١٦٧٥ وهو من أفرس ابطالهم ومثال من الجبس لتمثاله فوق فرسه وبعض الخلفات التي تركها نابليون في جزيرة سنت هيلانة منقاة بجمعها بعض المغرمين بجذره مثل اغصان من الشجرة التي كان يستظل بها وقطرات من الينبوع الذي كان يستقي منه وقبصه من التراب الذي وطئه بقدمه وقصة من شعره وقطعة من ورقه وما أشبه ذلك وضعها بعض المجيدين في لوحة تأخذ بالابصار لما أودعه فيها من الابداع وهناك أيضا أشياء كثيرة من التي كان يستخدمها الامبراطور في منبناه

وفي هذا القصر كنيسة باسم القديس سان لويس وليست ذات أهمية بالنسبة لمنائها بل لانها مخصصة لدفن المارشالات ومديرى القصر ولانها تحتوى على كثير من الآثار التي تحيي ذكر ابطالهم المعدودين وفي قبورها كثير من الرايات التي اعتمتها القوم في مواقع القتال في افريقية والقريم وايطاليا والصين والاكسيك والتونكين وفي احدى بيها صورة لسيدنا عيسى عليه السلام مرسومة على القماش ولكن الناظر اليها يخال انها محسمة بكل انتظام

وخلف هذه الكنيسة قبر الامبراطور في قبة هي أجل أزدني
مصنوع في فرنسا بحسب الطرز اليوناني ولا يدخل القوم اليها
الابعد ان يرفعوا قبعتهم تعظيما وتفخيما وفيها بيعة تحتوى على
بقايا جيروم شقيق الامبراطور وبقايا ابنه البكرى وبيعة أخرى فيها
قبر تورين ذلك البطل العظيم وامامها بيعة فيها عظام ووبان Vauban
وبجانها ناووس فاخر يحتوى على بقايا شقيق آخر للامبراطور
أما قبر الامبراطور نفسه فهو في ناووس من الصوان الاجز
لم ير الاون مثله في البهجة والرخامة وهو في وسط القبعة في
حفرة عميقة مكشوفة للاظهار ومبلمطة بالفسيفساء وهناك
من التصاوير الهائلة وقبور المخلصين لهذا الرجل وتمثيل
انتصاراته وغير ذلك مما يدهش الابصار ويقضى على الانسان
بالاعظام والابكار ويجعل خطواته مقرونة بالتحسب والهوينى
ويذكره بان هذا العالم مصيره الفناء وان نهايات الجسد الزوال
ويتذكر قول القائل ﴿ألا كل شئ ما خلا الله باطل﴾ خصوصاً عند
ما يقرأ هذه العبارة التي أوصى بها نابليون (أتمنى أن تدفن عظامي
على ضفاف نهر السين في وسط هذه الامة التي أحبيتها احبا جما)
فيخرج المتفرج وهو يقول الملائكة والدوام لله سبحان الحى الذى
لا يموت ان الله وانا اليه راجعون

وأما قصر الفنون المستظرفة - فقد أقيم على اطلال دير وتم
تشييده في سنة ١٨٣٩ وفيه مدرسة لتعليم الرسم والنحت والعمارة
والنقش بأنواعه وذلك التعليم نظري وعملي ولهذا القصر فمنا آن
وضعت في أولهما أبواب قصور قديمة وأعمدة منقطة بأشكال
مختلفة وتماثيل للماهرين من الصانعين وغير ذلك وفي وسطه عود
من الرمر الأحمر مشوب بالشب وفوقه تمثال الخصب وأما الفناء
الثاني ففيه مجاميع من تماثيل وقطع تماثيل من أيام القرون
المتوسطة الى عصرنا هذا وفي وسطه فسقية من قطعة واحدة
من الحجر كانت امام قاعة الطعام في أحد الديور لاجل غسل
الايدي وعلى الواجهة الاصلية لهذا القصر هذه الكلمات الثلاث
(رسم عمارة نحت) منقوشة بعناية واتقان وتفنن وابداع وعلى
اليمين والشمال اسماء الاساتذة الذين نبغوا في هذه الفنون وفي
دهاليز القصر وغرفه أمثلة لتماثيل قديمة ومعابد وثنية ومصنوعات
في النحاس وتصاوير رفائيل في قصر القاتينكان وأشهر العماير في
فرنسا وغيرها وصور أعضاء جمعية الرسم والنحت وبعض أساتذة
المدرسة وفيها مكتبة تحتوي على ١٢ ألف مجلد ونحو مليون
من النقوش وفيه مجموعة للصور التي تجوز الطبقة الاولى في امتحان
رومية وهي أعلى درجة يمكن للصور الماهر أن يتوصل اليها

وخلاصة القول انها حوت من ظرائف الفنون ما يثبت في تلامذتها
قوة التصور وابراز الافكار على القرطاس أو الاحجار
أما قصر لكسمبورج - فهو الآن مستقر لمجلس السناق
(شيوخ فرنسا) وقد زرتة أربعة مرات بواسطة حضرة الفاضل
الكامل الموسيو بوليا (M. Pauliat) أحد اعضاءه الموقرين
وهو قد وقف نفسه على خدمة ابناء العرب في الجزائر وتونس
والذب عن حقوقهم ورفع الاذى عنهم وللمسلمين في قلبه محبة
شديدة وبواسطته تمكنت من الحضور في الجلسات أربع مرات
ووقفت على اساليب المذاكرة والمدولة والمناظرة والمناضلة
ولوشئت حضور الجلسات أكثر من ذلك لتمكنت بواسطته جزاه
الله خيرا - هذا القصر أمرت بتشيمده ماري دويسيدس زوجة
هنرى الرابع على مثال القصر الذى تربت فيه في فلورانس ثم
تقلبت عليه الاحوال فبعد ان كان سكا للملك أصبح سجننا في أيام
الثورة الفرنسية ثم مقرا لمجلس المشيخة ثم للقنصلية ثم للسناق
ثم لنبلاء فرنسا ثم لمحافظة السين (دار أمانة المدينة) ثم للسناق
في هذا الزمان وفيه مكتبة تحتوى على أكثر من ٥٠٠٠٠ مجلد
وفوقها قبسة مغطاة باشكال ناضرة فاخرة - وفي القصر تماثيل
نصفية لبارات فرنسا (Pair de France) وشيوخها قديما

وهو من أجل القصور وأكثرها زخرفة وتزويقا وقاعة الجلسات فيه
عبارة عن نصف دائرة متقابلين يجلس الاعضاء باحزابهم وانشقاقاتهم
وتنوعاتهم في النصف الاكبر وأما الرئيس واعضاء الادارة ففي
النصف الاخر وعند ما تفتح الجلسة لا يتم الانتظام بل يستمر
الاعضاء الذين يدخلون على التماسر فيما بينهم وعدم الالتفات
للخطباء ولا للرئيس وترى الموكلين بالخدمة يتصايحون بهذه
العبارة (صه ايها السادات) ويردونها جملة مرات فتذهب في
الهواء تتردد من جدار يدفعها الى جدار من غير أن يكون لها
تأثير على الحاضر وترى بعض القوم يخرجون وآخرون يدخلون
والرئيس يدق الجرس في كل نفس فلا يؤثر أكثر من صياح
الحرس حتى اذا جاءت مواضيع المذاكرة الحقيقية وقام الخطيب
الذي عليه الدور أخذ الانتظام حده وصار القوم يرمقونه
ويتنهمون كلامه ومنهم من يجيبه بالتنفيذ وآخر يؤيده بالتأكيد
وفريق يصفق له استحسانا وآخرون يهزون الاكف استهجانا
وبعضهم يقاطعه في الكلام وغيرهم يساء له على الاتمام
والرئيس يدعو الجميع الى ملازمة النظام وهكذا حتى ينتهي
الخطيب مما ندب نفسه اليه فيحتمل مكانه أحد المتخزين له
أوعليه ويصعد الوزير لتأييد سياسة الحكومة وتزكية مساعيها

اوليان ما يطلبه الاعضاء من الافصاح عن حالة البلاد في الداخل
أو الخارج ولا يزال القوم في أخذ وعطاء وبيع وشراء واستفهام عن
اهام وافصاح بقول صراح حتى تنفض الجلسة ويفيض الاعضاء من
حيث أفاض الناس ولا يصبح الصباح الا وقد طبعت أعمال الجلسة
وما قيل فيها كلمة كلمة وحرفا حرفا بالتمام والكمال اذ في خدمة المجلس
كتاب مختدلون Sténographes ينقلون بالاشارات المختصرة كل
ما يلقى الخيط من البيانات أو يرد عليه من الاعتراضات أو يقع
من الاضطرابات أو يظهر من الاشارات ثم يرسلونها للطبعة بعد كل
عشرة دقائق وهناك يصير نقلها أو ترجمتها للكتابة العادية وجمعها
واعدادها للطبع فلا يبقى نصف الليل الا وقد تم طبع الجريدة
الرسمية وفيها حوادث الجلسة بالتفصيل الذي ليس بعده تفصيل
مع ان الجلسة لا تفتح الا في الساعة الثالثة ونصف من بعد الظهر
وقد تنتهي فيما بين الساعة الخامسة والسادسة أو بعد هذه
بقليل

وأما قصر بوربون - فهو مقر مجلس النواب وله واجهتان
احدهما تطل على نهر السين والاخرى على ميدان باس القصر
والاولى هي الواجهة الاصلية وفوق عمدانها نقوش ورسوم تمثل فرنسا
وفي يدها الدستور وحواليها تماثيل الحرية والسلام والحرب والفنون

والفصاحة والصناعة والتجارة وقاعة الجلسات كلها من المرمر
وحولها عمدان منضودة وهى على شكل نصف دائرة تسع ٥٨٤
نائباً ونظام الجلسات فيها يشبهه فى السناتو سوى ان اللغظ فيها
أكثر والعراة أظهر والخصام أقرب من جبل الوريد والدعوة الى
المبارزة ليست بالامر الجديد بل قد تحصل فى كل لحظة عقيب
أقل لفظة وقد رأيت فى كلا المجلسين ان بعض الخطباء لا يوفق
الى نوال القبول من عموم الحاضرين فيعطف بمناسبة حينما اتفق
الى ذكر الوطن وشرفه ومجده ونخبره ووجوب التفانى فى اعلاء
مقامه وبذل المهج لاعزازه ثم يحيى القائمين بنصرته الذائدين عن
حومته ويترحم على وفاة من وقاه حقه وعرف واجبه وهكذا
من الاساليب الخطابية فيجلب الالباب ويسحر العقول ويستجذب
القبول فيجاوبه السامعون بالتصفيق وعلامات الاستحسان وكلمات
الاعجاب خصوصا اذا كان قوالا سميلا وخطيبا مصقعا يعرف
كيف يقرن الاشارات بالكلمات وكيف يكون توقيع الالفاظ
ليكون لها وقع فى الفؤاد - وقد اتفق فى الجلسة التى حضرتها
فى مجلس النواب حصول مطر بغير سحب استبدلت فيه الامواه
بالاوراق فكانت تتناثر على الاعضاء من غير افتراق وذلك ان رجلا
اسمه الكساندر هوليه تربص فرصة مناسبة فخذف عليهم

بكراريس مطبوعة عنوانها (هتك ستر الطرارين) ولكن الجنود
قبضوا عليه في الحال وأودعوه السجن تحت المحاكمة وقد قالت
بعض الجرائد انه يعنى بذلك مسألة بناما فكتب الرجل الى الجرائد
انه لم يحم حول هذا المقصد ولا أعلم الا ان ماذا تم في أمره

وأما قصر الصناعة - فهو معد للمعارض السنوية والجزئية

وقد أقيم في سنة ١٨٥٥ بمناسبة المعرض العام من مال شركة
مؤلفة من كثير من المساهمين ثم اشترته الدولة وله فناء مستطيل
طوله ٢٥٠ مترا وعرضه ١١٠ أمتار ومسطحة ٣٢٠٠٠ متر

وعلى بابه شمال كبير يمثل فرنسا وهي توزع أ كاليب الفخار من

الذهب النضار على الصناعة والفنون وهما جالستان تحت اقدامها

وعلى الجدران المحيطة بالقصر أسماء الذين برعوا في العلوم والفنون

والصناعة مرقومة بحروف من الابريز وقد جعلوه بعد سنة

١٨٥٥ مقرا للمعارض السنوية للرسم والنحت والعمل والصناعة

وفن الحدائق ومعارض الخيول والحيوانات والاطيار الخ وقد

كان فيه اثناء مقامي بباريس معرض اشغال النساء فكان فيه

جميع أصناف ملبوساتهن بحسب الازياء وتنوعها في كل عصر

وعند كل أمة قديمة أو حديثة نسقوها على شكل معجب مطرب

وخصوصا قبعاتهن وأشكالها المختلفة وتفننن فيها بما يجذب

الابصار ويسلب الالباب وليس هذا مقام الشرح عليها فترك
وصفها الى فرصة أخرى

وخلف هذا القصر بناء من الحديد واللبن يسمى كشتك مدينة
باريس وهو معد لجله معارض متنوّعة وكان به أيام مقامى في
هذا البلد معرض الصنائع المتعلقة بلحم الخنزير وكانت الدولة
ترسل اليه الموسيقى العسكرية تصدح فيه بالخانما الشجية

واختم الكلام في هذا الموضوع الطويل العريض بمخلاصة
قصيرة على قصر التروكلديرو فقد بنى على رابية بمناسبة المعرض
العام الذى أقيم في سنة ١٨٧٨ وقد اشتركت فيه حكومتنا
المصرية وأصابنا حظا وافرا من الفضل والفخار وهو يشتمل على
أحسن أساليب البناء وطرقات العمارة وفوقه تماثيل الشهيرة وفيها
بوق تنفخ فيه وفيه قاعة المواسم والاحتفالات من خرفة بنقوش
وتصاوير وفي هذه القاعة مكان للموسيقين يسع ٤٠٠ نفر منهم
بالآتهم وأما القاعة نفسها فيمكن ان يجلس بها ٥٠٠٠ متفرج
بالراحة وتحتته حربي لاسمك المياه العذبة موضوعة في مغارات
فسيجة تتجدد فيها المياه على الدوام ومنظر هذا القصر وعمدانه
وارباجه وأروقته وأجنحته وحديقته وفسقيته مما يفتن العقول
ويستغرق الزمان في التأمل والامعان

وفي باريس غير ذلك عدد كبير من القصور العمومية
والخصوصية ولا أتكمم عليها لاني لم أدخلها

معامل باريس

مثل هذه المدينة العظيمة لا يتخلو من المعامل المتناهية في
الاتقان وليكني لأتكمم الآن الاعلى معامل الجبلين (بضم الجيم
وسكون الباء وكسر اللام) ومعامل الدخان
فأما الاول فقد كان انشاؤه في سنة ١٦٠٣ على يد الملك
هنري الرابع وبعد ان دار الشغل فيه نحو خمسين عاما اشتراه
لويز الرابع عشر وجعله ممعلا للامتعة والاثاثات الملوكية بناء على
اشارة وزيره كولبير فكان يشتغل العمال فيه بالطنافس والستائر
المشهورة التي لانظير لها في السكون وباشغال القص والنسيفساء
وبتلقيم العاج وتطعيم الابنوس وبصياغة الحلي والجواهر
وباصطناع التماثيل المخصصة لقصر فرساي وبعد حكم هذا الملك
اقتصر المعمل على اصطناع الطنافس والستائر وفي ٢٥ مايو سنة
١٨٧١ أحرق ثوار الكومون بفرنسا جزءا منه فالتهمت النار
كثيرا من نفائس الطنافس وستائر الستائر وقد أبدع هذا المعمل في
تقليد الرسم وألوانه بالنسيج في انواله على منواله مع الدقة والرقه

حتى ان الملوك والامراء ينخرفون قصورهم ومتاحفهم بصنوعاته التي سارت بحسنها الركبان وفيه متحف حوى شياً كثيراً من غرائب منسوجاته ومنسوجات الامم الاخرى وقد رأيت قباطى مصر المشهورة في كتب العرب مع انى من بلادها ولم أرها فيها وربما تكلمت على هذا المعمل الجليل بما يستحقه من التفصيل اذا ساعدت العناية في فرصة أخرى

وأما المعمل الثانى أى معمل الدخان فهو في بناء كبير يبلغ مسطحة هكتاران ونصف وله خمسة أدوار ويشتغل فيه ١٩٠٠ عامل أكثرهم من النساء وقد رأيت فيه من جميع أصناف الدخان وكيفية تهيبته بعد عرضه لعمليات متعددة واعداده سبحانه ساعة للشاربين ويبلغ مقدار الدخان الذى يبيعه في السنة الواحدة ٧,٦٥٠,٠٠٠ كيلوجراما وقد علمت من مديره ان قيمة الربح الصافي الذى يصيب الخزينة من معامل الدخان في السنة هو ٣٥٠ مليون فرنك (١٤ مليون جنيهه انكليزى) مع ان جميع المستخدمين به لهم معاش كامل من غير ان يخصم منهم يوم احتياطى

ولوجود هذه المعامل في كل أوروبا منفعة أخرى أعظم وأهم وهى ان الذين يشربون الدخان في هذه البلاد موقنون بجودة الصنف

وانه ليس مشوبا بورق الخس والقلقاس وخصوص النخل وغير ذلك مما تتولد منه بعض الامراض الصدرية التي لايشفي منها صاحبها كما انه يتعذر أو يتعسر شفاؤه من معاقرة هذا النوع من الشراب ولما كانت هذه المسئلة ذات أهمية عمومية عظيمة فقد اتفقت مع حضرة المدير المشار اليه على ان يتحفي بما يلزم من المعلومات والبيانات لانشرها بين قومي عسى أن يكون لها بعض الفائدة وقد باع مجموع استهلاك الدخان في فرنسا في سنة ١٨٩١ ٣٥٨١٣٨٥٤ كيلو جراما منها ٢٩١١٠٠٩٢ كيلو جراما من الدخان المعد للتدخين و ٥٤٥٧٤١٣ من الدخان المعد للنشوق و ١٢٤٦٣٤٩٩ من الدخان المعد للضغ واليك جدول الاستهلاك بالكيلوجرام في جملة سنين لمعرفة زيادة انتشار هذه العادة أوالآفة

سنة	دخان التدخين	دخان النشوق	دخان المصنع	مجموع الكميات المباعه
١٨٦٩	٢٢٦١٩٠٧٩	٨١٦٨٤٥٠	١٢٤٥٢٢٩	٣٢٠٢٢٧٥٨
١٨٧٤	٢١٣٤٨٣٢٢	٦٥٧٣٦٤٤	٠٩٦٢٥٩٥	٢٨٨٨٤٥٦١
١٨٧٩	٢٤٣٠٣٩٤٢	٦٨٢٧٦١٤	١١٦٥٦٨٢	٢٢٢٩٧٢٣٨
١٨٨٤	٢٨٠٥١٠٩٩	٦٧٠٢٦٥٩	١١٨٠٩٥٧	٣٥٩٣٤٧١٥
١٨٨٩	٢٨٧٨٤٦٦٠	٥٨٣٤٣٩٠	١٢٠٠٢٦٢	٣٥٨١٩٢١٢
١٨٩١	٢٩١١٠٠٩٢	٥٤٥٧٤١٣	١٢٤٦٣٤٩	٣٥٨١٣٨٥٤

ولاجل أن تكون المقارنة صحيحة ينبغي التنبيه على وجوب تنزيل نحو مليوني كيلوجرام من المقادير الخاصة بسنة ١٨٦٩ وذلك في نظير استهلاك أهل مقاطعتي الازراس واللورين فانهما انفصلتا من فرنسا بعد حرب السبعين ومن هذا الجدول يتضح ان مجموع استهلاك الدخان لم يتغير تغيرا محسوسا منذ سنة ١٨٨٤ وان استهلاك دخان التدخين قد ازداد بالتدريج بنحو مليون من الكيلوجرامات ومثله دخان المضغ ولكن النشوق أخذ في النزول بنسبة ٢٠ في المائة

وقد بلغت كميات الدخان المستهلك في مقاطعة السين وحدها (وهي التي بندرها باريس) في سنة ١٨٩١ نحو ٤,١٦٤,٧٩٠ كيلوجراما (منها ٣,٥٣٧,٧٧٨ للتدخين و ٥٣٧,١٥٧ للنشوق و ٨٩,٨٥٥ للمضغ) يقابلها في سنة ١٨٦٩ ٣,٦٩٨,٠٠٠ (منها ٣,٣٧٧,٨٥٠ للنشوق و ٧٥٣,٠٢٨ للتدخين و ٩٤,٨٣٥ للمضغ)

خزانة الكتب بباريس

اشتهرت هذه المدينة بالفوقان على غيرها في ميدان الخلاعة والجد فانها مقر الملاهي والبدع والمبتدعات ومركز المعارف والمعالي والمخترعات فلا يخلو أقل بيت فيها من خزانة كتب بحسب

حالة صاحبه وذوقه فكل أهاليها يقرؤون ويكتبون حتى ان سائق
العربة بل والكاس اذالم يكونا مشغولين بالسوق والكاسة يكونان
منكبين على القراءة والدراسة وبهذه النسبة يقاس ولوع القوم
بتثقيف العقول وتنوير الازهان كلما صعدنا في سلم الارتقاء الى
أعلى الطبقات ولأدنى الاقتدار على استيفاء الكلام في هذا
المطلب على خزائن الكتب في باريس ولكنني أذكر لمعايسيرة
عنها بغاية الايجاز حتى يتصور القارئ ماهيتها فيتمكن من الحكم
عليها

فان وجود الكتبخانات من اسمى الدلائل على ارتقاء المدنية
وضخامة العمران ومن أوجب الاعمال لتخليد الذكر وحسن
الاحدوثة حتى لقد سعى الملوك في جميع الاعصار في جمع الكتب
والعناية بها لينوه التاريخ بذكورهم في جملة المساعدين على نشر
المعارف وتوسيع دائرة العلوم أما الآن وقد اتسع نطاق العرفان
وساغت موارد التعليم للطالبيين فقد صارت العناية بالكتب فرض
عين على جميع الحكومات المتقدمة

المكتبة الاهلية - هذه المكتبة يكاد لا يكون لها مثيل
في العالم وأول من عنى بتأسيسها شارل الخامس ملك فرنسا في

سنة ١٣٧٥ فإنه جمع ١٢ ألف مجلد وجعلها بقصر اللوفر ثم
انها نقلت منه فيما بعد الى جهات أخرى
ولما جاء الملك فرنسوا الاول اهتم بها اهتماما خصوصا وزاد في
عددتها لغرامه بالمعارف وولوعه بالعلوم حتى انه نقلها الى قصره
في فونتبيلو لتكون على مقربة منه ثم ان الملك شارل التاسع
أعادها الى باريس ولكن ازديادها في كل يوم كان يوجب نقلها
من مكان الى آخر على انها مع كل هذه العناية لم تزد عن خمسة
آلاف مجلد في أول عهد الملك لويز الرابع عشر فاهتم حينئذ
وزيراه كولبير ولوفوا بشأنها وتقدمها اهتماما لا يزال مستمرا الى
يومنا هذا ثم توالت عليها الهدايا والوصايا من كتب بخط اليد
ومداليات وأحجار منقوشة ونقود ومبصومات وغير ذلك ولقد بلغت
المطبوعات فيها في سنة ١٧٨٩ ثلاثمائة ألف مجلد (٣٠٠٠٠٠)
ثم ازداد هذا العدد زيادة كلية في أيام الثورة الفرنسية بما توارد
عليها من الكتب التي انتزعت من الاديرة ومن قصور المهاجرين
حتى انه صار من المستحيل عمل فهرست أو برنامج للكتابة
واكتفى القوم بوضع الكتب المستجدة في أقسامها الخاصة بها
باعتبار الحروف الهجائية لاسم المؤلف
ومما يستحق الذكر انها صارت في دفتين عرضة لمصيبة

من أعظم المصائب ولم تنج منها الا بما بذله مستخدموها من شدة العناية وصادق الاخلاص فان البروسيانين لما حاصروا باريس في سنة ١٨٧٠ كانت المكتبة مهددة بالحريق في كل لحظة اذ لو وقعت عليها قنبلة لكانت أعدمت هذه الكنوز الثمينة الى ابد الابدین فلذلك كان أغلب مستخدميها يذهبون بالنهار الى الحصون والقلاع للدفاع عن المدينة ومتى جن الليل يرجعون الى المكتبة ويطوفون حولها خفراء عليها وبعضهم يصعد على أسطحهم للوقاية من هذا العدو المبین وهو النار ولما دخل البروسيانون باريس اجتهد عمال المكتبة في اخفاء أهم ما فيها من الكتب التي بخط اليد حتى لا تطمح اليها أنظار الفاتحين

ولما تم عقد الصلح وعادت السكينة الى ربوع فرنسا جاء خطر جديد لم يكن في الحسبان وهو ثورة الكومون وذلك انه لما زحف الثائرون من فرساي على باريس ودخلوها كانت النار تمهد السكتبخانة من كل جانب ولكن الله سلم

ولما عادت المياه الى مجاريها واشتغل الناس بالعلوم والمعارف اكتسبت المكتبة أهمية فوق العادة حتى لقد بلغ عدد الكتب التي وردت اليها في سنة ١٨٩٠ وحدها ٧٠٠٠٠ مجلد وعدد ما فيها من الكتب الآن يبلغ مليونين ونصف مليون

وإذا أضفنا إلى ذلك العدد ما هنالك من المجميع والكتب المكررة
بلغ العدد ثلاثة ملايين بالتقريب

ولا شك ان هذه الكنوز المتعددة تستوجب تحرير فهرست
واف بيان محتوياتها وقد راعت ذلك الجمعية التشريعية فأصدرت
بهذا المعنى أمرا عاليها في ٢ يناير سنة ١٧٩٢

ولكن كثرة الوارد حالت دون كل نظام غير ان عمالها قد
ابتدؤا في سنة ١٨٥٢ بتحرير أوراق منعزلة بالبيان الكافي عن كل
كتاب ورد للكتبخانة وقد كاد الفهرست العمومي يتم اليوم واعلم
ان المبلغ المخصص للطبع هو قليل جدا بالنسبة لحسامة العمل
فانه عبارة عن ١٠ آلاف أو ١٢ ألف فرنك فقط مع ان المتحف
البريطاني بلوندره يتفق في مثل هذا السيل ٢٠٦١٢٥ فرنكا
وفي غرفة المطالعة ٧٥٠٠ مجلد ويقابلها في مثلها في المتحف
البريطاني ٥٠٠٠٠ ولكن المانع الوحيد هو ضيق المحل في باريس
وكانت متصلة بعمائر ومساكن لبعض الافراد فقرر البرلمان مبلغ
١٠٠٠٠٠٠٠ فرنك لعزلها عنها فأجتهدت الدولة حينئذ حتى اشترت
هذه المباني وأضافتها إلى المكتبة لتوسيع نطاقها وعزلها عما يجاورها
بحيث أصبحت في سنة ١٨٨٢ بكزيرة تحيط بها شوارع أربعة
(١٦ - رسايل)

من الجهات الاربع وتلك العناية بقصد الوقاية من اتصال الحريق
اليها مما يجاورها وفيها مركز لرجال المطافئ وهي على أربعة
أقسام أولها قسم المطبوعات والخرائط والمجموعات الجغرافية وثانيها
قسم الكتب المخطوطة (التي بخط اليد) والنظامات السياسية
والاجازات أى الدبلوماسية وثالثها قسم الميداليات والاحجار المنقوسة
والقديمة ورابعها قسم المصومات . وفي الخزانة غرفة للطباعة
تفتح في كل يوم من الاسبوع حتى في أيام الاحد من الساعة التاسعة
صباحا الى الساعة الرابعة والخامسة أو السادسة الافرنكية من
المساء بحسب اختلاف الفصول وفيها غرفة أخرى للاشتغال
بالكتب ومراجعتها

فأما قسم المطبوعات فهو فريد في أوروبا يزيد على جميع
مكاتبها بكثرة ما فيه من الكتب النادرة المهدومة فانه وحده
يحتوى على ٢٥٠٠٠٠٠ مجلد من ضمنها الكتب التي ظهرت
أيام نشأة المطبعة أو التي طبعت في أشهر المطابع القديمة
وأما غرفة المطالعة ففيها طاولات عظيمة يجلس حوالها
١٠٠ مطالع بالراحة وفيها نحو ٢٥٠٠٠٠ مجلد من مجموعات
دورية وعلمية وموسوعات ومعاجم وأشهر الكتب المتداولة في
الآداب والعلوم والصنائع وغير ذلك وعلى عقود هذه الغرفة أسماء
أشهر الطباعين والمشتغلين بفن الكتب

وأما غرفة الشغل فمساحتها ١١٥٥ مترا مربعا ويمكن أن
يجلس فيها ٣٤٤ شخصا بكل الساعة والراحة وسقفها عبارة
عن ٩ قباب مغطاة من الداخل بالقيشاني ومتكئة على أسانيد
مقربصة من الحديد قائمة على ١٦ عمودا من الزهر ارتفاع كل
عمود منها ١٠ أمتار وحوالى هذه الغرفة دواليب فيها نحو
١٠,٠٠٠ مجلد من معاجم ومجاميع وغير ذلك وهي متصلة
بمخزنة الكتب الخاصة بها وفيها أكثر من ١,٢٠٠,٠٠٠ مجلد
ويتمصل بهذا القسم المجموعة الجغرافية ولانظير لها في أوروبا كلها
اذ جمعت فيها الدولة الفرنسية خرائط جغرافية للممالك والبقاع
والبلدان وأغلبها مصنوع بالجبس وفيه خرائط فرنساوية وأجنبية
من جميع اللغات ويبلغ عددها ٢٥٠,٠٠٠ خريطة
أما القسم الثانى ففيه أوراق وكتب من جميع اللغات
ومجموعها ٩٠,١١٩ مجلد منها نحو ٨,٠٠٠ من مينة بأشكال وتصاوير
وحروف مذهبة ومنزقة ويتبعه مجموعة من أوراق البردى
المصرى والاغريقى واللطيني وتعليمات شارلمان والعهود والعقود
من سنة ١٢٠٠ الى سنة ١٤٣٥ ومنشورين من البابا على
ورق من البردى تاريخه سنة ٩٩٩ وغير ذلك وفيه حجرة قد
وضعت فيها جميع مؤلفات فولتير فيلسوفهم وشاعرهم وأديبهم
ومؤرخهم المشهور وفيه أيضا صنابير مغطاة بالواح من الزجاج

تحتوى على أندر ما يوجد من المطبوعات والنخطوط ذات القيمة
الغالية تدل على أصول المطبعة والتجليد وغير ذلك وفيها كتب بنخط
اليد يونانية وشرقية وأمريكية وكنانية وكتب كانت ملكا للملوك
والسلاطين وتجليد عجيب بالعاج والباغية وأوراق بردى ورق
غزال وغيره وخطوط بعض المشاهير

أما القسم الثالث فأول من أسسه لويز الرابع عشر وهو
من أهم المجموعات المماثلة له في العالم فإنه يحتوى على أكثر من
٢٠٠٠٠٠ ميدالية وفي الدهليز الموصل اليه منطقة فلانك
البروج التي كانت بدندرة ومجلس أجداد تحوتس الثالث وكلاهما
أقيما بالفرنساوية من مدينة طيبة بالصعيد ويوجد به أيضا ألواح
قديمة من أحجار متسوعة عليها نقوش بلغات شتى مهجورة وفيها
أحجار دقيمة كريمة منقوشة أو محفورة بالتجويرف أو بالتبريزونقود
اسلامية وغير اسلامية وغير ذلك مما يطول شرحه

وأما القسم الرابع ففيه أكثر من ٢٠٠٠٠٠ قطعة
مجموعة في ١٤٠٠٠ مجلد و ٤٠٠ لوح من الورق المتسین
المعروف بالكرتون وفيها مبصومات تدل على تاريخ الفنون
في فرنسا من ابتداء القرن الخامس عشر الى عصرنا هذا وغير
ذلك

ونعني بالمبصومات تلك الرسوم المصنوعة بالريشة أو بالقلم

الرصا ص لكي تكون قاعدة في الطبع وهي بالنسبة لالواح الصور
الزيتية كالتبرجة للاصل

ولتسكلم الآن على ميزانيتها اظهارا لمزيد أهميتها فقد كانت
في سنة ٩٢ ٧٨٨٠٠٠ فرنك منها ٤٣٦ ألف للمستخدمين
و ٢٧٢ ألف للادوات والمهمات و ٨٠٠٠٠ للفهرست والمخصص
للمشترى من هذه المبالغ هو ٨٠ ألف فرنك وللتجليد ٢٥٠٠٠ فرنك
أما ميزانية المتحف البريطاني فانها تزيد على ٥٠ ألف جنيه
أى ٢٥٠٠٠٠ فرنك نصفها للمساهمات والنصف الآخر للمشترى
الكتب وتجليدها وغير ذلك نعم ان المتحف البريطاني فيه كثير
من المجاميع العلمية غير الكتب والآثار والمخلفات القديمة ولذلك
ينبغي لنا المقابلة بين قسم المطبوعات في كل منهما

ففي باريس ٦٠ مستخدم وعامل وفي مثله في لوندرة ١٢٢ مستخدما
وعاملا مرتبهم ٤٩٦٠٥٠ فرنكا وهذا جدول مقابلة المساهيات

(مكتبة باريس)

١	مدير عام	١٥٠٠٠	فرنك
١	سكرتير وصراف	٧٠٠٠	«
٤	امناء	١٠٠٠٠	«
٦	مساعدو أمناء	٧٠٠٠	«
٥٠	كتبخانجي ووكلاء وتحت التمرين	١٨٠٠ الى ٦٠٠٠	«

وغيرهم من أصحاب اليومية والكتابة

(المتحف البريطاني)

حافظ	١٨٧٥٠	فرنك
٤ مساعدون	١٢٥٠٠	من الى ١٥٠٠٠
١٣ معاون درجة أولى	٦٢٥٠	» ١١٢٥٠
» » ثمانية	٣٧٥٠	» ١٠٢٥٠
» » ثالثة	٢٧٥٠	» ٣٠٠٠
٤٦ فراش	١٥٠٠	» ٢٥٠٠

وكانت ميزانية المكتبة الاهلية في أيام لويز الخامس عشر عبارة عن ٦٨٠٠٠ لير أى فرنك منها ٤٦٤٦٩ للمستخدمين و ٢١٥٣١ لمشتري الكتب والادوات وفي سنة ١٧٧٨ بلغت ٧٣٠٠٠ ليره ثم ازدادت في أواخر حكم الملك لويز السادس عشر مبلغاً جسيماً جداً بالنسبة لذلك الوقت وهو ١٦٩٢٢٠ ليره وعشرة صلدى منها ٦٣٠٠٠ للمشتريات

كتبخانة سنت چنقياف (بقاين فارسيتين) - تحتوى على ٢٠٠ ألف مجلد منها أربعة آلاف بخط اليد وفيها زيادة على ذلك ٢٥ ألف لوحة مزدانة بنقوش بديعة وفيها خرائط قديمة كثيرة وبصومات وفيها غرفة مطالعة خصوصية تحتوى على أغرب

ما فيها من مجاميع وكتب بخط اليد ومطبوعة ونقوش وفيها
تمثال أرلرمش جيرنج أول من أدخل فن الطباعة الى باريس
في سنة ١٤٧٠ وغيره من المشاهير وفيها غرفة مطالعة عمومية
تسع ٤٢٠ شخصا وحواليها ستائر من صنع الجبلين تمثل المطالعة
وقد دهمها الليل وهو رمز الى الشغل النهارى والليلي في هذه
الغرفة

كتبخانة مازارين - وهي في جمعية المعارف وفيها ٢٥٠ ألف
مجلد منها ٦ آلاف بخط اليد

هذه هي أشهر المكاتب العمومية وفي المدينة مما يقاربها
مكتبة متحف الفنون والصنائع وقد قلنا انها تحتوى على ٣٠
ألف مجلد ومكتبة مدرسة فرنسا الجامعة وفيها ٤٣ ألف مجلد
ومكتبة مدرسة الفنون المتظرفة وقد قلنا ان عدد كتبها ١٢
ألف ومكتبة المجموعات التاريخية لمدينة باريس وفيها ٩٠ ألف
مجلد و ٧٠ ألف مبصوم ومكتبة مدرسة المعادن وفيها ٦ آلاف
مجلد ومكتبة بستان النبات وفيها ٨٠٠٠٠ مجلد ومكتبة الاوبرا
وفيها ١٥ ألف مجلد وكراسة و ٦٠ ألف مبصوم وفيها كثير
من الرسوم والتصاوير والتماثيل الخاصة بفن التشخيص والموسيقى

والقيان والقيانات وقد ذكرنا كتبنا أخرى في الفصل
المتقدم

واعلم ان لكل جمعية مهمة ما كانت غايتها ومذهبها ومشرعها
في السياسة والصناعة والعلوم مكتبة خاصة بها تعد المجلدات
فيها بالالوف وعشرات الالوف وكذلك الشركات والمدارس
والمكاتب العمومية ولاغلب الكتب خانات فترة معينة في السنة
تقفل فيها

العمائر الدينية في باريس

يوجد بهذه المدينة ٧٠ كنيسة (ذات أبرشية) غير البيع
الصغيرة التي قد لا يخلو بعضها من الأهمية والسائح الذي يريد
أن يقف على الدقائق ويكون له بعض احاطة عمومية بأحوال
البلاد التي يجوبها لا يصح له أن يغض الطرف عنها ولا يكتفي
أقتصر في هذه الخلاصة على بعض اشارات خفيفة وأقوال
وجيزة

كنيسة فوتردام - كان البناء في بنائها سنة ١١٦٥ ثم توالى
عليها التدمير والترميم والتكميل والتحويل والتبديل حتى استقرت
على ما هي عليه الآن منذ سنة ١٨٤٥ وطولها ١٣٣ مترا

وعرضها ٤٨ مترًا وارتفاعها ٣٣,٧٧ مترًا في المتوسط ولم يحصل
تكريسها الا في سنة ١٨٦٤ وهى من أجمل العماير التى فى فرنسا
على الطرز القوطى المنفرد بالشكل البيضاوى ويحف بواجهتها
برجان ضخمان وفيها كثير من تماثيل القديسين والقديسات
وغيرهم وملوك وأمراء وفيها جرس زنته ١٣ ألف كيلوجرام وجرس
مأخوذ من سباستبول حينما تحالف الفرنسيون والانكليز
وسرادنيا مع الدولة العلية أيدها الله على الروسية ولم يغلبوا
الروس الا على سباستبول وفيها وردة من الزجاج عرضها ٩ أمتار
و ٦٠ سنتى تمثل باشكالها وألوانها الحوارين الاثنى عشر وهم
مجمتمعون فى مكان واحد وفوقها سهم من خشب البلوط مغشى
بالرصاص مركب من ثلاثة أدوار أفرغ صانعه جهده فى تنسيقها
وتزويقها وهذه الادوار على شكل هرمى ويرتفع السهم عن الارض
بخمسة وتسعين مترا وثقله ٧٥,٠٠٠ كيلوجرام منها ٥٠,٠٠٠
من الخشب و ٢٥,٠٠٠ من الرصاص وفى داخل الكنيسة
٣٧ بيعة ومنابر متناهية فى الجمال يعظ فيها القساوسة الناس
وفى الخوروس أشغال فى الخشب تبهرا الا نظار خصوصا الترا كيب
والتراييع المعروفة بالعربية التى هى عبارة عن خطوط متشابكة
متلايكة متداخلة فى بعضها على طريقة أهل المشرق والاندلس

وفيه أرغن من أكبر أمثاله في فرنسا وأكلها يحتوي على ٦٠٠٠ ر.
قصبه لاجراج الهواء وتوقيع الانغام - وأهم ما فيها بصرف النظر
عن ضخامة البناء واتساع الارحاء وانتظام العقود وارتفاع القباب
انما هو خزينة الذخائر فانها تحتوي على مخلفات ثمينة مصنوعة من
الفضة الخالصة والذهب الصافي ومرصعة بالاججار الكريمة وأواني
مقدسة ومباخر والعباءة التي تردى بها نابليون حينما كرسه البابا
امبراطورا على فرنسا والتحف النفيسة التي أهداها الامبراطرة والملوك
والملائكة مارية انطوانيت وتمثال من الفضة للسيدة مريم عليها
السلام وصور وتمائيل رؤساء الاساقفة في باريس ومجموعة من
الاججار الكريمة محفورا فيها صور جميع الباباوات الماضين وجملة
صلبان وكؤوس وجامان وشمعدانات وغير ذلك من الخلي والملابس
المزركشة المرصعة التي تستخدم في الاحتفالات الدينية الكبيرة
وفي بعض الايام يعرضون على الجماعات المتقاطرة الى الكنيسة
صندوقا فيه اكليل الشوك وبعض المسامير التي يقال انها
استخدمت في صلب كلمة الله (عليه السلام) ويعرضون قطعة من
خشب الصليب أحضرها هي والا كليل والمسامير القديس لويس
من بلاد المشرق أيام الحروب الصليبية
وخلف هذه الكنيسة منزهه بديع يفضى الى مكان مريع

تقبض له النفوس وتصم من ذكره الأذان وهر المعروف عندهم
بالمورج تعرض الحكومة فيه الاموات الذين لا يعرف أهلهم حتى
إذا استدل عليهم أحد من العموم أرشد جهات الادارة عنهم وقد
زرتهم ورأيتهم يحفظون العرقى والمعتولين والمسنوقين وغيرهم مع
العناية المتناهية والاحتراسات الواقية فلا تخرج منهم رائحة
مطلقا وليس منظرهم بشعا مشوها بل تراهم كأنهم ينام لابسين
ملابس لائقة ولا يظهر منهم الا وجوههم

البيعة المقدسة - بنيت في سنة ١٢٤٢ وتمت بعد ذلك بخمس
سنين وهي في باريس كالدارة اليتيمة في العقد النفيس خصوصا
سهمها الذي لم ير الرأون أبدع منه في الحسن والجمال وهي أقدم
وأجل ما في باريس من العماثر القوطية بناها الملك لويس التاسع
القديس ليضع بها الاكامل الشوكي والمسامير وقطعة الخشب
التي سبق لنا الكلام عليها بعد أن اشتراها من بودوين الثاني
ملك القسطنطينية وقد استخدمت حينئذ من الدهر كاستودع
للمحفوظات القضائية ولكنهم رموها الآن كما ينبغي واقتضت
العمارة فيها ثلاثين سنة من الزمان وبظاهر وجهتها تمثل الملك
لويس وشقيقه لويس الاسقف وفوقهما تمثل العذراء عليها
السلام والبيعة من الداخل تتلأأ بالزخرفة الفاتنة والنقوش

المذهبة وهى على شكل بيعتين احدهما فوق الاخرى فأما السفلى فلا تستعمل الآن فى تعبداتهم الدينية وأما العليا فيحصل فيها القداس فى يوم ١٦ اكتوبر وقد كان القضاة بالمحاكم ملزمين بحضوره قبل هذا الزمان وبجانب سوارىها تماثيل الخواريين الاثنى عشر وفيها من الشبايك ما يهر الابصار وتحر فيه الافكار من انسجام ألوان الزجاج وتناهى بهائه وصفائه مع الاحكام فى التنسيق والاجادة فى التزيق وفوق البوابة وردة من قطع الزجاج تقرر رؤيتها العيون وتعرف بجمالها العقول

كنيسة سنت أوستاش - أحسن الاوقات لزيارة هذه الكنيسة المتناهية فى الضخامة يوم الاحد اذ يكون فيها تلحين الآلات الموسيقية وتوقيع النغمات الصوتية بكيفية تطرب لها الاسماع وهى شبيهة ببعض القصور العربية من ان خارجها لا ينبئ بشئ عما فى داخلها من الزخرفة والاتقان فان واجهتها وجهاتها من الخارج حقيرة بالنسبة لما يكمنه داخلها من متانة الصناعة وجمامة المقادير وضخامة الاجار وارتفاع العقود ارتفاعا متطاولا واتساع الاقواس اتساعا هائلا حتى ان الانسان ليخال له انها أعدت للتحصن والاعتقال وكان البدء فى تشييدها فى سنة ١٥٣٢ وفتت فى سنة ١٦٤١ ولذلك فهى ليست على مثال واحد أو من

طرز متجانس من الطرازات المتعارفة في فن العمارة ولكنها من
أجل كائن باريس وأكثرها زخرفة وتزويقاً وطالما مررت عليها
ولم تكن نفسى تحدثني بضيق الوقت في الدخول إليها ولما
شاهدتها رأيت أنها بعكس خضراء الدمن ظاهر قبيح وباطن مليح
ولا أرى من حاجة للكلام الآن على ما فيها من المصنوعات
والتحف والنقوش في الرخام والمعادن والاحجار أو البيع الكثيرة
المشحونة بالزخارف والطرائف أو زجاج الشبايك أو منابر الوعظ
أو مفاتيح العقود التي تربط الاقواس والحنايا ولكني أقول ان
الضياء فيها أكثر منه في أمثالها كما أن هواها أجود وأخف على
الروح وقد دفن بها كثير من مشاهير الفرنسيين مثل كولبير
وزير لوزير الرابع عشر والقصصى لافونتين الطائر الصيت الخلد
الذكر وغيرهما من كبراء رجال السيف والقلم والحل والعقد والادب
والحسب

كنيسة سنت جرمان لو كسروا - هي في ميدان اللوفر بنيت
في القرن السادس للميلاد وكان ملوك فرنسا يحضرون القداس فيها
ثم نوات عليها الايام واتفق ان النورماندين اعتقلوا بها في سنة
٨٨٥ ثم جعلوا عاليها سافلها فأقام القوم بناءها في أوائل القرن
الحادي عشر ثم شرعوا في تجديد معالمها وتغيير أوضاعها ولم يتم

تشبيدها في هذه المرة الثالثة الابعة - د مضي ثلاثة قرون من
الزمان وانما ذكرت هذه الكنيسة لشهرتها في التاريخ اذ انه في
ليلة ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ (وهو اليوم المشهور بواقعة
سنت بارتلمي التي قتل فيها الكاثوليكيون البروتسانتين قتلا ذريعا)
اتفق المتحالفون المتمثلون على ان يتدووا في العمل حينما يدق
ناقوس هذه الكنيسة للايذان بقداس الصباح وفي يوم ١٣
فبراير سنة ١٨٣١ أقيم فيها احتفال جنائزي عن نفس دول
دوبري ولكن احزاب الثورة التي حصلت في يوليو اولوا هذا
الاحتفال تاويلا فاسدا واتخذوا ذلك ذريعة للتشجيع على
الكنيسة فباعتها العوام والطعام ونهبوا كل ما فيها من النفائس
والاعلاق ثم أقفلت الكنيسة وجعلت مقرا لدار أمانة المدينة
مدة سبع سنين فانها في ١٣ مايو سنة ١٨٣٧ أعيدت الى
وظيفتها الاولى

أما داخلها ويبيعها فمثل الكنائس الاخرى ولكن احدى هذه
البيع تمتاز بكثرة الزخرفة على الطراز القوطي وفيها بيعة أخرى
تحاكي برسومها وزجاجها البيعة المقدسة التي ذكرناها
كنيسة سان سولپيس - هي عبارة عن عمارة بالغة في
الجمال متناهيته في الاتساع كان وضع الحجر الاول فيها بحضور

الملكة انه دوتريش Anne d'Autriche في سنة ١٦٤٦ وواجهتها
عبارة عن سوارى قائمة على بعضها بشكل يروق الانظار فيمابين
البرجين الشاخصين وفي دائرها من الداخل بواكى واسعة تملؤها أساطين
ممتنة وبيع متعددة تزيد في بهجتها وفوقها قبة مزخرفة بصور
ونقوش من صنع بعض الماهرين في هذه الفنون وفي وسط صحنها
مسلة من المرمر يمر عليها خط من النحاس للدلالة على الاتجاه الشمالى
وفيه المنبر للوعظ في غاية ما يكون من الحسن أمر بصنعه المارشال
ريشليو وفيها عدا ذلك أشياء كثيرة لاتستحق الذكر الآن سوى
الارغن فانه من أكمل وأجمل ما يوجد من هذا القبيل والقوقعتان
العظيمتان اللتان يوضع فيهما الماء المقدس وهما هدية من جمهورية
البندقية الى فرانسوا الاول وسيل فاخر محاط بتماثيل بوسويميه
وفنلون وماسيليون وفليشيه وهم من أهم وعاظ الكنيسة وادباء
الفرنساوية في عصر لويز الرابع عشر

البانتيمون - مجرد ذكر هذا الاسم يشعر بالعظمة والجلال
ويبعث في النفس هيبه ووقارا وفي الفؤاد اجلالا واكبارا كيف
لا هو مستودع لبقايا الذين خدموا العلوم والفنون وسعوا في تعزير
وطنهم وترقية بلادهم حتى جعلوا لها بين الامم مقاما محمودا وفضلا
مشهورا ولا يدخله انسان الا وتداخله السكينة والثؤدة فيسير

فيه على أطراف الاقدام ملازما الصمت التام بل تكاد تخرج من فيه ألفاظ التحية والسلام على عظام هؤلاء العظام (والپانتيون كلمة يونانية من پاس أى جميع وثيوس أى اله ومعناها المعبد المخصص لجميع الآلهة مثل الكعبة في أيام الجاهلية وكثيرا ماتستعمل للدلالة على التعظيم والاجلال للذين يقوم بهما الخلق في حق المشاهير وأهل الفضل فيقولون ان فلانا له مقام معين في پانتيون التاريخ وهكذا)

بنى هذا المكان في سنة ١٧٦٤ وجعل كنيسة باسم القديسة سنت جنيفياف (بجيم وفامين فارسيتين) راعية باريس وحاميتها ثم جاءت الحكومة الاتفاقية في سنة ١٧٩١ فغيرت ماوضع له ومنعت العبادة منه وأطلقت عليه اسم پانتيون وكتبت على واجهته هذه العبارة الوجيزة في الكلمات البليغة في المعاني والدلالات

(عظام الرجال شكر الاوطان)

(Auxgrands hommes, lapatrie reconnaissante.)
فلما آل الامر والسلطان لعائلة بوربون ورجعت الحكومة الملوكية أعيد پانتيون الى أصله حتى كانت الثورة في سنة ١٨٣٠ فسمى پانتيون مرة ثانية واستمر كذلك مدة ٣١ سنة الى أن جاء الامبراطور نابليون الثالث فأصدر تقليدا ملوكيا يقضى باعادته للديانة باسم سنت

بحثثافياف ولكن الحكومة الجمهورية الحالية أصدرت أمرا عاليا
في يوم ٣٢ مايو سنة ١٨٨٥ عقيب وفاة فيكتور هوغو مباشرة
بإعادة اسم البانتيون للمرة الثالثة وبعد صدور هذا الأمر بأيام
قليلة احتفل الفرنسيون قاطبة بنقل جثة هذا الشاعر العظيم
الى البانتيون ودفنوها بجانب مقبرة جان چاك روسو وفولتير
وميرابو وكان هذا الاحتفال بالغيا في العظمة بحيث لم يسبق له
مثال وقد اشتركت فيه الدولة بصفة رسمية والامة بإجمعها ممن في
فرنسا وفي الخارج واعلم ان واجهة هذا الهيكل قائمة على اثنتين
وعشرين اسطوانة وفوقها نقوش بارزة تمثل الوطن واقضايا
الحرية والتاريخ وهو يوزع أكاليل المجد وشارات الفخار
على عظماء الرجال مثل بونابرت من جهة اليمين ومن جهة اليسار
روسو وفولتير وميرابو ودافيد وغيرهم من رجال فرنسا المعدودين
وطول هذه العمارة الفخيمة ١١٣ مترا وعرضها ٨٥ مترا
وفوقها قبة (قطرها ٨٣ مترا)

أما داخله ففيه كثير من التماثيل والصور الدينية والتاريخية
التي لها علاقة بالمدينة ولا حاجة لتفصيلها الآن أما القبة فهي
عبارة عن ثلاثة قباب فوق بعضها وفيها كلها نقوش لا يستحق

الذكر منها الاما يستجاب الانظار في القببة الثانية من الرسوم التي تصور الموت والوطن والعسك والجمد وعلى العمدان التي تستند عليها القببة يرى الانسان ألواحا مزدانة باسماء أبناء الوطن الذين ماتوا في سبيل الدفاع عن القوائين والحرية في ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ يوليو سنة ١٨٣١ وسأتكلم عليهم بمناسبة العمود الذي أقيم لاحياء ذكرهم ومما ينبغي تنبيهه الشرق اليه من الرسوم الكثيرة المزدانة بها جدران هذا الهيكل الصورة التي تمثل الامبراطور شارلمان وهو يعيد العلوم والآداب بعد اندراسها ويفتح المدارس ويؤسس المكاتب ويستقبل وفود الخليفة هارون الرشيد ومعهم من قبل أمير المؤمنين مفاتيح القبر المقدس هدية منه لهذا الملك العظيم الشأن وهناك طنفسان من ستمائة الجبلين قيمتهما ١٠٠٠٠٠ فرنك (أربعة آلاف جنيه انكليزي تقريبا)

ومن سعد الى أعلى قمة القببة رأى أبهى المناظر وأحسن المرائي اذ يكون مشرفا على باريس وطرفاتها وقصورها وحركتها أما الدور الذي تحت الارض فهو عبارة عن جلة مغائر منقسمة الى أروقة منتظمة يتردد فيها الصدى بكيفية تقرب مما رأيته بل سمعته في رومة ويثشة وكنيسة القديس بولس بلوندره والووفر ومحفظ الفنون والصنائع بباريس وغير ذلك وفيه

قبور كثير من عظماء فرنسا الذين يتفاخر بهم ابناؤها اذ اجتمعهم
المحافل

وقد كان رجوعي الى باريس عقيب وفاة رنان يبضعة أيام
وكانت الجرائد ورجال السياسة مشتغلين بمسئلة نقله الى البانتيون
وكرر حديث القوم بهذا الشأن الى درجة لا يمكن تصورها وجررت
مسئلة رنان الى التحدث بنقل غيره من مشاهيرهم أيضا فقدم
وزير المعارف مشروع قانون لمجلس النواب لكي يصادق عليه
حتى يكون نقل بقايا رنان بمقتضاه وقد قال الوزير في تقريره
مامعناه (ان حكومة الجمهورية تقترح على المجلس اشراك ميشليه
وكينيه مع رنان في هذا الاجلال والتعظيم فانهم وان اختلفت
ملكاتهم وتباينت أفكارهم ومصنفاتهم فلا تزال بينهم رابطة
لا يمحوها مرور الزمان اذ كانوا كلهم اساتذة في مدرسة فرنسا
وقد أنشأها مؤسسها لخدمة المعارف الحرة وهم كلهم قدجاهم ودوا
لتأييد الاستقلال فيما يتعلق بابداء الافكار وكلهم احتملوا الشدائد
وقاسوا المصاعب في هذا السبيل)

ولكن الجرائد وبعض اعضاء مجلس النواب شطوا في الطلب
وتغالوا في نقل عظام بعض المشاهير الى البانتيون وكثير منهم
أخذ في التهزيب والتهكم وفريق آخر في نحت كلمات مستنفرة

من لفظة باتيون وهكذا مما هو شأن الجرائد في هذه البلاد عند حلول أى حادث يستلقت الانظار فقام جماعة بطلب نقل عظام بعض البارعين فى توقيع الانعام وآخرون منتصرون لنقل بعض المؤرخين أو رجال السياسة أو المعارف أو النظم أو الادب أو التصوير أو الطب أو نشر الكتب أو الكيمياء أو الاقتصاد أو اللغات أو أعضاء مجلس النواب أو غير ذلك وقام بعض النواب بطلب نقل بقايا تيارس المشهور فردت عليه أخت زوجته بكتاب أرسلته الى كافة الجرائد ترجوه فيه العدول عن هذا الطلب لان زوج شقيقتهما كان على الدوام يعرب عن رغبته فى أن تدفن عظامه بجانب أهله وقالت له فى ختامه (انى أسألك ان تتكرم بالكف عن اقتراحك وأن تترك الموسىوتيارس بعيدا عن اضطرابات السياسة فى مكان الراحة والسلام الذى اختاره أهله له) وبمثل ذلك أجاب بعض ورثة الشاعر المشهور لامرتين والمؤرخ ميشليه برفض نقلهما الى الباتيون وغيرهما وغيرهما وأرأيت كثيرا من الجرائد المعتبرة والثانوية اتخذت هذه الحوادث فرصة لاستعمال الفاظ الطيش والخفة فيقولون

عقود الباتيون الباردة - خباياه المظلمة - زواياه المحزنة
- هيكل الملل - مدفن عظماء الرجال الذين يؤدى لهم الوطن

ما عليه من دين الشكران بشح وتقدير - ان هذه العمارة التي اجترمتها
يدافلان (كان انشاء هذا البانتيون جريمة لانعتفر) اراها لا تحتوى
على شئ من الابدال الذي يتصور القوم اتحاف عظام العظماء به
بعد وفاتهم - ان دانث الشاعر الطلياني الذي كتب على الجحيم
لواطلع على هذه الاروقة الصاعدة ليعلمها في سقر وبئس المستقر
وأمثال ذلك من عبارات السخرية التي لا أتذكرها

وبمناسبة هذا البانتيون أذكر خلاصة موجزة على العمائر المشاكلة
له في بعض البلاد التي مررت عليها فاني رأيت في معظم الكنائس
التي تفرجت عليها ان لم أقل كلها قبورا لمشاهير أبناء الوطن
ومن أهم ما يستوقف أنظار المتسوح في أوروبا عند قدومه الى
إيطاليا البانتيون الروماني القديم وفيه الآن قبر الطيب الذكر
فيكتور عمانويل وفي كل سنة يتقاطر الطليانيون الذين اشربت
قلوبهم بحب الوطن الى هذا المكان ويزورون هذا القبر بغاية
التبجيل والتوقير وبجانب الملك قبر زفائيل الرسام المشهور وغيره
من النابغين في الفنون المستظرفة وفي فلورانس مكان يسمى
سنتا كروتشي (الصليب المقدس) ويسمى بانتيون إيطاليا لانه
يحتوى على كثير من تماثيل عظمائها في كل فن ونوع من التصوير
والادب والفلسفة والموسيقى والنحت والنقش والسياسة والدولة

والعلم الطبيعي وبعض أعضاء العائلة الملوكية وغيرهم ممن كان
يندرس ذكرهم لولم يكن اسمهم منقوشا على الرخام ومعروضا
لانظار العامة والخاصة على الدوام ولا أطيل الكلام بذكر مافي
المدائن الاخرى وأذكر مافي لوندرة فكل الصيد في جوف القرى
فان دير ويستمينستر هو أحق هذه العائز باسم البانتيون أى الاثر
الذي يقيم الوطن الشاكر لابنائه فضلهم العارف لهم حق خدمتهم
وذلك لان من يريد أن يقف حقيقة على عظمة الامة الانجليزية
ومجدها في التاريخ ينبغي له أن يذهب الى هذا الدير الذي يحتوى
على أكثر من ثلاثمائة أثر أقامها الوطن لعظماء الرجال في
السياسة والعلوم والموسيقى والفلسفة والشعر والسياحة والملاحه
والاستكشاف والاستنباط وتشخيص الروايات وأعضاء العائلة
الملوكية وكل من عاون على اعزاز انجلترا ورفع منارها بابه كينية
من الكيفيات ولاشك ان الرجل من أبناء بريطانيا العظمى حينما
يدخل الى هذا المكان ويطوفه ويقراً ما فيه من الاسماء يكبر في
عين نفسه ويرى من الواجب عليه ان يبذل كل جهده ليكون
جديرا بالانتساب الى هؤلاء الاجداد ولا يكتفى بان يقول كان أبى
أوصنع قومي

جبانات باريس

كانت المدافن في هذه المدينة بجوار الكنائس فأقصتها الدولة الى ما وراء المساكن حفظاً للصحة وتوسيعاً لنطاق البلد ويبلغ عددها الآن ٥٩ جبانة منها ١٣ داخلية في حومة باريس والباقي خارجها وأجددها بزيارة الغريب ثلاثة فقط وأهمها وأكبرها مقبرة الاب لاشيز ولذلك توجهت اليها ثلاث مرات في ثلاثة أيام لانتظامها واحتمائها على كثير من عظماء الرجال

هذه المقبرة كائنة على رابية ذات انحدار خفيف ويبلغ مسطحها ١٣ هيكتارا وكانت ملكاً لرجل من اليسوعيين اسمه الاب لاشيز (كان أمين سر الاعتراف للملك لويز الرابع عشر)

ولهذه المقبرة ذكر متواتر في روايات الفرنسيين وأقاصيصهم مما يتعلق بالغرام ولكن أشهر ما وقع فيها انما هو المقاتلة العنيفة بل المذبحة الشنيعة التي حصلت في ثورة الكومون

كان انشاء هذه الجبانة وهندستها في سنة ١٨٠٤ ثم أخذت بعد ذلك في الاتساع والامتداد من جهة المشرق حتى أصبحت الآن عبارة عن ٣ هيكتارا أو ٩٤.٠٠٠ متر وعدد سكانها وحدها ٣ مليون أي أكثر من الاحياء في باريس كلها وفيها

١٥٠ طريقا ويمر تحتها نفق لسكة حديد الحزام التي تمر حول المدينة فيكون الاحياء تحت الاموات وفوقهم وليس فيها شيء مما يقبض النفوس ويرزع الناظرين بل يعتبرها كل من زارها كأنها من أحد المنتزهات البديعة وخصوصا حينما يتجول فيها الانسان تاركاً نفسه مع تيار الافكار متأملاً في هذه الحياة الدنيا ثم يقف من غير قصد فيقرأ الاسماء التي على القبور ويرى بينها بالصدفة اسم رجل عظيم أفاد الوطن أو الانسانية بكتابه أو أعماله فاني كنت في هذه الحالة يحصل لي انشراح عظيم كأنني أكتشف أمراً جليلاً أو وقفت على سر نافع وتعرفت بالرجل ذاتيا خصوصا وان قبور العظماء ليست كلها على حافة الطرقات أو في المواضع التي تستوقف الانتظار فتري العالم بجانب الزارع وبعدهما صانع يخلفه شاعر يتلوه مؤرخ فتباحر فرجل حينما اتفق فقائد كبير أو أمير شهير أو فيلسوف نابغ أو محسن فاضل الى غير ذلك من جميع أصناف الناس وطبقاتهم وأذكر الآن بعض الذين وقفت أمام قبورهم وتذكرت أعمالهم وما استفدته من تأليفهم أو الذين سمعت بشهرتهم مكتفيا بذلك الاسم لعدم الاطالة واعدت نفسي بالإشارة في الرحلة الى أعمالهم مثال ذلك فيسكوندي وروسيني والفريددومسيه ولونوار وفاقين ومادام بلان وإرازو وفولپيني وفيرون وأورنانو ومادام هوازو

ومادام ماري رويّر ومورل ووالسكي ولازارچو وزنيا تاللي والاثر
المقام للعساكر الفرنساوية الذين قتلوا في الدفاع عن وطنهم في حرب
سنة ١٨٧٠ المشهورة والاثر المقام للحرس الأهلّي الذين قتلوا
في الحرب المذكورة وفريدشليمه وآدم والكونتس داجولت ودوسيز
وسوليه وكاموس وبرجيه والاثر المقام لتيارس المشهور ومنه يرى
الناظر أمامه قبّة البانتيون ثم قبر بلانكي وبيار ومد موازل الوتر
ومدموازل دوچنيليس ولاپلام وغرسية ومولير بجانب لافونتين
وجي لوساك ومقبرة لهوجو سان سيمون ووينچامين كونستان
وماكدونلد والجنرال فواو بيرانجيه وبومارشيه وسكريب وقولني
وجرامون ولوبل والمقبرة التي أعدت لها سارة برنار لنفسها وهي تتعهد لها
في أوقات كثيرة وقبر أبدي والمقبرة المخصصة للمسلمين الذين يتوفاهم الله
في باريس وقبر مدوازل دوشسنا وتالپيران ولافيت ومقبرة دلوسس
وآندريوورسپاي ومونچ وكازمير پيريه وفونتان وديدو ومقبرة
الاسرائيليين وفيها ميشل ليقي (لاوي) وروتشليد وما دام فولد
وراشل (راحيل) المشخصة المشهورة وغيرهم ثم قبور پاچيس وچيريكو
وبليني ودنون ودلامبر ورأيت أثرا يشبه ضريحاً مكتوب عليه
ما هذه ترجمة (مقبرة الاب الابدي) وأقول انهم يعنون بالاب الابدي
المولى الواحد الاحد الذي لم يلد ولم يولد تعالى الله عما يصفون

وانما ذكرت هذه العبارة من باب الغرابة والعلم بالشيء ونقل
الكفر ليس بكافر وبعدها استغفرت الله تزهت صفاته وتقدست
اسماؤه مررت كعادتي فرأيت قبر شيمية وكوفيه ومنتمون
ولارورولين وكوسين ومالهرب وأوبير وأراجو ومدموازل
لوفورمان الكاهنة العرافة المعروفة التي انبأت نابليون بجميع وقائعه
في المستقبل بواسطة ورق الكتشفة بغاية الضبط وعمام التدقيق
وكان كما قالت من غير تحريف أو تبديل وقد اتفق انها حوت
بجملة مرار وكانت على الدوام تقول للقضاة انكم انما تتعجبون
أنفسكم سدا وتضيقون أوقانكم عشا فاني لأموت الابد
سبعين سنة (أو عدد آخر لا تذكره الآن) وبالفعل كانت
وفاتها في الوقت الذي أخبرت به وقبور بول بودرى ولويس دافيد
وكسافيه بيشا ولافوازييه وبرناردان دوسان بيروشيرويني
المارشال فيكتور والاثر المقام للذين ذهبوا فريسة الحوادث في
شهر يونيو سنة ١٨٣٢ وقبرنيلاتون وشامبوليون وكالمران
وجوفوان سان سير والجزال جوير ودوپويترن ولافاليت وسوشيه
ودافيد دانجيه وبود والمارشال لوفتر وماسينا وبييسكو والمارشال
مورتييه والمارشال ني والمارشال لوبو وراسين وجوفروا سنت
هيلير ورميدوف وبراديه ودزوييه واللان كارديك والمشنخة

دجارت وبالزنا وأوجين دولا كروا وقبر العلامتين كروسى سبينالى
وسيقل وقدماتا شهيدين فى سبيل المعارف حينما صعدا فى
الجو بالقبة الطائرة الى طبقة عالية جدا وحققا أمورا كثيرة مفيدة
ثم سقطت بهما فلم تقم لهما بعدها قائمة وقبر الكونتس داجو
صاحبة التأليف المشهورة التى أخفت فيها اسمها حيث اتست
بداينيل سترن وغيرهم من المشاهير الذين يطول ذكركم فى هذه
الورقات وهنا انبه القارئ الى أن بعض الاكابر الذين ذكرت
اسمائهم يوجدون مدفونين فى جهات أخرى من باريس أوفى مدائن
غيرها ولكن الحكومة جعلت لهم قبورا فى هذه الجبانة احياء
لذكركم وتنشيطا للاقتداء بهم وليس فى هذا شئ من الغرابة
بالنسبة لعناية هذه البلاد بعظماؤها بل الاغرب والاعجب انى
رأيت ضريحاً نفيساً عليه تمثال رجل وامرأة بجانب بعضهما
وفوقهما قبة لطيفة على ٤٤ رشيقة تحف بهما أشجار صغيرة
وأزهار نضرة وقرأت عليهما هذين الاسمين (هيلاويدس وأبيالار)
وصار اسمهما علما على المحبة الزوجية الصادقة الحقيقية وقد
أحضر هذان التمثالان الى باريس وعينت الدولة بوضعهما فى هذه
المقبرة فى مكان لطيف وقد علمت انه متى اصطحب فتى بفتاة وتبادلا
عهود المودة الحققة والالفة الصادقة وشرعا فى عقد الزواج يأتیان

في كثير من الاحيان في اوقات خلو المقبرة من الناس ويضعان
الازهار والاكاليل على هذا الضريح تيمنا بنبات الوداد وتفاؤلا
بتبادل الصداقة من الطرفين وقد رأيت أيضا عمودا أقامته
الحكومة كأنه قبر لكل من يموت غريقا فيعتبره أهل الميت قبره
ولذلك تترك عليه الاكاليل في بعض المواسم بما يفوق العدد
والوصف

وقد وافق وقوع مولد جميع القديسين أيام مقامى بباريس
فاغتتمت هذه الفرصة وتوجهت لهذه المقبرة لكي أقابل ما أراه
فيها بما هو جار عندنا وهذا اليوم يسمونه عيد الاموات وقد نزل
المطر رذاذا طول النهار ولكنه لم يمنع أهل باريس من التوجه الى
مقابر أهلهم وذويهم ووضع الاكاليل والازهار عليها كما هي عادة
الافرنج ولاأذكر شيئا عن تراحم الجماهير في هذه المقبرة التي زرتها
حينئذ وأكتفي بذكر العدد وقدره ٤٨,٣١٠ ومع ذلك فقد قال لي
الثقة ان الازدحام كان أقل مما في الاعوام الماضية وقد بلغ عدد
الذين توجهوا الى جميع الجبانات (بما فيها الاب لاشيز) ١٩١ و٢٦٧
ولوفرنا ان نصف هذا العدد كان حاملا لازهار ثمنها في المتوسط
قرنك واحد لتحصل عندنا ٥٣,٤٢٤ جنيا انكليزيا (منها نحو
٢,٠٠٠ لعمود الغرقى الذي ذكرته) وهو أقل مما يمكن تقديره لان

الفقير منهم يقتر على نفسه ويقتصد من مأكله ومشربه عند اقتراب هذا الموسم لكي يتمكن من شراء الكليل يهديه الى فقيدته العزيز المحبوب فان عادة اهداء الاكليل متمكنة عندهم الى درجة لا يتصورها العقل بل انه كثيرا ما يتفق ان الرجل أو المرأة يموت جوعا واذا طلب من أصحابه وأصدقائه شيئا يستعين به على سد رمقه أجابوه بالرفض فاذا ماتت عصارى النهار أو في اليوم الثاني بادرت الجماعة التي ينتمى اليها (مصورين - حدادين - نجارين - طحانين أو أعلى أو أدنى من ذلك) بفتح قائمة قد تبلغ قيمتها مئات من الفرنكات فيشترون بها رجا ما يضعونه على قبره و اكليلًا يحتملون بايداعه عقيب دفنه

وأذ كر بمناسبة الاحتفال بالاموات ان الفرنسية اشد الامم الذين رأيتم اعتبارا لليت حتى انه متى مرسرير الجنازة يبادر الرفيع قبل الوضيع برفع قبعته اجلالا واعظاما مهما كانت درجة الذي فارق الحياة الدنيا

وقد قرأت في الجرائد بمناسبة عيد الاموات ان جميع الفرنسية الذين في برلين توجهوا بصحبة أعضاء جمعية محبة الانسانية وموظفي سفارة الحكومة الجمهورية الى قبر العساكر الفرنسية الذين قتلوا في برلين اثناء حرب سنة ١٨٧٠ وان وفدا حضر من فرنسا الى

هذه العاصمة لهذه الغاية وكذلك جرت جماعة الفرنسية المتوطنين في بروسل عاصمة البلجيكا على عاداتهم فتوجهوا في احتفال عظيم الى الاثر المقام لاحياء ذكر الجنود الذين ماتوا في خدمة وطنهم وكان السابق في هذه المظاهرة المليمة القومية اعضاء غرفة التجارة فانهم وضعوا على الاثر كايلا جيلا عليه هذه العبارة (من اعضاء غرفة التجارة الفرنسية ببروسل الى مواطنيهم الذين ماتوا في سبيل الوطن - اول نوفمبر سنة ١٨٩٢) ثم جاءت جمعية التعاون الفرنسية ووضعتا كايلا في غاية الاتقان مصنوعا من الحديد المطروق وعليه هذه الكلمات (الى الجنود الفرنسية الذين ماتوا لاجل الوطن في سنة ١٨٧٩ وسنة ١٨٧١ - من جمعية التعاون الفرنسية ببروسل سنة ١٨٩٢) ثم وقف الرئيس على سطح الاثر والتي خطابا لابس من تعريبه في هذا المقام وهو

أقيمت الاثار وشيئت الانصاب في كل مكان سقطت فيه العساكر اثناء دفاعها عن الوطن في سنتي ٧٠ و ٧١ فسواء في ذلك المدائن الكبيرة والكفور الحقيمة

وقد اختار النزلاء الفرنسيون منذ بضعة سنين هذا اليوم اول نوفمبر لتمجيد سيرة اولئك الشجعان الذين أثنى عليهم الجراح وفقدوا بعض الاطراف والاعضاء فلادوا بهذه الارض أرض بلجيكا لتقضية ما بقى من أيامهم فيها

ومن الامور المستعذبة الموجبة للتسليمة الباعثة على العزاء أنهم
مع بعدهم عن مسقط رأسهم وأرض اجدادهم قد صادفوا هنا
عناية أخوية جديرة بالمدح والثناء - ان بلجيكا كرمت ممثليهم
وعاملتهم بالحسن - فهذه العبارة الجميلة المنقوشة بحروف من
الذهب على هذا القبر العام الذي ضم بقاياهم يكون فيها ذكرى
لللاجيال الحاضرة والآتية بما اصطنعته بلجيكا من العمل المدوح
المجود واليد المشكورة المبرورة

ولنا الهناء نحن اعضاء جمعية التعاون الفرنسية على مجيئنا
الى هذا المكان نشرفيه على قبور هؤلاء العزاز تلك الراية المثلثة
التي كانوا يسيرون تحت ظلها في ميادين القتال - فلتحي بلجيكا
ولتحي فرنسا اه

وقد أصغى جميع الحاضرين الى هذا المقال بغاية الرعاية
والاجلال وعند ما أتم لرئيس كلامه أبدوا كلهم علائم الاقرار
والاستحسان

بعض الاعمدة والبوابات

والفساق وبرج ايفل

ان الاعمدة الازرقية في باريس هي ثلاثة أولها وأقلها أهمية عمود
سواسون وهو الازرق الوحيد الذي بقي من القصر المعروف به - هذا

الاسم وارتفاعه ٣٠ مترا ويقال انه كان مرصدا لمنجم الملكة
كاترينة دومديس كان يراقب فيه حركات الافلاك واقتران
الكواكب ليتمكن من اخبارها بالكائنات قبل كينونتها وفي
داخله سلم يوصل الى قمته وفي اعلاه منزلة شمسية

والثاني هو عمود قاندوم في الميدان الجميل البهيج المعروف
بهذا الاسم وهو مسبوک من بروز ١٢٠٠ مدفع اغتمتها الجيوش
الفرنساوية في الوقائع الحربية وتمت اقامته في سنة ١٨١٠
وارتفاعه ٤٤ مترا و ٢٠ سنتيمترا وقطره ٤ أمتار وفي منتهاه
تمثال نابليون متسحبا بلباس امبراطور روماني وعلى هذا العمود
نقوش وكتابات تخلد انتصارات فرنساوية في أوائل هذا القرن
والعمود الثالث هو المعروف بعمود يوليوس وهو في وسط ميدان
الباستيل أقيم تخليدا لذكر الحرية في نفس المكان الذي كانت
فيه قلعة الباستيل معدن الجور والحيف والاستبداد وعليه
بجروف من الذهب اسماء الذين استماتوا في اعلاء كلمة الحرية
ونشر رايتها على ديار فرنسا في سنة ١٧٨٩ وفي سنة ١٨٣٠
وفي أسفله مقابر أولئك الابطال محطا للاعجاب والاحلال ومن
صعد الى قمة هذا العمود الذي يبلغ ارتفاعه ٤٧ مترا رأى باريس
كلها تحت أقدامه وأمتع ناظره برأى جميل ومعجب وفوق هذا

العمود تمثال من البرونز المذهب يمثل ملاك الحرية وفي يده مصباح يرسل النور منه الى جميع أطراف العالم

وبمناسبة العمدان تذكر المسئلة المصرية المعروفة بمسئلة كياوبطرة التي هي أجمل حلية في أجمل ميدان في أجمل مدينة قد أهداها الخلد الذكر محيي مصر المغفور له أفندينا الكبير الحاج محمد علي باشا الى فرنسا فوضعها في ميدان الكونكوردي الذي تحف به تماثيل كثيرة تمثل مدائن فرنسا التي خدمت الوطن برجالها وأعمالها وهذه المسئلة من حجز واحد من الصوان الوردى وعليها كثير من النقوش البربائية وطولها ٢٢ مترا و ٨٣ سنتيمترا ووزنها ٢٥٠٠٠٠ كيلوجرام وفي أسفلها ترى نقوش بالذهب تمثل كيفية اقامتها ورفعها بمقتضى علم الاثقال وكان ذلك في سنة ١٨٣١ على يد المهندس الماهر الموسيوليا

أما البوابات والاقواس فهي كثيرة تذكر منها باب القديس ديس (وهو الذي بعد أن قطعت رأسه في أيام الاضطهاد رفعه من الارض بين يديه وهو مضرج بالدماء) وهو اثر جميل قد توالى عليه العمارة والترميم وكانت اقامته في سنة ١٦٧٢ تجيدا

لذكر لويز الرابع عشر وتذكارا لفتوحاته في بلاد الالمان
وكذلك باب القديس مارتين على مقربة من الباب السابق
تذكارا لفتح اقليم فرانش كونتى وهزيمة الالمان على يد لويز الرابع
عشر وفيه نقوش بارزة متقنة

وقوس الكوكب وهو أكبر بوابات الفوز والاتصار
الموجودة في باريس فان مجموع ارتفاعه ٤٥ مترا و ٣٣ سنتيمترا
وعرضه ٤٤,٨٢ مترا وأول من ابتدأ في تشييده هو نابليون
في سنة ١٨٠٦ لاجل تخليد فتوحات الجيوش الفرنسية
واحياء ما آثرها ولكنه لم يتم الا في عهد الملك لويز فيليب
وقد بلغت نفقاته ٩,٠٥١,١١٥ من الفرنكات (قريبا
من ٣٦١٣٢١ جنيتها)

وهو كانه مغشى بنقوش في الحجر مناسبة لمقتضى الحال
وحول أركانه الاربعة تماثيل ضخمة تصور هيئة السفر والفوز
والمقاومة وعقد الصلح وفي بعض أعاليه رسوم بعضها تصور واقعة
أبي قير وأخرى تمثل استيلاء الفرنسيين على الاسكندرية - وقد
تقصده ثوار الكرمون في سنة ١٨٧١ فوجهوا قنابلهم نحوه ووالوا
اطلاق المدافع عليه ثلاثة أسابيع متوالية كان عدد المقذوفات
التي أصابته في كل يوم بالمتوسط ٩٠ فيكون مجموع ما أصابه

من القليل ٢٠٠٠ بالتمام ولكن القوم أعادوا تزيمه واصلاحه
بعد أن انطفأت نار هذه الثورة الشنيعة

وفي يوم ٣١ مايو سنة ١٨٨٥ عرضت الدولة الفرنسية
تحت هذا القوس التابوت المحتوى على جسد الطيب الذكر
فيكتور هوغو باحتفال جليل استمر ٢٤ ساعة

وقد صعدت الى أعلى هذا القوس فاستغرق ذلك من وقتي
٨ دقائق و رأيت من فوقه منظرا بهيجا جدا إذ انى كنت في
ميدان يصب فيه ١٢ دربا سلطانيا محتوية على صفيين من
الاشجار وخلفها المباني الفخيمة أو البساتين البديعة

وقد سبق لى كلام وجيز على قوس نزار الكاروسل فلا
موجب لاعادته فى هذا المقام وانما أستعوضه بذكر برج القديس
جاك فإنه فى وسط حديقة أنيقة فى مركز ميدان الساتلية

وهو من أطرف الآثار القديمة الباقية فى باريس وفى أسفله
جمله ٤٤٨ فى وسطها تمثال العلامة المحقق باسكال وفى قمته
تمثال القديس المذكور - وارتفاع هذا البرج ٥٢ مترا وفيه
بعض آلات فلكية خاصة بعلوم الآثار العلوية وفيه غرفة
يحضر إليها التلامذة لتعلم الرصد وما يتعلق به وقد تناقل القوم

ان العلومه باسكال جدد فيه تجاربه المتعلقة بعرفة مقادير ضغط
الهواء على البارومتر

وأما الفساقى فهى كثيرة فى باريس منها فسقىة كوفىيه
العالم بالتاريخ الطبيعى صاحب الاكتشافات الكثيرة ومخترع علم
الكائنات الحفرية وفوق هذه الفسقىة تمثال من الحجر للتاريخ
الطبيعى ثم فسقىة الشانلييه فى مكان سجن كان هناك قديما
وهى فى وسط الميدان المعروف به - ذا الاسم الآن وعليها تماثيل
للإمانة والقوة والقانون والتيقظ ويندفع الماء الى حوضها من
أفواه أسفنسكسات (أبو الهول) وفوق الفسقىة تمثال الانتصار
وفى يده أكاليل الفخار ثم فسقىة جرينل وفيها تمثال باريس وهى
جالسة فى سفينة وتحت قدمها نهرا السين والمارن وحولها
تماثيل الفصول الأربعة والسيفينتان اللتان هما شعار لهما ثم
فسقىة الأبرياء تحيط بها حديقة زهرية وهى من أجل الآثار
التي يقصدها الزوار وعليها نقوش تمثل جنيات الماء فى غاية
الإبداع وقد كانت أولا فى سوق الفواكه ثم نقلوها الى محلها
الآن حجرا حجرا ثم فسقىة لوفوا وهى بناء أنيق أمام المكتبة
الإهلمية وتحتوى على تماثيل متقنة تمثل الأهار الأربعة التي فى

فرنسا تحمل الحوض العلوى الذى ينحدر منه الماء فى فسقية
ثم فسقية مولير من الرخام الناصع أقيمت بواسطة اكتباب أهلى
وفى أعلاها تمثال هذا الشاعر الجميد وعلى يمينه ويساره تمثال
الكوميديّة الجديّة والكوميديّة الهزليّة ومعنى الكوميديّة
التشخيص المضحك وهذه الفسقية أقيمت أمام البيت الذى مات
فيه الرجل وفسقية الرصدخانه وهى عبارة عن حوض فيه ثمانية
أفراس بحرية وكلها من البرونز وفى وسطها تمثال أقسام الدنيا الاربعة
تعلو كرة أرضية ثم فسقية القديس جرجس وفيها تمثال الايمان
والرجاء والاحسان فى المرمر ثم فسقية سان سولپيس فى وسط
الميدان الكائن امام الكنيسة المعروفة بهذا الاسم وحول هذه
الفسقية تماثيل بوسويه وفنلون وماسيلون وفليشييه وهم من
أكبر وعاظ الكنيسة وأشهر كتاب الفرنساوية ثم فسقية الانتصار
مزدانة بتمائيل الايمان والتيقظ والقانون والقوة وفوق الجميع
تمثال الانتصار ممّوه بماء الذهب - وفى باريس فساق أخرى مثل
اللتين يزدان بهما ميدان الكونكورډ (الاتلاف) واحدهما
رمز للاحة فى النهر والثانية للاحة فى البحر ومثل اللتين فى ميدان
التياتروالفرنساوى وفسقية مديس ونوتردام والقديس ميشل
(وقد كانت العمارة جارية فيها أثناء وجودى بباريس)

أما برج ابفل فقد طار خبره وعرف أمره وقدره بحيث كان
الواجب أن أهمل ذكره ولكنني أتخف القارئ بمعلومات جديدة
وأقص عليه شيئاً من التأثير الذي حصل لي أثناء ارتقائه في
المسعدة والنزول منه على درج السلام ولا حاجة للاحاطة بانه
أعلى جميع الآثار التي شاهدها الانسان في جميع الازمان فوق
سطح هذه الكرة الارضية وانه يخترق كبد السحاب (من غير مجاز)
بارتفاعه البالغ ٣٠٠ متر وطالما كان المطر يتهاطل على أسفله
وحواليه من غير أن يصب الذين قد ارتقوا الى ذروته بحيث
انه لو كان فيهم ممدوح لصح لشاعره أنه يقول انه علا حقيقة
على السحاب مثل ذلك الذي قيل فيه انه علا في الحياة وفي
الممات وعدوا له ذلك من المعجزات

وفوق قمة هذا البرج قمة عليها فنار يبعث الضياء فيبيد حجب
الظلام بما يرسله من مختلف الالوان بحسب ألواح الزجاج ويمتد
شعاع النور الى مسافة قاصية وبعرض واسع وأول ما رأيته وأنا
فوق إحدى قناطر السيزرأيت مناشيره أشبه شئاً باجنحة طاحونة
عظيمة يديرها الهواء بسرعة وأما البرج فهو أشبه شئاً بشمعدان
هائل خصوصاً مع وجود النور في أعلاه وهذا الشمعدان مرتكز
على أربع قوائم مسافة الانفراج بين كل قائمة والثانية عند القاعدة

١٠٠ متر وكنت أثناء اقامتي بباريس أترصد في كل صباح
فرصة الصعود الى هذا البرج الفريد لأتمتع بمأجوله من المناظر
الرائقة ولكن بوالى احتجاب الشمس في أغلب الايام كان يحول
دون هذا المرام حتى خشيت تعذر الحصول على هذه الامنية
لاقترب ميعاد اقاله ولكن الله يسر لي يوما طلعت فيه الشمس
بمجهتها وأرسلت صافى أشعتها فبادرت اليه مسرعا وأنا لأصدق
نفسى من شدة الفرح وكنت كلما سعدت في طبقات أرى المدينة
تنضم الى بعضها وتتقارب أبعادها وتتصاغر مسافاتهما وتتلاقى
أطرافها فتبدو بكلال جالها فرجة للناظرين وبينها نهر السين
كقناة طويلة يتصور الانسان أنه يكفيه أقل وثوب للانتقال
من أحد شطبيها الى الآخر وعليها القناطر العديدة أشبه بخطوط
كثيرة مستطيلة كأنها شريط رفيع من البناء أو سلك رقيق من
الحديد وكانت برك الماء كدموع من ما فى المشتاق وبعض بنى
الانسان أشبه بالازهار أو بتلك العرائس الصغيرة التى يتلاعب بها
الصبايا والبعض الآخر كأنهم من قوم يأجوج ومأجوج أو من
أولئك الاقزام العائشين فى أواسط افريقية وباريس بازدهامها
كقرية النمل أو خلاية النحل وكنت كلما ارتقيت ازادت أمامى
بمجة الرياض الانيقة والقصور الرشيقة المجاورة للبرج مثل قصر

الترو كاديرو وحديقة الشان دومارس وفسـ قيمته البديعة وقبة
القصر المركزي وفوقها تمثال الشهرة ثم قبة رواق الآلات وقبة
الانقلابيد والبانتيون ثم تياترو الاوبرا وقصر الصناعة وعمود
فاندوم وبرج كنيـسة فوتردام وفي اثناء ذلك كنت أسمع اعتراضك
الرياح في الصـبا والجنوب وتضارب تياراتها في القبول والدبور
فتحدث لها قرعة كأشد ما يكون من تلاطم الامواج في البحر
العجاج وبينما أنا غارق في هذه الاحوال نهني بعض الذين صعدوا
الى صفحة يكتب عليها الزائر اسمه أو أى عبارة تحظر به فأخذت
القلم ورقت ماأملت به على القريحة تهـ درك يا ايـفل لقد
برعت فيما أبدعت ونبتت بما اخترعت فعلوت بعقلك على سائر
أبناء عصرك كما ارتفع برجك الى عمان السماء فاقبا جميع الآثار
اشياء مفصحا بكل اسان عن فضل الاله الفرنسيه في ميدان
العرفان

ثم نزلت متمهلا متأملا وقد كبر الرجل في عيني أكثر مما
كنت تصورته خصوصا بعد أن علمت ان الموسيو ايـفل اذا جلس
على كرسـيه امام مكتبته يكون ضـغطه على الارض أكثر من
ضغط هذا البرج الهائل وذلك أن قوة الضغط التي تحدث على

الارض اذا جلس على الكرسي (هو أو أى انسان آخر) تكون باعتبار ثلاثة أو أربعة كيلوجرامات بالاقبل عن كل سنتيمتر مربع بخلاف البرج فان تأثيره على الارض هو باعتبار كيلوجرامين اثنين فقط مع ان ثقل البوية التي على جدرانها قد قدرها العلماء بنحو ٣٠ طونوفلاطة وقرروا أن مجموع وزنه (من غير البوية) يعادل ٧ مليون كيلوجرام وقالوا ان الهواء الموجود في قصر الآلات يزن ربع هذا المقدار مع لطافته فيما للعجب العجائب من غرائب الاحصاء والحساب

ومما يجمل بنا ذكره في هذا المقام أنهم استخدموا هذا البرج لأمور كثيرة مثل الأكل والشرب والتصوير والبيع ونحو ذلك وانهم وضعوا فيه منذ سنة ١٨٩١ ماونترا زبقيا لقياس تمدد البخار هو أكبر وأجسم ماظهر في الوجود الى هذا الزمان وقد أعدوا في الصيف الماضي تياترو في إحدى طبقات هذا البرج وكانوا يشخصون فيه رواية عنوانها (باريس في الهواء) وقد جرت عادة الافرنج أنهم يرفعون قبعاتهم أثناء التشخيص واكتنه اتفق في بعض المرات وجود رجل لم يتبع هذه السنة بل أبقى عمارته على رأسه فتدمن الحاضرون واعتبروا ذلك اهانة منه وخروجا عن حد الأدب ثم

طالبوه برفع القبة فاجبى اليه مدير التياترو وأظهر له وجوب
الامتثال فما ازداد الرجل الاعنادا واصرارا بحيث لم يكن للمدير
من واسطة سوى استدعاء رجال الشرطة واخراج الرجل بالقوة
ولكنه تدبر وتعمل ثم ذهب بجانب رئيس الموسيقى فهمس في
أذنه بكلمة واحدة أجابه عليها صاحبه بعلامات الامتثال ثم رفع
عصاه فلحنت جوقة الموسيقى السلام الروسى فكان الرجل أول
من وقف ورفع قبعته اجلالا وتعظيما ثم قال (ان هذا خبث
منك وكيد عظيم . انى أخشى تيار الهواء فى مثل هذا المكان
وأفضل الانصراف على هذا الاضطرار) ثم خرج وشكر الناس
حذق المدير وفطنته فى صرف هذا الحادث الذى أوجب لغطا
كثيرا واضطرابا شديدا وذلك لان التقرب فى هذه الايام شديد
وثيق فيما بين فرنسا والروسية ومتى سمع أحد الفرنساويين
النشيد الروسى الوطنى قابله بالاجلال فى الحال وكذلك الروس
يكشفون الرأس عند ما يسمعون النشيد الفرنساوى حتى ان
رجلا من محررى الجرائد فى بطرسبرج واسمه برتوف حضر الى
باريس أثناء اقامتى بها ساعيا على أفدائه ليس الا فى كل هذه
المسافة التى يبلغ طولها ٩٥٠٠ كيلومتر فقط وكان يمشى فى
اليوم الواحد ٣٠ أو ٤٠ كيلومترا وقد استغرقت هذه النزهة

منه نحو ٨ شهور ونصف ولما حل بياريس كان آلاف كثيرة من
الناس في انتظاره فحياتهم وحيوه ورحبوا به كثيرا وأطنبت الجرائد
في مدحه

وقد ظهرت في هذه الايام الاخيرة جريدة اسمها (برج ايقل)

بستان النباتات

كان تأسيس هذا البستان في سنة ١٦٢٦ واقتتاحه للجمهور في
عام ١٦٥٠ وهو ينقسم الى أربعة أقسام أولها البستان وثانيها
مربي الحيوانات وثالثها متحف التاريخ الطبيعي ورابعها العنابر
الزجاجية المعدة لتربية نباتات البلاد الحارة ومما يليق ذكره أن
الانسان اذا دخل من أكبر أبواب هذا البستان يرى امامه مشمين
من الصفصاف غرسها العلامة بوفون المشهور وفي منتهى
البستان توجد الدار التي مات فيها الرجل المذكور في يوم ١٦
ابريل سنة ١٧٨٨ وفي هذا البستان مدرسة لتشجيرات الزخرفة
ومدرستان لاشجار الفاكهة احدهما مخصصة للفاكهة ذات
النواة وأما الثانية فلاشجار الفاكهة ذات البزر وفيها ١٨٠٠
نوع من أشجار الكثرى وهناك مجموعة أشجار مثمرة تحت الدرس

والمطالعة ومدرسة لعلم النبات تحتوى على أكثر من ١٣٠٠٠

نوع من النبات

وأما مربى الحيوانات ففيه ٢٢ مقصورة عليها أبواب من
قضبان الحديد تسرح فيها الحيوانات الضارية والوحوش السكاسرة
والطيور الجارحة كالأسد والفهد والبير والنمر والذب والنسر
والعقاب والرخ والكنندور وغير ذلك وفيها أصناف لا تحصى من
الحيوانات المعروفة في بلادنا والمجهولة لنا مثل الايائل والوعول
وتيوس الجبل والاثوار والابقار والاعنم والماعز والجاموس
ذى السنم والكنجورو والذئاب والضباع والحلايف وبنات
آوى والعقبان والنسور وغير ذلك مما لا يمكن الاطاحة به مع تعدد
أصناف النوع الواحد وهناك قطعة مستديرة مغطاة بأسلاك
الحديد تسمى قصر القردة فيه منها أجناس كثيرة بين كبيرة وصغيرة
وامام هذا القصر مستدير كبير ترى فيه الافئال وأفراس البحر
والسكركدن وأصناف الهجين وهناك تمر قناة من الماء تسبح فيها
خلائق كثيرة من الطيور المائية وبالقرب منها ترى حيوانات
بحرية تسمى أساد الماء وبجانها أبراج لانواع كثيرة من الطيور
ومرابى لاطيار الصيد المرغوبة مثل الصقور والبواشق والشواهين
وغير ذلك وهناك أصناف من الايائل الخنزيرية التي توجد في بلاد

الهند والقرب من هذا المكان مربى أطيار الدج والقطا والحجل والقواخت والورق والورشان والشفاتن والطيماهيح وغيرها والطيور المغردة وأنواع الببغاء والطواويس - وقد رأيت في كشك الزواحف أصنافا كثيرة من الثعابين السامة وغير السامة وعدد عظيم من السلاحف والضفادع والعلاجيم وأصناف التمساح التي اشتهر بها نيلنا السعيد وحرم من رؤيتها المصريون فلا بد لهم من الجحى الى باريس لرؤية هذا الحيوان المشهور حيا يرزق لاملقا على بعض البيوت لفائدة لم أقف عليها مع كثرة السؤال عنها وفي هذا الكشك أيضا أصناف كثيرة من أسماك المياه العذبة

ولابد لنا من ذكر كلمتين أيضا على رواق تطبيق التشريح وعلم الانسان (الانثروبولوجيا) فانه يحتوي على ٢٤٠٠٠ تجهيز وأكثر من ١٣٠٠٠ نموذج يختص أكثرها بدرس السلائل البشرية القديمة والحالية و ٣٠٠٠ جمجمة و ٢٠٠ هيكل عظمى وجملة قطع تتعلق بالانسان الحفري (الذي وجد في الكائنات الحفريّة) وفي الدور الاول من هذا الرواق مجموعة وافرة من هياكل جميع الحيوانات وغرف كثيرة مخصصة لدرس التشريح الانساني وفيها صور جميع الاجناس بحيث يتمكن من مقابلتها ببعضها وهناك مجموعة كاملة من رؤس مصنوعة

من الجبس يمكن لاهل علم الفراسة أن يطبقوا معارفهم عليها
أوزيدوا في معلوماتهم بواسطتها وخصوصا ان القوم اعتمدوا بمثل
رؤس بعض المشاهير في ارتكاب الجرائم واقتراف الجنائيات وامام
باب هذا الرواق حوت هائل طوله أربعة عشر مترا (من الصنف
المعروف بالهائشة) وهيكلي عظيمي وجاجم من أفراد هذا النوع
وسمعت أنه يوجد متحف لما قبل الطوفان غير أنني لم يتيسر لي
رؤيته مع كوني توجهت الى هذا البستان ثلاث مرات في ثلاثة
أيام ولكن اتساعه وكثرة ما فيه من الغرائب حال بيني وبين
رؤيته بجميع أجزائه وتفصيله وقد رأيت هناك شيوخ البحر
تسبح في برك من الماء ولها صيحة مزعجة ورأيت أشجارا لا تغرقها
الخصرة على الدوام ولا حاجة لذكر العناية الزائدة التي تلاقها
نباتات البلاد الحارة في غناب هذا البستان فانها فوق الوصف
ولكن القوم لم يتمكنوا الى الآن من تربية النخل المثمر وان كانوا
توصلوا الى حفظ كثير من أصناف النخيل الخاصة ببلاد الهند
وأواسط افريقيا وأما متحف التاريخ الطبيعي فيحتوى على شئ
جسيم وعمد عظيم من الحيوانات الثديية الكبيرة وهياكل
الحياتان (الهوائس) والاساد والامبار والديباب والقراد والزواحف
والطيور والامالك والحيوانات الرخوة والحشرات كل ذلك

بهندام ونظام لا يمكن أن أصوره للقارئ باى حال فان وصف
ما فى هذا المتحف يستغرق مجلدات كثيرة وحياة علماء عديدين
قد وقف كل واحد منهم نفسه على درس فرع صغير من
فروع هذه الفنون

وهناك أيضا رواق كبير فيه مجموعات مستبكرة من الاجار
الضالة والنيازك والشهب الساقطة من السماء ومجموعة فيها أنواع
الاراضى التى تترب منها قشرة الكرة الارضية وصخور ومعادن
وأجار كريمة ثم رواق النباتات وفيه تماثيل الفطر والكبابة
(بنات الرعد) بالجبس ومجموعة من الفواكه الجافة والفواكه
اللحمية والازهار محفوظة فى الكؤل ومن النباتات ٢٠٠٠٠٠
نوع وأكثر من ٥٠٠٠٠٠ عينة وكثير من أصناف النباتات
الخضرية

المدارس والمحلات الخيرية والاعانات

رأيت كثيرا من المدارس ووقفت على بعض أساليب التعليم
وأحطت بوسائل التقديم وأرى الآن وجوب الاكتفاء بالكلام
على مدرسة النظامات السياسية ومدرسة العميان ومدرسة الخرس
عسى أن يكون لشرحي فائدة فى بلادى

أما مدرسة المنظمات السياسية فيتلقى الطلبة فيها كثيرا من
الغنون أخصها علم أصول اللغة الرومانية واشتقاقاتها وعلم
الكتب وتنظيم خزائنها وعلم السياسة وتاريخ المنظمات السياسية
والترتيبات الادارية والقضائية في ديار فرنسا ثم عيون التاريخ
الفرنساوي وفن تنظيم أوراق المحفوظات وتاريخ القانون المدني
والكنايس في القرون الوسطى وعلم الآثار (الاركيولوجيا) في
القرون الوسطى وتفتح قاعات الدروس للطلبة من الساعة التاسعة
الافرنكية صباحا الى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر
بحسب اختلاف الفصول ولا يتجاوز عددهم في السنة الواحدة
٢٠ تلميذا وينبغي أن يكونوا من الفرنسيين الحائزين على
شهادة البكالورية في العلوم البالغين من العمر ٢٥ سنة كاملة
بالاقل ويلزم امتحانهم في الترجمة من وإلى اللغة اللاتينية من غير
استعانة بأى معجم أو قاموس وفى تاريخ فرنسا وجغرافيتها قبل
أول القرن التاسع عشر ومن يكون منهم عارفا بالألمانية أو
الانجليزية أو الاسبانية أو الطليمانية يكون له فضل السبق على
غيره عند تساوى الدرجات وقد ترتب على احداث هذه المدرسة
فوائد جمة أو جل تفصيلها الى الرحلة ان شاء الله

أما مدرسة العميان فنظرا لغوائدها الجمّة خصوصا في قطرنا
المصري يجب علىّ أن أتوسع في القول عليها قليلا مدخرا الاشباع
الى الرحلة

يوجد في فرنسا ٣٢,٠٠٠ أعمى لهم من المدارس الخاصة
٦٠ مدرسة وأهم هذه المدارس وأكملها مدرسة شبان
العميان الاهلية الكائنة في باريس بدرب الانقلابيد وقد كان
تأسيسها على يد الفرنسي هاوي فالنتين هاوي في سنة ١٧٨٤ وهي
أول مدرسة ظهرت في الوجود من هذا القبيل وربما كانت
أفضل من كافة المدارس المماثلة لها وأحسنها نظاما وترتبا وفيها
الآن ١٥٥ غلاما و ٨٠ فتاة ومدة التدريس عشر سنوات
تكون بين سن ١٠ و ٢١ سنة ويتلقون فيها علوما عقلية
وفنوناً حرفية

فأما التعليم العقلي فهو ابتدائي وعال وقاعدة القراءة والكتابة
فيها جارية على الاسلوب الذي ابتدعه الاعمى الفرنسي هاوي براى
في سنة ١٨٢٦ وهو عبارة عن رسم الحروف بنقط بارزة لاتزيد
عن ستة عن أى حرف
وأما التعليم الحرفي فيشمل الغزل والخراطة وعمل الكراسي

واشغال الابرة والنسيج والموسيقى والالخان (وهذان الفنان قد بلغا الدرجة القصوى والمكانة العظمى حتى لقد فاق تلميذان وتلميذة من المتخرجين في هذه المدرسة في امتحانات ٤ وميية على كثيرين من المتمتعين بنور الباصرة)

ومساحة الارض التي تشغلها هذه المدرسة هي ١١,٨٠٠ متر منها ٣,٥٠٠ مشغولة بالمباني وفي فناءها تمثال مؤسسها وهو يحاول تعليم الاعمى والفتيات قسم منعزل تمام الانعزال عن قسم الفتيان وللإساتذة غرف لسكنهم بالمدرسة فيها كل ما يحتاجون اليه وهناك سقيفة كبيرة يتنزه التلامذة تحتها ويتفرغون للعب والرياضات اثناء اشتداد الالهوية ونزول المطر وتغير حالة الجو أما نظام التهوية وتدبير التسدفة ففي غاية من الكمال والموافقة في الغرف والفصول والمكاتب والورش والماء كل والعنابر (الانبار) وفيها بيعة صغيرة للطقوس الدينية وجمامات فيها ٣ قسمين وفي كل قسم منها جهازات الدوش (صب الماء رشاشا لانعاش كافة الجسد) بحيث يستحم كل تليذ وتلميذة مرة واحدة في كل خمسة عشر يوما بالاقبل وفي المدرسة ورش للتعجير والتصليح والترميم خاصة بالآلات الموسيقية التي يستعملها التلامذة ولذلك غايتان أولهما الاقتصاد فلا تتكلف المدرسة نفقة ذلك في

الخارج والغاية تمرين التلامذة على اصلاح آلتهم بانفسهم
واضافة ما ينقصها وتعرف مواقع الخلل فيها حينما يسقط مسمار
أو ينقطع وتر وفي المدرسة مطبعة خاصة بها يطبع فيها التلامذة
كتباً كثيرة في فنون الاداب والموسيقى مما يحتاج اليه العميان
وقد رأيت أيضاً مكتبة فيها ٢٥٠ مجلداً بالنقطة البارزة
و ١٦٠٠ من الكتب المطبوعة بالكيفية الاعتيادية وهناك واعظ
يقوم بالقاء الدروس الدينية وأما التلامذة الذين لا يدنون
بالمذهب الكاثوليكي بل بذهب آخر معتبر في الحكومة فتعليمهم
يكون بحسب ديانتهم بعد الاتفاق على ذلك بين المدرسة وبين
أهاليهم وشؤون الصحة منوطة بطبيب وحكيم اسنان موظفين في
المدرسة (وعند الاحتياج يستشار حكماء آخرون) وطبيب عمون
وجراح ولا يقبل التلامذة الا فيما بين السنة العاشرة والثالثة
عشرة وقد خرج منها كثير من النابغين الذين أعلوا قدرها وشرفوا
ذكراها بما اكتسبوه من حسن الاحدوثة وما قاموا به من انخدم
الجليلة فمنهم برائى الذى أشرنا اليه قبلاً وروذنباخ الذى كان
أميناً لاحدى مدائن البلجيكا وعضوا عن الامة في مجلس النواب
البلجيكي من سنة ١٨٣٢ الى يوم وفاته في سنة ١٨٣٩ وبنچون
الذى كان مدرسا للعلوم الرياضية في مدرسة أنجى الشهيرة وحائزا

لوسام اللجيون دونور من درجة شفاليميه ثم فوكون ذلك الميكانيكي
البارع الذي اخترع جهازا كثيرة لتسهيل المكاتبه بين العميان
والمبصرين وجوتية وروسل ولوبل وهم من اساتذة المدرسة قد
صنفوا تلاحين موسيقية دينية وعمومية لها عند العارفين قيمة
عظيمة وغير هؤلاء عدد عظيم يضيق عن سرده حجم هذه الرسالة
ويوجد في فرنسا الآن أكثر من ٢٠٠ أعمى ينالون ربها واسعا
ورزقا حلالا طبيامن صناعة البيانوبل ان بعضهم يديرون مخازن
بيع آلات البيانوأ واصطناعها

وقد تأسست شركة مهمة لاستخدامهم ومعاونتهم والاهتمام
بكل ما يتعلق بهم حسا ومعنى وبسط لواء حمايتها ورعايتها عليهم في
جميع الاحوال وفي طول حياتهم ولا تطلب منهم في نظير ذلك
سوى السير المحمود والاقبال على العمل بقدر ما تسمح لهم به حالتهم
وقد بلغت ايراداتها في آخر سنة ١٨٩١ ٣٢,٣٣٥ من
الفرنكات (نحو ١٢٩٣ جنيتها ونصف تقريبا) ومصرفاتها
٢١,٥٧٩ من الفرنكات (نحو ٨٦٣ جنيتها وربيع تقريبا)
والباقى فى صندوقها ١٠,٧٥٥ من الفرنكات (أى قريبا من
٤٣٠ جنيتها وربيع) وأما رأس مالها فهو عبارة عن ١٨٥٤٩٦
من الفرنكات وقد اتسع نطاقها وكثر عدد المشتركين فيها بالاقساط

والتبرعات حتى بلغ عددهم ٨٥٠ شخصا منهم ٢٨ من أكابر سيدات فرنسا جعلت الجمعية تحت حمايتهن و١٧٨ من السيدات و ١٥٢ من العذارى و ١١٤ من التلامذة الموجودين فيها لتلقى الدرس منهم ٤٠ فتاة

وقد تأسست جمعية أخرى باسم فالتين هاوى غايتها تعليم العميان الجاهلين وتشغيل العميان المتعلمين ولها ثلاثة جرائد خاصة بالعميان الاولى (فالتين هاوى) وهى مجلة عمومية تبحث فى جميع المسائل المتعلقة بالعميان والثانية (لويس براى) وهى جريدة تطبع بالحروف البارزة لكي يقرأها العميان والثالثة (مجلة براى) مثل التى قبلها وتظهر فى كل يوم أحد مشحونة بالمسائل الادبية والعلمية والموسيقية وهذه الجمعية قاعة للخطابة يتباحثون فيها فى كل ما يهم العميان وتتبعها أيضا مكتبة متنقلة تعير العميان الكتب المطبوعة بالحروف البارزة ليمقرؤها فى بيوتهم ويستفيدوا منها فى أوقات فراغهم ومن ملحقاتها المتحف وقد تكلمت عليه بما فيه الكفاية والله ولى المحسنين

أما مدرسة الخرس فلا يدخلها غير الذكور ومدة التعليم ثمانية سنوات فيتعلمون فيها زيادة عن المعارف الابتدائية أحد الثنون الآتية وهى طبع الحجر (مع الكتابة والنقش على الحجر)

ونقش الخشب وطبع الحروف والنجارة واصطناع الاحذية وفن
الساتين وأما التعليم الديني فيقال عنه فيها كما قيل في مدرسة
العميان والغذاء مرتب بكيفية توافق الصم الخرس ولهم حمامات
بجهازات ايدر وليكيه وحوض للسباحة ومروج واسعة وصحون
فسيحة يلعبون فيها الجماز ويتعودون على الرياضات الجسدية
وخلصا القول ان المدرسة تعتني بعناية كريمة بتقوية ابدانهم
وأمرجتهم وفيها طبيب ومساعدان له وحكيم عيون وجراح عارف
بفن الاسنان ومستشفى يقوم بالخدمة فيه ممرضات حائرات للدبلومة
وقد شاهدت التعليم حينما يجيء الطفل فيها أول سنة ويترقى
شيأ فشيأ بكيفية تدهش العقول فانهم قد منعوا استعمال
الاشارات بالاصابع مرة واحدة ولا يتجاسر أحد من الاساتذة
أو التلامذة على ابداء أية اشارة ظاهرة أو خفية وكل التعليم جار
فيها (وفي جميع مدارس أوروبا وأمريكا كما علمته) بواسطة النطق
بالاصوات ولذلك يجتهدون في تعليم الخرس مخارج الحروف
بغاية الدقة ونهاية الاعتماء وقد تكلمت مع بعض الخرس فكانوا
يجيبونني بالجواب المناسب غير اني في أول الامر رفعت صوتي
كثيرا فلم يفهمني الاخرس مطلقا مع اني رأيتهم يفهم ناظر المدرسة
كأن سرع ما يمكن بالنسبة لحالته فتذكرت الامر وحينئذ دعاني

الناظر لان أخذض صوتي (لانني مهما بالغت في رفعه فلن يسمعني أبدا) وان أكله وجهها لوجه حتى ينظر حركات شفثاي ولساني فعملت بما رسم وأجانبى الأخرس على الوجه المرغوب ثم انني أمليت على جملة من التلامذة عبارة فرنساوية فكتبوها بالضبط الا واحد منهم أخطأ في حرف واحد لتشابه الخارج ثم كتبوا اسمي واسم بلدي على التختة ولم يهملوا الا حرف H المقابل للحاء في لفظة (أجد) لعدم امكان النطق به في الفرنسية وأما الفنون الحرفية والصنائع اليدوية وحرث الارض وغرسها ففي درجة من التقدم يغبطهم عليها أكثر الناطقين بالصاد وبغير الصاد وفي المدرسة متحف جليل يحتوى على جميع الطرق التي تؤدى لتعليم الأخرس ورسوم ونقوش وتصاوير كثيرة من صنع الأخرس وقد كان لبعضها فوقان عند العارفين على ما صنعته كثير من الناطقين ويقال ان هذا المتحف لانظيره في البلاد الأخرى فان الاب دولوبي (وهو أول من عنى بتعليمهم) له أكثر من ١٠٠ قطعة تراه فيها مصورا في جميع أحواله وهناك عدد عظيم من المتحف المتنوعة التي برع في احداثها كثير من الصم والأخرس الذين نبغوا في جميع انحاء العالم ومما ينبغي ذكره بوجه الإيجاز ان هذا المتحف يحتوى على رسوم الاماكن التي استقرت بها هذه المدرسة قديما

وحدثنا ومناظر تصور هيئة أهم مدارس الخرس في فرنسا وفي الخارج وصور الاب سيكارو معلم الخرس من فرنسا وبين والاجانب وكثير من أعظم العالم الذين لهم دخل في تاريخ تعليم الخرس من مؤسسى المدارس ونظارها والمحسنيين ومشاهير الكتاب ورجال الحكومات وأهل السياسة ثم أعمال الخرس في جميع العصور وعند جميع الامم من مصورين ونقاشين ونحاتين ورسامين وطبايعين وفوتوغرافيين ومهندسين ثم صور كثير من مشاهير أرباب الفنون الخرس ثم ميداليات ومسكوكات وكتابات بخط اليد وأشياء نادرة وغير ذلك مما يتعلق بهذه الطائفة

وقد تألفت جمعية لتعضيد الخرس ووافق أنها اثناء أقامتى في باريس أولت وليمة فاخرة احتفالا بحلول السنة المتممة للمائة وثمانين من يوم ميلاد الاب دولوي نعم انى لم أحضر هذه الحفلة الغزيبية الشائقة ولكنى لأرى بأسامن افادة القارئ بما علمته عنها من الجرائد وذلك ان المدعويين كانوا كثيرين وكانت الحفلة تحت رئاسة الموسى وكوشفر وهوم من المهندسين الذين تخرجوا بهذه المدرسة وبعد انقضاء الطعام وقف يخطب فى القوم

بلاغته باهرة مستعينا بالايماء والاشارة فانه ألم أحسن المام بذكر حياة الاب دولوي وسرد ما اثره التى

أفاضت الخيرات على جزء عظيم من بني الانسان ثم شكر الجمهورية
الفرنساوية على مساعدتها في تحسين حال امثاله ثم ختم مقاله
باهداء ميدالية الى أحد النفاشين البارعين من الخرس وقدمها
له باسم وزير التجارة والصناعة ثم تلاه كثير من الخطباء الخرس
وكانوا كلهم يفيدون الحاضرين بعبارات ظاهرة مفهومة

أما أماكن البر والاحسان واصطناع المعروف وانعائه
المهوف فهي أكثر من ان تعدولها شؤون كثيرة وفائدة عظيمة
فيها ما يساعد الامهات لتمكنهن من ارضاع اطفالهن أو فقراء
المعتوهين الناقهين بعد خروجهم من البيمارستانات أو تلتقط
اليتامى اناثا أو ذكوراً وتتكفل بتعليمهم وتربيتهم في طريق الشرف
والاستقامة أو تعاون فقراء الالزاسيين واللورانيين الذين تركوا
وطنهم وآثروا النقر مع بقاء الجنسية الفرنسية الفرنسية لهم على الدخول
تحت أحكام المانيا أو تضم الامهات الفقيرات أو تضيف النساء
والرجال الذين لا مأوى لهم بالليل أو تتكفل بالفقراء من الرجال
أو النساء الى أن يجدوا لهم خدمة يتعيشون منها أو بالنساء
الحبالى فقط أو الطاعنين في السن دون سواهم أو لوصف الادوية
أو لتقديم الدواء أو للوالدات بعد الولادة وهن في دور النقاهة
أو للفتيات بعد مرضهن أو لتقديم الاشغال للخياطات اللاتي

ليس لهن خدمة أو للتكفل بالانباء حين اشتغال والديهم عنهم
بسبب كسب الثوت أو لتطبيب الاطفال على العموم أو المصابين
بداء مخصوص مثل الخنازيرى والكلب أو الادواء العضالة وغيرها
أولاستخدام العذارى في مخازن التجارة أو لاستخدام الفعلة والعملة
من الجنسين والكلاب والحساب وغيرها أو لتعليم الزراعة أو لتبني
الاولاد ووضعتهم في مرابي الايتام أو لاستخدام اليتامى والاولاد
الذين تركهم أهالهم أو لمساعدة العائلات أو لتعليم الاطفال الفقراء
حرفة الصياغة والجواهر والساعات وغير ذلك من الفنون الحرفية
أوللاغراب الامريكانيين أو الانجليز أو النمساويين والمجرين أو
الطليانيين أو البولونيين (اللاهيين) أو السويسريين أو البلجيكين
أو جميع الامم أو لتقديم الخبز أو لتقديم صنف من الطعام أو
لفقراء المرضى أو لتعصيد التكايا أو لقبول المعلمات اللاتي ليس
لهن وظيفة يتعيشن منها أو لفقراء الاسرائيليين أو لتقديم
الجهازات اللازمة لمن تقطع بعض اعضائهم أو للولادة أو لتسهيل
الزواج بحسب قواعد الدين واجراء المساعي اللازمة بين الطرفين
أو لتسهيل الزواج بالطريقة المدنية من غير توسط القسيس
وتقديم كل مايلزم من الصكوك والاوراق مجاناً والتكفل
بأبنايت نسب الاولاد وجعلهم شرعيين أو لحماية الجنود البحرية

والبحرية الذين احرزوا نشانات في وقائع التوفكين أو لمساعدة
بحري الجنود (وهذه الجمعية مركبة من النساء) أول الذين كانوا
في سلك الهندية وحازوا وسامات اللجيمون دونور أول الذين سبقت
لهم الخدمة في الجيش أو لمساعدة عائلات وأرامل ضباط
البرية والبحرية أو عمال الحكومة الذين تشابه وظائفهم وظائف
الضباط أو لترتيب معاشات للعسكرية أو لحماية الذين يتطوعون
في الخدمة العسكرية أو لتخديم الشبان الذين يتخرجون ببعض
المدارس أو لاقراض عائلات العملة المبالغ اللازمة (من غير
فائدة) لاستخلاص الاشياء التي وضعوها في بنك الرهونات ثم جاء
الاجل ولم يتيسر لهم المال المطلوب أو لدفع ايجار مساكن
الفقراء أو لاعادة النقرء والمرضى الى أوطانهم أو لمساعدة المحتاجين
من المشغولين بحرفة سباق الخيول أو لبذل الاعانة اللازمة في
الحال أو لمساعدة الذين يروحون شهداء تأدية الواجب (وقد أرسلت
هذه الجمعية في شهر اكتوبر الماضي ٤٠٠ فرنك لشيخ احدى
البلاد لتوصيها لارملة رئيس المحطة وقد دهسه الواور بينما
كان يجتهد في انقاذ امرأة ارتبكت على الشريط وقد أتى الواور
و ٣٠٠ فرنك لعائلة رجل مستخدم بالدخولية دهسته العربات
بينما كان يمانع تهريب بعض الاصناف و ٢٠٠ فرنك لرجل

من بوليس باريس أصابته جراح بليغة بينما كان يحاول لوقيف
خيول حرونة وقد وردت لها في الشهر المذكور وصية من زوجة
أحد القضاة بمبلغ ١٥٠٠٠ فرنك ووصية أخرى قدرها خمسين
ألف فرنك من أحد النقاشين وثلاثة من إحدى العذارى وقدرها
٥٠٠٠ فرنك) وهناك أيضا جمعيات لا تدخل تحت حصر وقد عدت
الجمعيات التي وقفت على اسمائها وعنواناتها وبيان أعمالها فإذا
هي ٢٤٥ جمعية بعضها لها فرعان وخمسة وعشرة بل وخمسة
وعشرون وبعضها خاص بطائفة من الناس أو بدين مخصوص
أو بجنسية واحدة أو بسن معين أو ببني الانسان على العموم

وفضلا عن ذلك فان الاكتابات تراها في كل جرائدهم
لاقل حادثة مثال ذلك اني رأيت اعلانات من دار أمانة القسم
الاول من باريس تدعوفيه أهل الخير لم يد المساعدة اليها لتعاون
الفقراء على احتمال البرد وشدائده وتقول فيه انها أنفقت في السنة
الماضية الاعانات التي جمعها من أرباب اليسار وقدرها ٢٠٠٠٠ و
فرنك وقد قلت لك ان باريس تحتوى على ٢٠ قسما ولا بد
انها كلها سارية على هذا المنوال ومثال ذلك انه لما أضرب العمال
في مناجم الفحم الحجري بكارمو عن العمل فتمت جريدة
الاترانسيجان اكتتابا اشترك فيه كثير من الناس وكنت أرى

في أعمدتها ان فلانا وفلانا وفلانا من الفعلة في كذا تبرعوا
بمبلغ فرنك واحد ولكنني ما كنت أستخف بذلك مثل أولئك
الذين يحتمرون صغائر الاشياء ولا يعلمون انهم اس الاجتماع
ومنبع العمران ودليلي على ذلك ان الانترنسيچان جمع من هذا
الاكتاب مبلغا يزيد على ١٨٠٠٠٠ فرنك ثم ان المجلس البلدى
في باريس أرسل لهؤلاء العملة مبلغ ١٠٠٠٠٠ فرنك صفقة
واحدة وقد تواردت عليهم الاعانات من جميع الجهات ومن
جميع الطوائف ولا بد ان القارئ وقف على تفاصيل هذه الحادثة
الهائلة التي اضطرت لها أساطين السياسة في فرنسا وشغلت
العالم بأسره ولذلك فلا أرى وجهها للخوض فيها فضلا عن أن
شرحها يحتاج لوقت طويل ومثال ذلك أيضا الاعانات التي
يادر أهل فرنسا على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم بارسالها الى
البحري من جنودهم في غزوة داهوماى فمن ذلك ما قرأته حينئذ
في الجرائد ان المحفل الماسونى (الزاس ولورين) قد أرسل لهم ٢٠٠
فرنك على يد وكيل وزارة المستعمرات وأرسلت لهم جمعية نساء
فرنسا وللجنود التي في التونكين ٣٧ صندوقا فيها أصناف كثيرة
من المأكولات والملبوسات وغير ذلك واقتدت بها طوائف كثيرة في
هذا السعي الحميد ولكن جريدة الفيجار وفاق الجميع فانها كتبت

في يوم ٧ نوفمبر تستحث أهل البر وخصوصا كهراء التجار على المساعدة في اکتساب الجنود داهوماى وقالت انها فتحة في ثلثي يوم وتقله في اليوم الثالث وان ذلك يستوجب التعجيل ولم يرد اليوم الثالث وهو ٩ نوفمبر حتى كتبت تقول «لقد أجيب نداءنا باكثر من جميع آملنا فقد اجتمع في مكتب الفيجارو في أقل من يومين ٢٢٠٠٠ زجاجة من نبيذ بوردو والشامپانيا والمياه المعدنية و ٢٥٠٠ علبة من المربيات وأصناف المأكولات المحفوظة و ٢,٩٥٠ قطعة من مربعات الشكولاته و ٢٣,٤٥٠ سجارة فرنكية و ٣,٠٠٠ سجارة مصرية وأكثر من ١٠,٠٠٠ صنف من الاصناف المتنوعة مثل شراب الروم والشارتروز ومثل التايوكا وغير ذلك مما سبق لتاسره في العدد الماضي وكان مبلغ النقود التي وردت لنا ٤٣,٠٠٠ فرنك ونصف (١,٧٢٠) جنيتها تقريبا في يومين اثنين خلاف الاصناف الاخرى) وقد قفلنا باب الاکتساب» ثم أوردت بيان الاصناف وأسماء المتبرعين ولا فائدة في احاطة القراء بذلك فان هذا الاقبال يعنى عن الشرح والبيان وبمثل ذلك فليتمانس المتنافسون - ومثل ذلك اهتمامهم بعائلات الذين ماتوا في حادثة انفجار الديناميت في شارع بونرافان أثناء اقامتي في باريس فكان رئيس الجمهورية أول من اهتم بشأنها وقد

أرسل مندوبا من قبله ذهب الى منزل كل واحدة من الارامل
وأعطاها اعانات من جيب رئيس الجمهورية الخصوصي وأعلمها
بانه مشارك لها في أحرانها ثم توجه الموسيولوبى رئيس الوزراء
حينئذ فزار كل واحدة منهم في مسكنها وقدم لها مساعداته
شخصيا ووعدهن بان الحكومة تتكفل بالارامل وتعهدهن
بتربية اليتامى ثم جاء محافظ المدينة ووزع عليهن ٧٠٠٠ فرنكا
ثم تعهدهن مرة ثانية وقدم لهن ماورد اليه برهنهن من لجنة
مصانع الحديد في فرنسا ولجنة مناجم الفحم الحجري وقدم لهن
أيضا مبالغ جمعت في احدى الولاة وقد علمت ان مقدار ما أرسلته
لجنة مناجم الفحم ٥٠٠٠ فرنك وقد وردت المساعدات
من جميع أنحاء فرنسا بما يضيّق عنه المقام ثم تقرر ترتيب معاش
لعائلات المصابين الذين كانوا في خدمة الحكومة يكون نصفه
من ميراثية الحكومة والنصف الآخر من ميزانية مدينة باريس
وقد كان فيهم رجل من خدامى القومبانية (التي قصد أصحاب
الديناميت تدميرها) فلذلك تقرر صرف المعاش لاراملته وأولاده
باحساب النصف على الحكومة والنصف الآخر على القومبانية
المذكورة وهى قومبانية معادن الفحم الحجري في كارو -
وخلاصة القول ان تفننهم في وسائل الاعانة واقبالهم عليها أمر

يستغرق شرحه مجلدات ضافية الذبول يدل على ذلك ما قدره
أهل المعرفة من ان مبلغ الاعانات التي يبذلها أفراد الناس في
باريس على خدمتهم تزيد على ٢٥ مليون من الفرنكات في كل
سنة (انظر جريدة الطان عدد ١١٥٤٨ من هذه السنة) ومع
كل هذا الاجتهاد فلا يزال بعض الناس يموتون فيها جوعا وان
كانت النسبة أقل بكثير مما في لوندرة فقد رأيت في العدد
٣٧٠٠ من جريدة الغولوا جملة طويلة على الفاقة والخلو من
العمل في باريس اقتطف منها بعض شذرات جديرة بالاعتبار

قالت انه بحسب البيانات الرسمية والاستعلامات المؤكدة
التي استحصلت عليها يتضح ان عدد العملة الذين منعتهم شدة
الشتاء ووقوف حركة الاشغال من كسب القوت يقرب من
خمين ألفا وان طلبات الاعانة قد تواردت على مكاتب الاحسان
العام بمقادير جسيمة تزيد من المعتاد وان هذه المكاتب قد ساعدت
المساعدة لنحو ٩٢ أو ٩٣ ألفا من المحتاجين وانها تقوم بمعالجة
نحو ٩٠ ألف مريض و ١٩ ألف والدة في منازلهم وان عدد
الملهوفين بحسب التعديل المتوسط سيزيد في هذا العام زيادة
تذكر - أما الملاحة الليلية التي يلوذ بها الفقراء عديمو السكن
فقد بلغ عدد الوارد على أحدها في كل يوم بالمتوسط ٢٠٠

رجل مع انه لايسع الا ١٥٠ وكان عدد النساء أكثر بكثير مما
قدر لهن فان الوارد منهن في اليوم الواحد بالمتوسط نحو ٥٠ مع
انه لايسع الا ١٥ وان استمر الشتاء على شدته وكلب كما هو
المنظور يزداد عددهن أكثر من ذلك وقد بلغ عدد النساء
والاطفال الذين لجئوا اليه في العام الماضي ٣٦١٧ مضوا
به ٩٦٥٧ ليلة وفي جلاتهن الخدمات والمعلمات والابكار
والارامل وامثالهن وغير ذلك والمقرر في هذا المبدأ اعطاء
الرجال كسرة من الخبز في الليل وورقة للخباز لاخذ رغيف
وقليل من المرق بالنهار وأما النساء فلهن الخبز والمرق في نفس
المبدأ نعم ان هذه الكسرة وهذا القليل من المرق أمر زهيد جدا
لايعتد به ولكنه في الجملة تصل قيمته الى ٢٥ ألف فرنك هذا
فضلا عن كون بعض معامل الصناعة في باريس تعهد بتقديم
٥٠٠٠ كيلو من الخبز في كل شتاء الى هذا المبدأ احتسابا لوجه
الله تعالى ومعاونة له على أعماله الخيرية وهذا المبدأ يوزع على
اضيافه في كل عام من ٢٠ الى ٢٤ ألف كسوة وقيص
وجوراب وصدار وفستان وخذاء وغير ذلك وانى لأرى
بعد ذلك كله حاجة للشرح والبيان بل أشهد الله على حالة
بلادنا وأهلها

التيارات والملاهي والمنزهات

أصبح التشخيص في باريس من الكماليات الحاجية التي لاغناء لاهلها عنها حتى ان الرجل ليقصد من مصرفه الضروري لتمضية الليلة في أحد السيارات وكثيرا مائة كبد بعض العائلات نفقة باهظة جدا لقصر احدى المقصورات بواسطة الاشتراك (وخصوصا مقصورات الاوبرا) ليقال عنها ان لها مكانا معيننا في هذا التياترو أو في ذلك المرحح ولذلك لايندر ان يحل موسم اقتتاح السيارات الكبيرة وليس فيها محل خال للايجار والاعظم من ذلك ان الاوبرا يؤجر أما كنهه بالسنة شهور بل وبالسنة الكاملة ويخيل لي ان أعاب نساء هذه العائلات انما يحضرن هذه الملاهي اعرض ملابسهن وابداعهن في زخرفتها وزركشتها ولاستجلاب العيون والعوينات نحوهن لا لقصده سماع الاغاني والالحان أو شهود التشخيص والتمثيل اذأنهن يكنن غالبا في اثناء ذلك مشتغلات باصلاح انفسهن وهندمة دوائره ومستديرته وتعديل الصدور وتنميق الوشاح والتمخيلة بالمراوح ذات الالوان التي تأخذ بالابصار وتراهن عندما يستقربهن المجلس يتدنن بعد هذه الهدمات الضرورية لهن باستعمال النظارات المقربة المكبرة المجسمة لمراقبة بعضهن بعضا واستوقاف رائد الطرف نحو

التي تجلت في جبابب الظرف وفاقته بحسن الشكل وبرعت
بجمال المنظر ثم يرسلن اللحاظ الفاترة في بعض الفترات لرؤية
الرجال وهم يرمقونهن على الدوام حتى اذا جاءت ساعة التشخيص
التفت هؤلاء اليه وأقبل أولئك على شؤونهن الاولى من اصلاح
الملابس والاتقان في التبرج والاعراب في الهرجة مع توالي النظر
في المرايا أو المسامرة مع بعضهن ومبادلة أفكارهن فيما يتعلق
بهن

تلك يا صاح حالة التيارات على العموم والاوزاع على الخصوص
وصفتها كما رأيتها مقتديا بعمرو بن العاص ذلك الصحابي الجليل
الذي مع قرب عهده بالبدواة لم يتحاش من قول الحق في رسالته
المشهوره التي بعث بها الى امام المسلمين وأمير المؤمنين الخليفة
عمر بن الخطاب رضی الله عنهم ما وأرضاهما حيث قال في عرض
وصفه لاصر وأهلها (ونسأؤها طرب) ولم يؤاخذ الخليفة الراشد
المشهور بالصرامة والجد والصلاح في الحق الى آخره
وقد اقتديت أيضا بطارق بن زياد فاتح الاندلس فانه قد
وصف نساءها حينما خطب في قومه يحرضهم على قتال رذريق
ملك الاندلس وأطرب في ذكر محاسنهن وجمالهن وغير ذلك مما
تراه في خطبته التي أوردها صاحب نفع الطيب وجميع مؤرخي
الاندلس وقد ترجمت الى أغلب اللغات الاخرنجية

وقد نحت أيضا نحو ذلك الرحلة المشهورة بابن جبير فانه
وصف نساء الافرنج في صقلية وصفا مدققا كما يعلمه من له
اطلاع على كتابه المطبوع المتداول وذلك لان وظيفة السائح تقرير
الحقائق كما هي وذكر الوقائع كما حصلت الافرنجية

وفي أول ليلة توجهت الى الاوبرا ورأيت مقصورات الطرف
في مقاصيرهن كأنهن كواكب السماء قد انتشرت أو أزهار
البهاء قد انتشرت حدثني النفس بان أصعد بعد تشخيص الفصل
الاول الى بهو الاستراحة البهيج لا لأسترق السمع ولكن لأسترق
البصر فرأيتن كلهن يصدق عليهن قول كعب بن زهير في قصيدته
التي مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

هيفاء مقبلة تجزء مدبرة * لا يشتمكي قصر منها ولا طول

ومعلوم ان خاتم الانبياء الذي بعث لتتميم مكارم الاخلاق
أعجب بهذه القصيدة اعجابا لا مزيد عليه حتى انه لم يكتف بحقن
دم الشاعر بعد ان كان أهدره بل خلع عليه بردته الشريفة
ولا عجب اذا حق للغريب المتلصص في هذه الحال أن ينشد قول
من قال

وانك ان أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كراهة أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

والذي جرأني على الايمان بهذا الوصف القليل هو ما جرئت عليه من الاحاطة ببعض أحوال باريس وان لكل مقام مقال فان من أراد أن يلم بشئ على التياترات في هذه البلاد لا يجوز له أن يضرب صفحا عن ذكر النساء فيها لانهن خياتها وروحها ولولاهن لما كان لها ذكر ولا قامت لها قائمة بل ان الرجل ليعتبر نفسه من أسعد السعداء اذا أصبح ورأى في الجرائد ان زوجته أو أخته أو ابنته أو من تنسب اليه هي التي كانت محط الانظار ومحل الإعجاب والاستحسان فهذه هي عاداتهم وهذه هي أخلاقهم يشاركون فيها عامة الاوروبين تقريبا ولم أر مندوحة من الامناع اليها

أما التياترات في حد نفسها فأهمها الاوبرا وقد كان الاحتفال بافتتاحه في ١٧ يناير سنة ١٨٧٥ بعد ان اشتمرت العمارة فيه مدة ١٥ سنة وبلغت نفقائه ٦٥ مليون من الفرنكات وهو المتفرجين يسع ٣٢٠٠ شخص اما ما فيه من المباني الجسيمة الفاخرة والرسوم الباهية الباهرة والصور الجميلة الجميلة والتماثيل المتقنة المحككة والمنقوش المزخرفة والسلام والقباب والثريات وغير ذلك من الامتعة الغالية العالية فذلك بمقدار مبالغ النفقات وفي ذلك ما يغني عن الافاضة

ويجىء بعده التيامترو الفرنساوى أو الكوميديا الفرنساوية
وقد كان تشييده فى سنة ١٧٨٢ ويحتوى على كثير من اثار
الفنون المستظرفة ويعتبره الفرنساوية فخرا قائما لهم وان
الروايات التى تشخص به مسبوكة فى أحسن قالب وأكمل ذوق
ولكن الرواية التى شهدتها لاتشهد بذلك وان كان مؤلفها من أكبر
أكبرهم وهو ابن الكساندر دوماس ومن أعضاء الاكاديمية
الفرنساوية فانها عبارة عن امرأة تحققت خيانة زوجها لها
فاستعملت كل الوسائل فى ارجاعه عن جهله ولم تنجح فاضطرت
ذات ليلة لاقتفاه أثره فى البالوشم فى المواخير وقلدته فى جميع
أعماله ثم أخبرته بذلك بتفصيل وتدقيق أثبتت له حضورها فى
المكان الذى كان فيه متخذة لها صاحبا حيثما اتفق من الشبان
الى غير ذلك مما لا يساعدهنى القلم على كتابته وان كانت فى آخر
الامر أثبتت براءتها بقولها عن الشاب المذكور (لقد كذب) فانها
طلبت من زوجها أن يستعلم منه بطريقة خفية وانى أدع الآن
تفصيل أفكارى فى هذا الموضوع الى الرحلة وانما أقول ان أغلب
الروايات التى تشخص فى فرانسابل وفى أوروبا يكاد يكون الغرض
منها تعليم النساء الحيل والمكايد مع انهن بنات بجدتها وسأقيم

البراهين على ذلك بتلخيص بعض الروايات التي يزدحم عليها القوم
ولا ازدحام الجيع على القصاص

وكذلك أقول عن جميع التيارات التي زرتها ما عدا الاوبرا
في قليل من الاحيان وتيارو الساتليه غالباً فإنه مخصص للقطع
التاريخية ومما يستحق الذكر في هذا التيارو الاخير ان عدد
الراقصات فيه يبلغ ٢٠٠ عدا المشخصات والمشخصين

واعلم أنه يوجد في بعض التيارات نظارات موضوعة في ظهور
الكراسي بكيفية ميكانيكية لطيفة بحيث ان غطاءها ينفتح بمجرد
وضع نصف فرنك في فتحة فيها وبعد تمام التشخيص يعيدها
المنفرج لمكانها

ومن أغرب ما يتعلق بالتيارات تلك الآلة الكهربائية المسماة
بالتياروفون (أى سماعة التيارو) وبيان ذلك أن لاغلب الجرائد
المهمة قاعات فسيحة يسمونها قاعة التلغرافات ولكنها أشبه
شيء بمعرض للصور والرسوم وبعض المصنوعات الدقيقة اللطيفة
وغير ذلك من مستطرف الآلات ومستحدث البدع فتوجهت
الى كثير منها ورأيت فيها شيئاً شبيهاً بالتيلفون وفيه فوهة مخصوصة
يضع الانسان فيها نصف فرنك أو فرنكاً بحسب المدة التي يريد
ثم يضع السماعات على أذنيه فيسمع التشخيص بغاية الوضاحة كأنه

حاضر في أحسن محل بالتأثير و يسمع الغناء بصوت صريح و يقف على جميع الأقوال التي يتبادلها المشخصون أثناء التمثيل مما قد لا يسمعه إذا كان جالسا في الصف الخامس من المتفرجين ولكن هذه الآلة لا تمكن المستمع بها من سماع التصفيق أو الموسيقى أو غير ذلك مما لا يتعلق بالتشخيص مباشرة لأنها مدبرة بحيث تنقل كل صوت يقع في نفس المرحح الذي يقف عليه المشخصون دون سواه وقد حضرت بهذه الكيفية قعطا كثيرة من بعض الروايات التي أعرفها إذ كنت كل ليلة أتوجه إلى قاعة التلغرافات في جريدة غير قاعة جريدة الامس

أما قهاوى المعاني وأما كن الرقص وما يشابهها مما يدخل في هذا الموضوع فهى أكثر من أن يتصورها الانسان وكلها في كل ليلة تكون غاصة بالجواهر المجهرة والعوالم المتقاطرة

أما المنتزهات والمسابقات على الخيول والعربات والاقدماء والعجيلات المفردة والثنائية والثلاثية (السيمكيت والميسكل والتريسكل) وقباقب الرحلة على الثلج الطبيعي والصناعي والسباحة والملاحة والصيد والقنص والرماية ومراتى العالم (صندوق الدنيا) أما والبانورا فقد تفتنوا وتمتقوا فيها إلى درجة قاصية حتى ان جرائدهم تخصص لذلك كله أعمدة طويلة في كل يوم بل ان لكل نوع منها جريدة أو أكثر خاصة به ومنتدى (كلوب) يجمع أهله وكثيرا

ماتكون مسابقاتهم على الاقدام أو العجيلات المفردة من مدينة
الى مدينة أخرى بعيدتين عن بعضهم بمسافات كبيرة وقد
يشاركهم كثير من النساء في هذه المسابقات ويفزن في غالب
الاحوال بقصب السبق في هذه المضامير المتنوعة المتعددة ومن
شدة غرامهم بالزحاقة على الثلج أحدثوا في الصيف الماضي قبل
رجوعى الى باريس بقليل مكانا سموه (القطب الشمالى) وأحضروا
له من آلات التبريد والتشايح (مثل الآلات المعروفة في مصر
المعدة لاصطناع الثلج) ما فيه الكفاية لتجميد الماء وإيجاد الثلج
الصناعى بكية وافرة وحجم سميك يمكن المولعين بهذا النوع من
الرياضة من قضاء ما رهبهم في غير فصل الشتاء وقد نال هذا المحل
اقبالا عظيما جدا مع ارتفاع أثمان الدخول وتأجير القبقاب
وتناول المشروبات وغير ذلك وهذا أكبر دليل على ان القوم
لم يقدروا على كتمان اشتياقهم لهذه المسابقة الى أن يحل أوانها
حتى انى لم أربدا من زيارته في بعض الليالى حبا للاستطلاع
والوقوف على حركته وكيفية ادارته فتوجهت أولا الى الحمام
التركى (وهو على طرز الحمامات العمومية في مصر لا يفترق عنها
الابفرط نظافته ووجود المرشات الباردة وبرك السباحة وكال
المعدات) وقد رأيت في جملة المكبسين الاقربج الذين به رجلا من

الاسكندر يين اسمه حسن قد فارق ديار مصر مع عائلة
أمريكانية منذ ١٨ سنة ثم انفصل من هذه العائلة واستقر في
باريس يكسب قوته بكده وسعيه وبعد الحمام انتقلت الى القطب
الشمالي فاذا هو مكان فسبح جدا فيه صور ورسوم تصور هيئة
القطب الشمالي وثلوجه ونباتاته ومحيطه وكواكبه وغير ذلك ورأيت
الآلات وكيفية ادارتها ووقفت على سير هذه المصلحة المستجدة
بالتفصيل وعرفت أسرارها مما سأخبره بالبيان الشافي في الرحلة
ان شاء الله وقد هزني الشوق الى مجاراتهم ووطئ الثلج بتلك
الاقدام المصرية التي لم يتح لها قط فرصة مثل هذه في وادي
النيل السعيد فاتخذت أستاذنا يسندني وكنت أحس بالبرد في
أقدامي وانجلي في نفسي من رؤية الغلمان والفتيان والبنات
والعذارى يتسابقون كالريح الهبوب ويرقصون على هذه المرآة
الصقيلة رقصا موزونامع نغمات الموسيقى وايقاعاتها ومنهم من كان
يرسم دوائر كبيرة ثم صغيرة فأصغر وهكذا حتى يصل الى نقطة المركز
ومنهم من كان يقبع على قطبه الجنوبي في هذا القطب الشمالي وأنا
في خلال ذلك أنقل رجلا بعد أن أتأكد من ثبات الاخرى مع
التوثق من استنادي على أستاذي كأني طفل قد ابتدأ في التخطي
أوفيل جسيم يسير بكل تودة على حافة هاوية عميقة أو على شفا

بحرف هاروفى أثناء ذلك أخبرنى الأستاذ بان جماعة من الافرنج
عزموا على ايجاد محل نظير القطب الشمالى فى مصر القاهرة بدلا
من المكان المصفح بالقار والاسفلت المعروف باسم (كيروسكيتنج
رنك) فقلت فى نفسى لقد صدق من قال ان عقل هؤلاء القوم
فى كذبهم وانهم لا يتمتع عليهم شئ من مستعصيات الطبيعة

التمثيل والميادين والزهريات المربعة (الاسكوير)

والارصفة والقناطر

تحتل مدينة باريس مثل أكثر المدن الأوروبية بتماثيل
كثيرة لأعظم رجالها ولا أذكر الآن ما فى داخل القصور والنظارات
والمصالح العمومية الاميرية وديار البلدية والمتاحف وغرف الجمعيات
العلمية والصناعية والتجارية وغير ذلك من دور العامة والخاصة
وانما أذكر ما رأيت فيه فى بعض الشوارع والميادين من ذلك تمثال
الجمهورية وتحت أقدامها غضنفر يحمى كأس الانتخابات العمومية
وعلى قاعدة التمثال رسوم بارزة تمثل أهم أعمال الجمهورية الأولى
والثانية والثالثة فى فرنسا وتماثيل الخيرية والمساواة والاحياء وارتناع
هذا الاثر ٢١ مترا ثم تمثال الملك هنرى الرابع وتاريخه مشهور
خصوصا فى تودده للامة وتقربه من الاهالى حتى انه حينما كان

غائبا عن باريس وتمرد عليه أهلها ورفعوا لواء العصيان لبعض
أمور دينية رجع اليهم وحاصرهم وضيق عليهم الحصار ولما علم
بشدّة الضنك الذي صاروا اليه أخذ يرسل اليهم الخبز من فوق
الاسوار مع استمواره على الحصار وكان يقول انى لا أريد
أن أتملكهم بالجوع فذلك مما تأباه الشهامة والفروسية ثم تمثال
الجمهورية أمام قصر جمعية المعارف وتمثال الفتاة جان دارك المشهورة
باخراج الانكليز من فرنسا وتمثال لويز الرابع عشر ملك فرنسا
المشهور وتمثالين لقولتيير وتمثال لكلود برنار وآخر لدانتى الشاعر
الاطليانى الخلد الذكر ولوين بلان الكاتب الطائر الصيت خصوصا
بتواريخه على ثورات فرنسا وشارلمان الملك وديدرو من أكبر
فلاسفتهم ورأس المؤلفين للوسوعات الفرنسية وبيرانجية صاحب
التلاحين والاعنانى التى يكاد يحفظها كل فرد منهم والكساندر
دوماس صاحب الروايات العديدة المترجم بعضها الى اللغة العربية
وجان بلك روسو ذلك الفيلسوف العظيم الذى كان له يد طولى فى
تنقيف عقول الاممة وتنوير الأذهان وشا كسبير شاعر الانكليز
وفيلسوفهم صاحب رواية كيبوطرة ملائكة مصر وقد بلغ فيها نهاية
الاجادة ولامرتين ذلك الشاعر المفلق والكاتب المجيد وكثيرا
ما كتب على المشرق ومصر والدولة العلية خصوصا ككتابات تسحر

العقول وتخاب الالباب وقد تولى رئاسة الجمهورية وتمثال دانتون
المشهور الذي حرك ساكن الوطنية في قلوب قومه بخطبه الرنانة
ومقالاته الماثورة ومن أهم كلماته قوله (لكي نتمرد و الوطن
يلزمنا الاقدام ثم الاقدام وعلى الدوام الاقدام) وهى بلغتهم فى
تهيات الفصاحة مع بساطة الشكل كالسهل الممتنع عندنا
وتمثال الاب دولوى (ذى الحسام) وهو أول من عني بتعليم
الخرس وقد سبق لنا ذكره ثم تمثال الرياضى المحقق والطبيعى
المدقق العلامة باسكال وقد أشرنا اليه فيما سبق وهناك تماثيل
كثيرة لعظمائهم يضيق عن سردها المقام والذي يستحق
التخصيص الآن هو تمثال رجل كان جاويشا فى غزوة التونكيين
واسمه الجاويش بوييللو وليس فى فرنسا كلها تمثال لصف ضابط
سواه وسبب عناية القوم به لهذه الدرجة واكتتابهم فى جميع
اطراف فرنسا لجمع المال اللازم لتشييد هذا الاثر ان الجنود
الفرنساوية حاصرهم أهل التونكيين فى غابة كثيفة وأوشكوا
على إبادةهم عن آخرهم لولا وجود هذا الرجل فانه تعرض لهم
وفدى قومه بنفسه اذ شاغل التونكيين بثبات جاش وجراءة
حتى تيسر لقومه وجود مخرج من هذه الورطة وقد قتل الرجل
فى هذه الواقعة بعد ان أبلى فى أعدائه بلاء حسنا وبهذه المناسبة

اذكر مارأيته في تورينو والشئ بالشئ يذ كر رأيت في أحسن
مياذنها تمثال نفر من العساكر لم يحرز أدنى رتبة فتعجبت من
هذه الحفاوة به واستفهمت عن السبب فقبل لي انه انقذ المدينة
باسرها من أعدائها وفدى بلاده بنفسه وذلك انه لما كانت
الحرب بين النمساويين واليطاليين اتفق ان أهل أوستريا فازوا
على أهل تورينو والزمر الجنودهم الفرار واحتلوا قلعهم فلما
يتقدم هذا الجندي من أعدائه ويأخذ بنار وطنه أختبأ في
مخزن البارود (الجحانة) ثم أوقع فيه النار فطارت القلعة بمن
فيها وهلك هو وجميع الجنود النمساويين وقد كانوا اعتقلوا بها
وكان الرجل أول من مات ولكنه انقذ حياة بنى وطنه أجمعين
أما الميادين في باريس فكلها في غاية الجمال ونهاية النظافة
تحف بها المباني الخظيرة والقصور الجسمية ويبلغ عددها نحو
الستين ولكن بالمقابلة وحفظ النسبة أقول ان الميادين العمومية
في فلورانس أكثر منها في باريس وقد رأيت أيضا كثيرا من
الزهريات المربعة (واسمها بالانجليزية سكوير لفظ انكليزي لانها
من خصوصيات المدائن الانكليزية) ولها في مصر نظائر مثل التي
في رحبة عابدين والعتبة الخضراء وميدان الاوبرا وغير ذلك وكلها
مزودة بالتماثيل والفساق والازهار والشجيرات الغريبة والاعشاب

النضيرة وهي محط العناية التامة من ديوان البلدية لانها تساعد
مثل الميادين على اصلاح الهواء وترويح النفوس وعددها ٢٥
زهريّة

أما الارصفة والقناطر التي على نهر السين فهي من أهم
المتنزهات وجميع الارصفة مبنية بحجر الاستور ولها برازيق
ودرابزونات عليها كثير من صناديق الخشب هي مخازن لبائعي
الكتب القديمة ومنسوق كتب (اللقطة) ولقد استغرقت مني
هذه الارصفة ساعات طويلة في أغاب أياي واشترت منها كتباً
كثيرة بأثمان زهيدة وعدد الارصفة ٣٦ وأغلبها عليه أشجار ظليّة
وأما القناطر فعدتها ٢٨ ومنها ما هو مبني بالحجر ومنها ما هو مركب
من الحديد وعلى بعضها تماثيل فوق سطحها أو على أساطينها
ومن المعلوم ان نهر السين يحترق بباريس كهيئة قوس يبلغ طوله
١٢٠٠٠ متر إلا قليلا فتكون المسافة المتوسطة بين كل قنطرة
والثانية نحو ٤٢٧ مترا تقريبا وأحسن وقت لرؤية هذه القناطر
هو الليل اذ تكون مضاءة هي والارصفة بالمصابيح المختلفة
الالوان وترسل النور على صفحات النهر فتكون كذهب الاصيل
على بلجين الماء

المطبعة الاهلية وبنك فرنسا وبنك الرهونات

لا يمكن زيارة هذه المطبعة الا في يوم الخميس الساعة ٢ بعد الظهر بالضبط بعد الاستحصال على تذكرة خصوصية من المدير واذا حضر الزائر بعد الميعات المحدد لا يجوز له الدخول وقد طفتها ورأيت أعمالها الجسمية وعمالها العديدين الذين يزيدون على ١٢٠٠ ذكورا واناثا يقومون بكافة ما تستلزمه صناعات الكتب من سبك الحروف الى تجليد الكتب ونقش القوالب وخرافيه والرسوم على الاجمار وفي المطبعة ٢٨٨ نوعا من الحروف منها ١٥٣ خاصة باللغات الاجنبية وبواسطتها يمتسر لها طبع كتب بثمانية وخمسين لسانا شرقيا وقد ظهر فيها من الكتب والرسائل العربية أصلا وترجمة ما يكاد يكون مجهولا في بلادنا وفي فنائها تمثال لجوتنبرج مخترع الطبع

أما بنك فرنسا فيكاد يضارع مثيله في انكثرة ولقراطيسه ثقة عامة في جميع انحاء المسكونة وقد تزيد قيمتها في بلاد كثيرة من أوروبا وأمريكا ومن أهم ما يستوقف الانظار به بهو الذهب وهو عبارة عن قاعة طويلة منخرقة بنقوش مذهبة وأخشاب مصنوعة باتقان واجادة وقد كانت بالقصر الذي هو فيه الآن

أيام كان سكا لبعض أفراد العائلة الملوكية فابقاها البنك على حالها بل أجرى فيها ترميمات تزيد نفقتها عن المليونين من الفرنكات وهي معدة لاجتماع المساهمين في بعض أيام من السنة فقط أما بنك الرهونات فتعريب اسمه الفرنساوى هو جبل التقوى وله فروع ونظائر في جميع أقطار الارض وفي اسمه العربى دلالة كافية على ما يتعاطاه من الاعمال وفي كل سنة يباشر جدا عموميا على الامتعة والجواهر والسندات والقراطيس المالية المرهونة فيه منذ سنوات عديدة وفي هذه السنة حصلت هذه العملية المهمة ومن جملة الغرائب التى تدقنت في قائمة الجرد ستارة مضى عليها فيه اثنتان وعشرون سنة وصاحبها يجدد الرهن في كل سنة وهذا الامر ليس فى شئ من الغرابة بجانب مطرية مرهونة فيه منذ سنة ١٨٤٩ على مبلغ ٦ فرنكات وقد أربت فوائد هذا المبلغ على ثلاثين فرنكا قماً مل

الاسواق والمطاعم ومعارض الصناعة

والزراعة ونحو ذلك

أسواق المؤنة المركزية فى هذه المدينة تشغل مسطحا من

الارض قدره ٧٠,٠٠٠ متر مربع وقد كان وضع أول حجر منها في سنة ١٨٥١ وهى عبارة عن كشكات من الحديد ليس الا يعاوها سطح من التوتيا وتحتها سراديب فيها مخازن وسكة حديدية ستصل عما قليل بسكة حزام العاصمة وفي كل كشك ٥٢٠ دكانا وعدد الكشكات الموجودة الآن ١٠ وقد قدروا نفقات هذا العمل الجسيم بستين مليوناً من الفرنكات وقد استخدموا الكهرباء في اضاءتها بالليل منذ سنة ١٨٩١ ويوجد في جميع أقسام باريس أسواق مؤنة ثانوية منظمة على نسق الاسواق المركزية وأحسن وقت لزيارتها ورؤية حركتها هو وقت التمون أى في بكرة النهار قبل طلوع الشمس وضمف الى ذلك أسواق الازهار وهى تزيد على الخمسة وأسواق الاطيار وسوق الكلاب وسوق الخلود وسوق الخيول وسوق العلف وسوق البهائم (وله اتصال بالمذابح) وسوق التميل (الهيكل) وهو في يد قومبانية ومسطحة ١٤١١٠ أمتار وفيه ٢٤٠٠ دكان تباع فيها جميع الاصناف

أما المطاعم المعروفة باللوكاندا فهى كثيرة جداً ومنها ما يكون الاكل فيه بمن محدود أو بحسب قيمة كل صنف على حدته ومنها ما قد تبلغ الغدوة والعشوة فيه ثلاثين وأربعين وخمسين

ومائة فرنك ومنها مالا يتجاوز الاكلة فيه ثلاث فرنكات أو اثنتين
بل وأقل من ذلك وأغلبها مزخرفة مضادة بالكهرباء وفي كثير منها
خلايا منعزلة يدخلها الرجال مع بعض النساء ومنها ما هو مخصص
لصنف واحد من المأكولات وبعضها يكون مفتوحا طول الليل
وغير ذلك وأغلب القهواى ومشارب الجمعة (البيرايات) والحجرات
تقدم الزاد لمن أراد والذي ينبغي ذكره بنوع التخصيص في هذا
الباب هو مطاعم دو فال فقد بلغنى ان هذا الرجل كان قصابا
(جزارا) ثم كانت تتأخر عنده اللحوم فيبيعها بأبخس الأثمان
أولا يجد لتصرفها من سبيل نخطر على باله أن يتخذ مطعما يشوى
فيه هذه اللحوم ويبيعها بثمن بخس للآكين فشرع في العمل
وأقبل عليه الدهر فتوسع في هذا الموضوع حتى صارت مطاعمه
مقصودة من العامة والخاصة يتقاطر عليها الاكابر والاصاغر
وذلك لبخس الاثمان وزيادة العناية وجودة المأكولات مع زخرفة
الاماكن وازدحامها بالكهرباء وادارة هذه المطاعم الآن في يد
قومانية من المساهمين وقد بلغ عددها في أول يناير سنة ١٨٩٢
٢٦ خلاف فندقين كبيرين وخلاف المخازن العمومية ومعمل الفطير
والمغسل ومخازن الانبذة وعددها أربعة منها واحد في بورديو وخلاف
دكاكين الجزيرة في ثلاثة شوارع واذا توجه الانسان الى مطعم من

هذه المطاعم في وقت الظهر أو بعد المغرب رأى منظرا غريبا اذ يرى
كثائب الخادمين مسرعين مهرولين وجيوش الآكسين متشدقين
ماضغين بالعين مع المواظبة على الشرب الحلال والحرام والداخلين
أكثر من الخارجين ويكون المكان بهذه الخلائق المتوجمة أشبه
باحد سوارع لوندرة وعلى ذكر لوندرة أقول اننى أتعجب كل العجب
من عدم عجيء هذه الفكرة لرجل من أبناء بريطانيا العظمى
فانها أشبه بما صنعه كوك وهويتلى وغيرهما والاغرب من ذلك
انه لم يقم للآن رجل من الانكليز بميل يضارع هذه المطاعم في
« موسوعات الدنيا » بل قد نسجت قومبانية باريسية أخرى على
منوال دوفال وأنشأت أربعة مطاعم وفندقا بقهوة ومطعم في أهم
شوارع باريس ودروها وهى وان كانت في درجة من الرفاهية
وحسن الحال لكنها لاتضاهى نجاح مطاعم دوفال - والعادة في هذا
النوع من المطاعم أن يعطى للانسان عند دخوله قائمة مطبوعة
فيها الاثمان فقط ومتى طلب صنفا أشر الخادم أمام الثمن المقرر
له حتى اذا فرغ الآكل توجه بهذه القائمة الى أمين الصندوق
وأنقده المطلوب ثم ردها عند الخروج للعامل الذى أعطاها له عند
الدخول

أما معارض الصناعة فلها فيما أرى غايتان أولاهما تنشيط

الصناع وحثهم على التفنن والاختراع وثابنتهما تعريف الاهالى بما
ينجم عن ذلك من الفائدة والاقتصاد والحصول على أمور قد تطلبها
النفوس من غير أن يقدر اللسان على التعبير عنها لعدم سابقه
العلم بها ولذلك أنشأت مدينة باريس كشكا على حافة نهر السين
يعرف باسمها وتأتى الجمعيات الحرفية والطوائف الصناعية لعرض
مصنوعاتها فيه والمباراة لحيازة شهادات الشرف ووسامات الافتخار
من أعضاء مجلس المحلفين الخبيرين المعينين لكل نوع واتفق
انه فى اثناء وجودى بباريس كان الدور لمتعاطى صناعة الخدم
الخنزير فتوجهت الى الكشك حبا بالاستطلاع ورأيت فيه
الموسيقى العسكرية تصدح بالخانها المطربة وأعمال الصناع
معروضة على الانظار بتائق وتجميل بحيث كانت تستوجب إعجاب
القوم ونسبتدى شهيتهم فينظرون اليها نظرا متواليا ويلاعبون
ريقهم ثم يقصدون الحانات فتعياطون المشروبات فيكأنهم
حينما أطربتهم نغمات الموسيقى تصوروا انهم أكلوا من هذا
الصنف المستطاب لهم ورأوا من الواجب اتمام القصف بمعاقرة
بنت الكرم وسأتكلم فيما بعد على هذا المعرض بتفصيل يشقى
الغليل - ثم جاء الدور للطحانين فافتتح مؤتمرهم باحتفال عظيم
كان رئيسه وزير التجارة ومعه كثير من كبار الموظفين فى نظارته

ورئيس جمعية الطحانين بفرنسا - ثم معرض جمعية المشتغلين
بتربية الازهار ثم معرض دولى للاطيار ثم غير ذلك من المعارض
التي لايسمعنى سردها الآن وكلها تتجدد فى كل عام مع زيادة فى
التفنن والاعراب - وكل واحد من هذه المعارض يتبدى
باحتمالات باهرة وينتهى بولائم فاخرة

ضواحي باريس

لا تخلو عاصمة من ضواحي يقصدها أهل الثروة وطالبو النزاهة
لترويح النفس من ضواحي المذات الكبيرة ولكنى لم أزر من
ضواحي باريس سوى فنسن و فرساي فأمام مدينة فنسن (وسكانها
٢٢٢,٢٧٨) فما تستحق الذكر لولا العاقبة الجميلة التي بها والقلعة
المهمة المنبعا المعروفة باسمها وقد زرت هذه القلعة بتصريح
خصوصى ورأيت غرف التعذيب وآلات العذاب والمكان الشاهق
الذى هرب منه الدوك دوبوفور وقناة السين التي كانت ترمى بها
جثة المعذب بعد ان يسقى كأس الحمام وغرفة سجن بها أحد
القساوسة ٧ سنوات وأخرى اعتقل فيها أحد الكرادلة ٧
شهور ولكن ذلك كله أصبح أثرا بعد عين وصار كاذبا مانعا
لاعمل لها حتى انهم قد سدوا فوهة البئر الموصل لقناة السين وقد

يبلغ غلط الحائط في أعالي هذه القلعة ثلاثة أمتار ورأيت خزائن
السلاح ولكنها ليست شياً مذكورا بجانب ما رأيت في برج
لوندرة وحصن دوفر من أعمال انكلترة وأما الغابة ومنتزهاتها
وبحيراتها وجزائرها وخلوها فساتكم عليها في الرحلة مع الامماع
بشيء الى غابة بولونيا والبوت شومون وغير ذلك

أما قصر فرساي فقد كان مقر ملوك فرنسا وهو في منتهى الجمال
والفخامة بحيث لا يكاد يعادله شيء مما رأيت وقد حوى صور جميع
ملوك فرنسا ومشاهيرها على الجدران والرخام والقماش وغير ذلك بغاية
الابداع ونهاية الاتقان ومن أراد ان يتف على تاريخ فرنسا في
سويغات قليلة فما عليه الآن ينظر الرسوم التي أزدانت بها غرفه
فانه يرى فيها جميع وقائعها وأعمالها وكل ما يتعلق بتاريخها ومما
استوقف انظارى بنوع خصوصى صورة الشيخ السادات والسيد
البكرى والشيخ الشرفاوى وغيرهم من أكابر مصر أيام دخلها
بونابرت وقد رأيت أسرة ملوك فرنسا وأثاناتهم وأمتعته الخاصة
بشؤونهم الداخلية ورسوما تمثل الحروب الصليبية وحروب افريقية
والقرم وايطاليا وغير ذلك مما لا يدخل تحت حصر واحفظ لنفسى
حق الكلام عليه وعلى الروض اللينق والفساقى البديعة وعربات

الملوك التي بقصر اخر بجواره يعرف ب(التريانون) وغير ذلك مما
يضيق عنه نطاق هذه الاوراق

أهل باريس

اف لك يا باريس وألف أف فقد أعيماني فيك الوصف واضطرتني
كثرة ما فيك من المآثر والمفاخر وتعدد المشاهد والمعاهد للاطالة
في المقالة بما ربما يوجب الملالة والكلالة مع اني لم أعترف للقارئ
الاقطرة من بحرك ولم أروحه الابنفحه من زهرك ولا يزال مجال
الكتابة واسعا امامي فسيح الجولان اقلامي ولكنني لأرى مندوحة
عن اقفاله الان لافتتاحه بعد القبول الى الاوطان وأختم هذه
الرسالة بذكر كلمات عن أهلك واخلاقهم وحركتهم ونشاطهم
وافكارهم وآرائهم فقد ان لي ان أقدمهم الي بني مصر بناء على
ما حققته بالاختبار وعرفته بعد بعض المعاينة حتى انني لأرى
وصفا يصدق عليهم أكثر مما قاله أحد ولاة قرطبة في أيام الاسلام
بعد ان تحلى عن ادارتها فانه وصف أهلها بالقيام على الملوك
والتشجيع على الولاة وقلة الرضى بامورهم كما سجل ان خفت
عنهم اكمل صاح وان اثلثتهم به صاح فلا يدرى أين رضاه وفي ذلك
دليل على ان أفراد الانسان مهما كانت بلادهم قاصية وعاداتهم

متباينة وطبايعهم متخالفة وأقاليهم متنوعة ومعتقداتهم متباينة
فلاتزال في أفكارهم وحدة تجمعهم وفي نفوسهم حاجات مشتركة

بينهم

وأهل باريس أكثر من رأيهم من الأمم نظرا في الفرق
الحاصل بين أفراد الهيئة الاجتماعية فانهم يرون الوضعين
كثيرين والرفيعين قليلين والواصلين الى ذروة النعيم عددهم يسير
فيقولون لم هذا الاختلاف ونحن كلنا متساوون وانباء نوع واحد
تجمعنا راية الجمهورية وقد كتبت عليها هذه الكلمات (حرية
- مساواة - إخاء) ولما انتشر التعليم فيما بينهم ونفذت
أشعته بين لفيق المتساولين الحرف الدينية منهم تصور هؤلاء
الافراد أنهم يعرفون أكثر مما يعلمون وصاروا لا يقيسون أنفسهم
بمن هو أعلم منهم بل ينظرون الى من هم أحط في الدرجة فداخلهم
الاجباب بنفوسهم حتى خيلت لهم الخيلاء أنهم أهل للكلام في
كل موضوع وان لهم الحق في الحل والعقد في جميع المسائل
على اختلاف طبقاتها وأخذوا يجاهرون باللوم والتأنيب ويقولون
انهم لو كانت الامور بأيديهم لكانت مساعيتهم أحمد عاقبة وأعمالهم
أتم فائدة ولذلك تشعبت أفكارهم وكثرت مقالاتهم في حل المسئلة
الاجتماعية وترتيب نظام الجمعية البشرية على أسلوب يفي بجميع

الحاجات فيقول فريق منهم (اننا لانطلب شيئاً ما من أحداً
ولاحاجة لنا بكائن من كان فلماذا لا يتركنا الغير نعيش متمتعين
بالحرية راتعين في مجموعة الاستقلال . أليس من المستغربات
الزماننا بدفع الضرائب والغرامات من المال الذي جمعناه بكدنا
وسعيينا بحجة القيام ببنقات يسمونها عمومية وهي لاتهمنا
ولاتعنيننا . أليس ان ما نكسبه بعرق جبيننا ملك حلال لنا
فلماذا يضطرنا الغير لبذله في إغناء الغير) ويقوم فريق آخر
بعضده ويقول (ليت شعري هل كتب علينا التعب والنصب
لاجل ان نحمل ثمره اتعبنا الى مأمور التحصيل لاغناء المميزين
وهم عدد قليل لعمرى انه لاحاجة لنا في ان يتحلى رئيس الشرطة
وصاحب العسس بالشرطة من القصب والذهب أو ان يكون
لخضرة المدير عربات تجرها الجياد الصافنات) فيقوم فريق آخر ويقول
(اننى لأكثر الندب على المال فانه لامراء ان رئيس الشرطة
وصاحب العسس لا يمكنهما ان يتفرغا للزراعة والصناعة بينهما
آخذان في تعقب اللصوص وقطع دابر قطاع الطريق ولذلك فانه
ينبغي لنا ان نكسوهم ومن رأى ان شرائط القصب والذهب
ليست من الزيادات والنوافل لانها تحدث الهيبة ولألوم المدير
على اتخاذ الخيول فانه يجب عليه قطع المسافات الطويلة لتتفقد

أحوال مديريته ولكن الذي لا يمكنني ان أتحمله أو أراضى به هوان
القوم يفدون علينا في كل عام ويتزعمون منا زهرة الشبان ليدخلوهم
في سلك الاجناد والاعوان الله الله أليس من أشنع الامور
وأبشع الاعمال سوق أوائلك الفتيان الى سوق المذبحة الذي يسمونه
بالحرب فلما ذا نحارب ولما ذا نضارب أليس ان الاولى ان نلبث في
ديارنا بسلام وأمان منقطعين لحرث الارض وحمل المحصول الى
السوق ومعاملة كافة الناس بالتى هي أحسن) فيقوم فريق آخر
ويقول (نعمت هذه الافكار وياحبذا هذا الرأى لو كانت الناس
كلهم عقلاء وقائمين برفع منار العدل فيما بينهم . قولوا الحق
أفلو اعتدى جاركم على قيراط من أرضكم أمانتقوم القيامة لعمري
أنكم تشرعون الاسنة وتفضى بكم الحال الى اهراق الدماء لأنتم
الحرفة حرفة الهندى يزود عن حياض وطنه ويحمى أهل بلده
فان ذلك من أوجب الواجبات اذمن المنازعات مالا يجدى فيها
التسليم بل التسليم ومنها لا ينجح فيها المدافع الا اذا صاح بافواه
المدافع) ثم تشعب افكار كل فريق ويستحسن بعضهم ما يقبحه
الآخر ويأتى هذا ببعض التعديل وذلك بشئ من التبديل
ولهم مثل ذلك فيما يتعلق بالنواب عن البلاد فيقول بعضهم
(انى لأرى الفائدة التى تعود علينا من اختيار رجل يذهب الى

مجلس النواب لينوب عنا وليستغل بمصالح البلاد وذلك لوجوه
أولها أننا نجري في هذا الانتخاب كالعَميان الذين لا يهتمون
إلى الطريق فإن القوم يقولون لنا هذا الرجل يصلح وذلك الرجل
لا يصلح ونحن نجهل حقيقة الاثنين في أغلب الاحوال وكل منهما
يشنف أسماعنا بما يخرج من وطابه من مستعذب المقال ويعدنا
بأنه يوصلنا إلى تمام السعادة ولكن أين منا الماهر الذي يقدر
على تمييز البواطن من الظواهر وتعرف الخبيث من الطيب فإني إذا
توجهت إلى السوق أقدر على تمييز الحبوب الجيدة والاثمار
الصالحة ولكنني أقول الحق أنني في اختيار النائب لأعرف ماذا أنا
صانع ولا أقدر أحكم عليه مثل حكمي على غيره من الأشياء التي
لي بها تمام الخبرة فإن حضرة شيخ البلد (أمين المدينة) يوزع
علينا قوائم الانتخاب ويقول لنا إن فلان هو الحائز لكافة
الأوصاف اللازمة وينبغي انتخابه ومن رأيي أن ينفرد أمراء المدن
بعملية الانتخاب فإن رأيهم هو الغالب وحينئذ يتم هذا الأمر في
وقت قصير وفي اختصار الزمن فائدة عظيمة) فيقول فريق آخر
(متى يحجز الإنسان لاي سبب من الأسباب عن مباشرة شؤونه
بنفسه فالواجب عليه أن ينيط واحدا غيره يختماره لها فإذا لم يكن

عنده من المعلومات ما يكفي لهذا الانتخاب يجب عليه الاسترشاد
برأى حكيم ناصح يثق بقوله ويعول على رأيه وحينئذ يكون له يد
في ادارة أحوال بلاده ويدخله السرور بأن له كلمة معدودة وصوت
معتبر) فيقول فريق آخر (كل ذلك حسن ولكني أرى ان أمور
البلاد وادارة شؤونها تصلح كثيرا اذا كانت في يد رجل واحدا يحكمها
بحسب ما أوتى من الحكمة فانه متى كان الحاكم واحدا كانت
مصالحته الشخصية أكبر قاض عليه في ادارة الامة على أكمل
منوال حتى يتقرب اليها ويتجنب منها ومن المقرر الذي لا يختلف
فيه اثنان غرق السفينة التي فيها ريسان وقد رأيت في بعض
الايام عربة يجرها ستة من الافراس قد ارتبكت في طريق كثير
وحد له ووعثاؤه فتقدم لانقاذها كثير من الناس وبعضهم يدفع
العربة ذات اليمين وآخر ذات اليسار وبعضهم يشدها من الخلف
بينما نفر يجرونها من الامام ويجيء جماعة فيفوقون السياط على
الخيول وهي لاتزداد الا حرنا وتعاصيا وفي أثناء ذلك تزداد العربة
غوصا في الوحل وارتطاما ولما رأى سائق العربة هـ هذه الحالة
أبعد جميع هؤلاء الناصحين الغير ناصحين ونظم خيوله بجانب بعضها
ثم استوى على كرسيه وهمهم على الخيل من غير أن يرفع عليها
سوطه فعرفت صوته وجعت قواها ثم نهضت بحملها الثقيل نهضة

واحدة استخلصت العربية من الاحوال وسارت تركض بها في
أحسن حال فهكذا تكون ادارة الاعمال فيقوم فريق آخر ويقول
(انما أفلم سائق العربية لمهارته وحسن ادارته ومعرفة بمهنته
ولان خيوله كانت قادرة على جرحها والا لو كان فوق طاقتها
لما قدرت أن تقوم به أبدا ولكن الرجل لو كان غير كفؤ لوظيفته
لاشك انه كان يعتبر نفسه سعيدا من وجود ناصحين له صادقين في
خدمته يعاونونه على الخروج من مثل هذه الورطة بسلام بل ربما كان
يشكر العناية الصمدانية اذا كانت قبضت له في مثل هذه الحال
وجلا أقدار منة على قيادة العربية وخيولها فكان يلقي اليه بالزمام
ليتعلم منه كيف تكون الادارة في المسالك الحرجة والمواقف
الوعرة ولو كانت خيوله لا قبل لها بجر العربية فهل كان يرفض
نصيحة العقلاء الذين يشيرون عليه بتخفيف الحمل أو تهديد الطريق
امام العجلات وازالة ما يعترضها من الاجار والموانع الاخرى فلذلك
لا ينبغي الاستخفاف بالمشورة فان من انفرد برأيه زل ومن استغنى
بعقله ضل وما خاب من استخار ولاندم من استشار)
هـ- ذا مثال من ألف مثال مما رأيت من حركة الافكار
ولأود الاطالة بشرح أفكار القوم في المسئلة الاجتماعية

وهيجانهم الى درجة لا يتصورها العقل وسأشرح ذلك في الرحلة
بالتفصيل وأطلع قومي على غرائب هؤلاء الاقوام والله المستعان

الرسالة الاخيرة من الرسائل المؤتمرية

(وداع باريزود كرا الاندلس والبرتغال)

(وجه الاجمال)

من غرناطة في يوم الاثنين المبارك ٥ رجب الفرد سنة

١٣١٠ - ٢٣ يناير سنة ٩٣

قضت فواميس الكون الانساني ونظامات الوجود العمراني وداع باريس
بان دوام الحال من المحال وانه لا بد من الفراق مهما طال التلاق
وان لكل اجتماع انقطاعا ولكل اتصال انفصالا تلك سنة الله في
خلقه جيلا فجيلا ولن تجد لسنة الله تبديلا
أطلت المقام في باريز الى ما بعد الميقات الذي كنت ضربه
لبراحها بايام كثيرة فانتى كنت كلما عزمت على السفر رأيت وجوب
التأجيل وعدم التجميل لمناظرة بعض الاثراء وشهود أنواع من
الاحتفال أو غير ذلك مما يستوقف الراحل ويستغرق الاوقات
ويحبس السائر عن عدوه ويحخرس الطائر المفصح بشده فكم
فيها من مسارح تنضح بها الجوانح ومحاسن يشغل بها عن وكره

الساخ ومطارح تطرح ذكر الوطن من ذاكرة السائح حتى
اعتراى الكلال والملال من كثرة ما رأيت وما سمعت وصرت
أترقب الفرص لتيسر الخروج من هذه الدار كما دخلتها بسلام
فيسر الله الاسباب وفتح الابواب فودعتها في منتصف ليلة ١٩
الى ٢٠ نوفمبر سنة ٩٢ ورحلت عن هذه الارباء المتألقة والروح
بها وبمن فيها متعلقة ثم سار القطارينهب الارض نهباً ويقطع
الغيابى فدفا بعد فدفا ومر على كثير من مدائن فرنسا العامرة
مثل توروهى مشهورة باعتمادال اللسان الفرنسوى وصفاء اللغة
حتى ان أكثر الطالبين لابد لهم من الإقامة فيها شهورا طويلة
لترسخ فيهم ملكته التى لاتشوبها ادنى شائبة ومثل انجوليم
المذكورة فى كتب العرب باسم انقلزم ومثل بوردو المشهور شهرة
تغنى عن وصفها وقد سماها العرب بحسب التسمية اللاتينية
برديل وبردال (وبالذال المبهمة فى كلتا اللفظتين)

وكان بودى أن أقف بكل من هذه المدائن الثلاث بضعة أيام
ولكن وقتى لم يكن يسمح لى بانالة نفسى هذه الامانى ولم أصل
الى تخوم اسبانيا الا بعد أن أمضيت فى القطار مدة أربع
وعشرين ساعة لم تسكتحل فيها عيني بأحد الكرى حتى أجهدى
السير وأضناني السرى ولكننى تجددت فى القوى حينما شممت

عبير الاندلس واستنشقت نفحاته وتمتعت بالنظر الى صافي مائه
وقد ترصعت بالدرارى كما هو الشأن فى بلادى وأرض مهادى
بخلاف ما كنت قد اعتدت عليه فى انكلترا وباريز من كدورة
الجو وغم السماء وتوالى الغيوم وتعاقب الامطار فصرت اسامر
بدر السماء واطارح الكواكب الحديث واشكو اليها ملاقيته فى
غربتى واطيل النظر اليها حتى لقد كان

يخيل لى ان سمر الشهب فى الدجى * وشدت باهدابى اليهن اجفانى

وحيث شطحت مع تيار الافكار وليكنى ما لبثت ان انقبض
صدرى وعلتنى الكآبة ويولانى الانزعاج اذ أحاطت بى جيوش
من اللوعة والاسف والحسرة والهدف لانى تفكرت ماناله الاسلام
من العز والافتدار فى هاتيك الديار أيام كانت تحفق فوق الاندلس
اعلامه وتجول فيه أقوامه ناشرة ألوية الفخار والحضارة رافعة
رايات الجهد والكرامة أيام كانت المآذن قائمة على أعاليه
وروايه تشق أكباد السحاب ويرتفع منها صوت المؤذن
الى عنان السماء فتخشع القلوب وتغنو الوجوه لذكر الحى القيوم
أيام كانت المساجد عامرة بجماعات الموحدين القانتين وربوع
العلم زاهرة زاهية بالدارسين والمدرسين أيام كان التمدن العربى

بإسطا بساطه من اطرافه الى اطرافه والمروة والشهامة ساريين
في جسمانه أيام كانت خلافة المغرب تفوق مناظرتها في المشرق
بما احتاطت به من أسباب البذخ والعظمة والعرفان حتى كانت
ملوك أوروبا تتزلف الى الخلفاء وتلتبس رعايتهم وحمايتهم أيام نبخ
العلماء والمخترعون والمكتشفون الذين افادوا العالم باجمعه ورفعوا
كلمة الاسلام وجاؤا باقوم برهان على ان الدين الحنيف يساعد
بكلياته وجزئياته على البحث في اسرار الطبيعة وانه يحض على
اقتناء ثمرات المعارف بجميع أنواعها ومطالبها (ومارلنا الى الآن
نقتبس أنوار الهدى من مؤلفاتهم القليلة التي استبقتهمايد الصدفة قجت
من التبديد والتمزيق وسأشير الى بعضها في الرحلة)
وقد اشتد لي الوجد والوله حتى عدت التعبير وناب عقلي وما
ابصرت نفسي والالساني يتدفع بتريد بعض أبيات من القصيدة
المشهورة التي نظمها أبو البقاء الرندي في رثاء الاندلس وقد ترجمت
نثرا ونظما الى اللغة الالمانية والفرنساوية والاسبانية وغيرها
وكنت أكثر من ذكرى هذه الابيات بحسب ورودها على لساني
لكل شيء اذا ماتم نقصان * فلا يغرب طيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول * من سره زمن ساءت له ايام
وهذه الدار لا تبقى على أحد * ولا يدوم على حال لها شان
فجائع الدهر أنواع متنوعة * وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سـ لوان يسهلها * وما لما حمل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لاء زاء له * هوى له أحد وانهد نهلان
أصابها العين في الاسلام فارتأت * حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ماشان مرسية * وأين شاطبة أم أين جيمان
وأين قرطبة دار العلوم فكم * من عالم قد سما فيها الهشان
وأين حصص وما تحويه من نزه * ونهرها العذب فياض وملان
قواعد كن أركان البلاد فدا * عسى البقاء اذالم تبقى أركان
أتى على الكل أمر لا مرد له * حتى قضاوفكان القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك * كما حكى عن خيال الطيف وسنان
تلك المصيبة أنست ماتقدمها * ومالهامع طول الدهر نسيان
تبكى الخفيفة البيضاء من أسف * كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية * قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كائنس ما * فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهي جامدة * حتى المنابر ترتى وهي عيـدان
يا غافلا وله في الدهر موعظة * ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وما شيا مر حاليه به موطنه * أبعد حص لعز المرء أوطان
يارا كبين عتاق الخيل ضامرة * كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة * كأنها في مشار النقع نيران

وراء العين وراء البحر في دعوة * لهم يا وطنهم عز وسלטان
أعدكم نبأ من أهل أندلس * فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم * اسرى وقتلى فما هي ترانسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم * وأنتم يا عباد الله اخوان
ألا نفوس أبيات لها همم * اما على الخيـر انصار واعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم * أحال حالهم جور وطغيان
بالامس كانوا ملوكا في منازلهم * واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم * عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم حين يجمعهم * لهالك الامر واستوتك احزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما * كما تفرق أرواح وأبدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد * ان كان في القلب اسلام وايمان

استمرار
المسرة
وصرت أردده هذه الابيات وغيرها حتى وصلت مدينة ارون Irun
أول تخوم اسبانيا من الشمال فنزلت بها وقد انتصف الليل وما
صدقت الوصول الى الفندق حتى اضطجعت على الفراش طلبا
للراحة الضرورية ولبنت به على خلاف عادتي الى أن قرب الظهر
ولم أستيقظ الا على جلبة الاطفال وصياحهم في اعينهم ولهوهم
بترنيمات تكاد تنطبق على وزان هذين البيتين
شرد النوم عن جفونك وانظر * حكمة توظف النفوس النياما

فخرام على امرى علم يشاهد * حكمة الله ان يذوق المناما
فقت فزع امرعوبا وأنا أقول أين هذه الحكمة ولماذا ورد هذا
الببت على خاطرى مع ان القصائد التي من بحره كثيرة ثم تذكرت
ان السبب في ذلك ما كنت فيه بالامس فهرعت الى الخروج لانظر
البلد وما فيه وما حواليه فرأيت المباني والنوافذ والاسطحة تشبه
ما عهدته طول عمرى في مصر وكذلك الحارات والزقاق وغير ذلك
وقد كنت وأنا في باريز درست نحو اللغة الاسبانية للاستعانة على معرفة النحو
مخاطبة القوم ومبادلة أفكارى معهم مباشرة ولكننى لما حضرت لانتقى
ايرون وتكلمت مع أصحاب الفندق وخصوصا مع الدليل تحقق لى
ان درس النحو شئ ومعرفة اللسان شئ آخر وحينئذ زال ما كنت
أجده من الغرابة من كون بعض الناس يقضون سنين طويلة
مديدة في درس النحو بجميع فروعه ثم هم لا يعرفون من العربية
سوى هذه الآلة

وأقول الحق انى لما رأيت اضطرارى لمخاطبة القوم ساعة احتباك الحيرة
والهوس والوطن
بجميع أصناف بنى آدم تراخت عزيمتى وثبطت همتى وهممت
بالرجوع من حيث أتيت وخصوصا لما كان يقوم بفكرى
من ان أهل الاندلس الآن أشد أهل الارض تعصبا على المسلمين

وكرهة للعرب وجفوة للغريب مع ما هم فيه من الهرج الدائم
على حكومتهم مما كنت قرأته حديثا في التلغرافات وانا في بارين
فضلا عما رأيته في كتب السياحات من التشنيع عليهم وتخويف
الغريب من الدخول الى ديارهم ولما كان حب البقاء طبيعة في
الانسان وان الحياة غالية خصوصا عند الشوك على الوقوع في
الخطر مع اشتداد الحنين بل الوله بالرجوع الى الوطن بعد طول
الغيبه كادت هذه الافكار واضرابها تفوز على ما عندي من الشوق
لرؤية هذه البلاد الجميله وتعهده بقايا العرب فيها فتمذكرت حينئذ
التغلب على الصعوبه المثل السائر (من لم يركب الاهوال لم ينل الرغائب) وانشدت
على نفسي لاحياء مائت قوتي قول الشاعر

ان كنت تطلب عزافا ذرع تعباً * أوفارض بالذل واختر راحة البدن
فتجدت في عوامل القوى وانبعثت في جسماني روح النشاط
وتذكرت اني أكون أول من زار جميع الاندلس من المسلمين
والمصريين خصوصا من ابناء هذا الجيل وكتب ماراه فيها وقارن
بين حالتها وفي ذلك نخر عظيم

ومن يجد الطريق الى المعالي * فلا يذر المطي بلا سنام

ولذلك توكلت على الله وقت من ابرون الى فنترابيا Fontarabiala
الى سان سيبستيان San Sebastian الى بنبلونة Pamplona

ريادة بعض
المدن

وتسمى في قبايل من كتابات العرب بمقلونة وقد حكمها المسلمون اثني عشر
سنة فقط وهي أنظف مدينة رأيتها وجميع شوارعها وحواراتها وأزقتها

تضاء بالنور الكهربائي ثم إلى سرقسطة (Saragoza) وقد ^{مدينة} ^{سرقسطة} ^{والجمعية العلمية}

نزلنا بها نبعي المقام ثلاثة * فطابت لنا حتى أقامنا بها عشرة
فأثني الفيت بها من كرم أهلها وحسن مجاملتهم وكريم توددهم
ما كاد ينسبني الأخوان وقد اطلمت فيها على كتب عربية نادرة
جداً وتعلمت فيها الكلام الأسباني

ثم ان جمعية العلوم الشرعية والادبية - Academia Juridico-
literaria عينتني عضواً افتخارياً بها واحتفلات بي احتفالاً فائقاً
وعقدت جلسة مخصوصة لاستقبالي بغاية التكريم والترحيب فجلت
ان أدخل بينهم خالي اليمين لأقدم لهم موضوعاً في هذه الحفلة المهمة
والهمني الله ان أكتب لهم خطبة باللغة الفرنسية على مدينتهم
في أيام العرب فاستعنت ببعض الكتب القليلة التي وجدتها عند
المستغلين بالعربية من اساتذتها وبعض ما عن بالخاطر وقدمت لهم
خطبة في صحيفة من الورق الكبير المعروف بالفولسكاب المستعمل
في الدواوين وقد راقق لديهم حتى طنطنت الجرائد بها وذكرت
هذا الاحتفال بالفاظ التمجيل والاحلال وقد أرسلت نسخاً من
هذه الجرائد الى العاصمة لبعض اصدقائي وقد ترجم كثير منها

خطبتى الى اللغة الاسبانية على ما علمته بعد قيامى من سرقسطة
وان الجمعية شرعت فى طبعها فى مجموعتها وقد أتخفتنى أكثر
المؤلفين والعلماء بكتب كثيرة من تأليفهم وخلصتة القول ان
هذا اليوم كان من أسعد أوفاتى وانى أجد الله على هذا التوفيق
الذى مكنتى من تشريف اسم بلادى وقد أجابوا على خطبتى
بالاسبانية والفرنساوية والعربية والاطليانية والسبب فى ذلك
انه قد اتفق فى بعض الايام انعقاد جلسة الجمعية الشهرية
فدعانى حضرة رئيسها الافتخارى وهو العلامة پابلو خيل
D. Pablo Gil مقدم الاساتذة فى المدرسة العالية للفلسفة
والاداب لان أزورها فتوجهت بصحبته وأجلسنى على يمينه
وبعد ان تمت أعمال الجمعية قدمنى اليها ثم دعانى لان أخطب
عليهم بشئ مما يفتح الله به على واذلم يكن لى سابقة علم بهذا
الامر وقفت فيهم وحييتهم بالعربية ثم خاطبتهم بالفرنسوية
بكلام طويل ولما جلست طلبوا منى ان أتكلم بالاطليانية ففعلت
وحيثئذ قام الرئيس الحقيقى وطلب من الجمعية تعيينى عضوا
افتخاريا بها فاجابت بالاجماع ثم عينوا جلسة غير اعتمادية
لاستقبالى وحيثئذ أشار على الرئيس الافتخارى بان أشكر
الجمعية باللغة الاسبانية فامتثلت مع قلة البضاعة وكنت حينما

لأجد اللفظ المطلوب أضع مكانه كلمة طاباينة أو فرنسوية ولو شئت
ترجمة ما ذكرته الجرائد عن هذا الاحتفال لاستغرق رسالة أكبر
من هذه الرسالة

فأما الخطبة التي أجب بها بالاسبانية الاستاذ المتضلع العلامة
خوليان ريبيرا D. Julian Ribera فكانت كلها دررا
وغيرا تشهد بزيادة اطلاعه على العلاقات العلمية الاديبة التي كانت
بين المشاركة وخصوصا المصريين وبين أهل الاندلس وسأورد ترجمتها
في فرصة أخرى ويحتمل أن أورد هنا الخطبة العربية التي ألقاها أثناء
الاحتفال أحد اعضاء الجمعية وهو دون سان پيو D. San Pio
الذي تلقيت عليه اللغة الاسبانية وهاهي بنصها الفائق

« بالنيابة عن جميع اخواني سلام عليك يا أيها العلامة المصري »
« أحمد زكي أفندي بودي أن ألقى الآن خطبة ولكني مثل »
« أيوب قد ازدجت على الافكار وقد دعاني اخواني أن أقول شيئا »
« بلعتك الفصحى فاقصر على ايراد بعض جل من الكتاب المقدس »
« يخرجك الرب الى مصر في سفن واذا كر مالا قيمته في هذه »
« المدينة والقادر الكافي مبارك لك في السفر والاقامة والسلام »

وقد اطعت في مكتبة الدون يابلو خيل المذكور على كتب عربية

اللغة كثيرة وأغلبها باللغة التي يسمونها الجيامادو Aljamiado وذلك لان العرب لما انقضت دولتهم بالاندلس وبقي بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو ألزموا باهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أي الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها الجيامادو ووجه هذه التسمية ان العرب يسمون كل ما ليس بعربي أعجميا وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أي الاسبانية باسم (الاعجمية) ثم انتقلت هذه اللفظة الى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله في اللغات الافرنكية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (ألاجاميا) ولما كان أهل أسبانيا يقبلون أغلب الجيمات خات كما سنبينه قالوا (ألاجاميا) أو (ألجاميا) وسموها بحروفهم هكذا بعد ان سكنوا حركة اللام (Aljamia) وعلامة النسبة عندهم do توضع في آخر الكلمة فلذلك قالوا Aljamiado اي «الاعجمي» تحريف والكلمات العربية وفي اليك الشواهد على قلوبهم الجيم خاء فانهم يقولون في الخيام «الفاخمي» وفي علم الجبر «الخبر» وفي الجص «الخيد» وفي الحب بمعنى الصهرج والجاينة «الخبي» وفي الحاجة بمعنى أمتعة البيت «الهاخا» وفي الجعبة «الخبا» وفي الجفنة

« الخفنا » وفي الجرس « الخرد » وفي البرتقال « نارنخا »
من قول العرب نارنج وفي محمل سجن النصارى عند عرب
الاندلس « ساخينا » من قول العرب سجن وفي الترنجة « ترنخا »
وفي الجوهر « الخوفر » وفي الجبنة « الخوبا » وفي المنجنيق
« المنخنكي » وللجيفة « خيفا » وتاريخ الهجرة « هخيرا »
ولخزير الجبل أو الخلاف « خبلي » من قول العرب جبلي * هذه
بعض ألفاظ علقمتها أثناء تلقي اللغة حتى اني لاحظت دوران هذا
الحرف في غالب كلماتهم الا فرنجية التي يكون فيها شين أو جيم
أوسين بحيث لو سمعهم رجل من أهل المراح لاستمع من القارئ
السماح وقال ان لغة القوم تدور على حرف الخاء

ولقد سمعتهم في بعض الاحيان يقولون الخيرا Aljecira فسألت
عن ذلك فاعلموني بانها الجزيرة الخضراء وحينئذ نشوقت لان أعرف
كيف يسمون بلاد الجزائر فان الفرنسية يقولون الجيري Algérie
والطليانية الجريا Algeria وليكني حمدت الله حينما رأيتهم قد قلبوا
فيها وضع الحروف فجعلوا الراء مكان اللام وقالوا أرخليا ولم يقولوا غير
ذلك . . . وقد لاحظت بعض ألفاظ تنافي هذه القاعدة فيقولون
في الخزانة « الاثينا » بمعنى الخزانة المنقورة في حائط البيت وفي الخروج
« تشرفا » وفي طير الخطاف « فاتكسا » وفي المسجد « مسكيتا » وفي الخراز

«المفرين» بياء مماله وفي الخدة «الموهادا» وفي تصغيرها «الموهاديدا»
وفي النخاع «الموكاتي» من قول العرب المخ وفي الخبازي «الهبازي»
وفي البطيخة «البوديجا والبوديكا وباديهاباديا» وفي الخرشوف
«الكتشوبا والكرتشوبا» وفي البخور «البافور» وفي الخروب
«الجروبا» وفي الخزامى «الهوثيما» وفي المخزن «المائن» وهو
اللفظ الشائع ويقولون فيه أيضا «المجائن والمارثن ومجائن»
والسخره بمعنى العونة «اذوفرا» والزرنينج «اذرنيني» بياءين
ممالتين والرخ في لعب الشطرنج «روكي» وفي الشيخ «كسيكي»
بياءين ممالتين وفي الخزامى الحرير «التشر» وفي الخياط «القيات»
هذا بعض ملاحظته وسألم في الرحلة بشيء كثير من قواعد
التحريف عندهم فهلا من المستغرب بعد ذلك انهم يقولون ان
كلام العرب كله يشبه هذه الاصوات «خبط خبط خبط»
وقد زرت جميع آثار سرقسطة العربية وغير العربية وصعدت
الى قمة البرج المائل الذي يشبه برج كنيسة يشته وهو من صنع
الاعراب المرتدين وقد شرع القوم في تقويض دعائمه خوفا من
سقوطه ثم خرجت منها شاكرا أفضل أهلها مرددائشائي عليهم
تجول في وعلى أخلاقهم الزكية وزرت قسطجون Castejon وميرنده
بعض المدن Miranda ثم برغش Burgos وكأسيها المشهورة وقد رأيت

في احدائها لواء في غاية الابداع والجمال أخذه الاسبانيون من العرب في واقعة العقاب التي سأذكر عنها شيئاً يسيراً في هذه الرحلة ثم

زرت آبله Avila ثم مدريد Madrid (وتسمى في كتب العرب مدريد ومقابلة وسفير الدولة العلمية) وقد رأيت جميع ما فيها من المتاحف والمعارض ولاقيت علماءها وكبراءها ووزراءها واجتمعت بصاحب السعادة طرخان بك سفير الدولة العلمية الذي كان والياً على جلة ولايات مهمة من قبل مولانا الخليفة الاعظم أدام الله نصره ورفع كلمته وقد رأيت فيه رجلاً عالماً بالسياسة والقوانين والنظامات وفيه من الوطنية وحب الاسلام ما لم أجده في غيره الى الآن ويسرني أن أقول ان له مقام كبير في نفوس كبراء اسبانيا والاسرة المالكة بأسرها وله تمام الاطلاع على اللغة التركية والفارسية واليونانية والفرنساوية والاسبانية وله المام عظيم بالالمانية والارمنية وبعض العربية وانى أتمنى من صميم فؤادي ان يكون جميع نواب الدولة العلمية أيدها الله في جميع الممالك الاوربية على شاكلة فاندنا تعلق الدول بنوابها وتعرف قيمتها بمنه ودوبها وقد أكثر في مدريد من زيارة المعرض الاوربي الاسباني الذي أقيم احتفالاً بهرجان كرستوف كولمب وذلك لاننى رأيت فيه كثيراً من الآثار العربية الاندلسية التي تبعث في النفس نخاراً وفي القلب احزاناً ورأيت لواء

(١) مجريط بفتح الميم كضبطه ياقوت في معجم البلدان

عربيا يشبهه لواء برغش تمام المشابهة ويجانبه لواء آخر مما أخذه
الاسبانيون من العرب وقد رأيت في القسم المخصص للطوبجية
المدافع التي سبق الى اختراعها أهل غرناطة لصد عدوهم عنهم
ورأيت غير ذلك مما لا يمكن به الاحاطة الآن وكنت أكثر من
زيارة التياترات في كل ليلة لاتقان اللغة ولانها في مدريد مدرسة
حقيقية لاختلاق القوم وعاداتهم حتى اني أثناء التشخيص كنت
أتصور نفسي في بعض الشوارع أو في إحدى القرى ثم زرت
طليطلة Toledo وتسمى عند العرب مدينة الاملاك أى الملوك
ليكون اللاتينيين كانوا يسمونها بذلك أيضا (Urbs Regia) وكانت
تسمى عند الرومانيين كذلك Toletum وبالتصغير Toletula
ومنه الاسم العربي طليطلة وقد ورد اسمها في قليل من كتابات
العرب توليطه مثل التسمية الاسبانية ويقول مؤرخو العرب ان
معنى توليطه بلسان فيمصر «انت فارح» فاذا هي مدينة عربية محضة
لم يعتمدها الى الآن أدنى تغيير ولا أتدكر أن مدينة في مصر حفظت
هذا الشكل العربي المهود كما بقي فيها الى الآن مع توالى الازمان
وتبدل الاحوال فلا تزال شوارعها وأزقتها متعرجة ملتوية ملتفة
صاعدة نازلة حتى يخالها الانسان أشبهه شئ بتلك الحشرة المعروفة
بأم أربعة وأربعين وقد رأيت فيها من آثار العرب ما ينطق بفضلهم

ويخرج من كل متعصب عليهم ثم رجعت الى مدريد وبعد أن أطلت دخون مملكة
الاقامة فيها توجهت الى بلاد البرتغال Portugal «هذا هو اسمها البرتغال
في كتب العرب لابورتغال أو بغير واو» وزرت عاصمتها المعروفة وذكر
بلسبون (Lisboa) (Lisbonne) التي يذكرها العرب باسم لشبونة لشبونة
واشبونة والاشبونة وقد بدأت بزيارة - حضرة قنصل جنرال الدولة
العلية وويس قنصلها ورأيت آثارها العربية وغير العربية وفي ثاني يوم
من وصولي وردت لي تذاكر من الجمعية الجغرافية بالتحية
والسلام وبوضع مكتبتها ومتاحفها ومعروضاتها وغرفة السلاح
والنشان والبليارد وغير ذلك تحت تصرفي فزرتهم وشكرتهم -
واستعدت كثيرا من لقاءهم وقد زرت المكتبة الاهلية ومدرسة
المهندسخانة ومعرض التاريخ الطبيعي وكل ما قدرت عليه ورأيت
من أهلها حفاوة تحلد لهم الثناء على صفحات الفؤاد ثم زرت
مدينة شنتره Cintra ورأيت - صون العرب على قم الجبال
وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره للآن وعلى مقربة منه قبر دفن
فيه القوم عظاما وجدوها ولم يعلموا انها للمسلمين أو للتصاري
فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال ثم رجعت
الى لشبونة وزرت فيها القسم الذي كانت تسكنه العرب وكان يعرف
عندهم باسم الحمة «بتشديد الميم» ويسميه البرتغاليون الآن من باب

التشريف « الفاما » وقد تشرفت فيها بمقابلة جلالة الملك فأكرم
وفادتي وأحسن لقاى ولبثت مع جلالاته مدة طويلة ثم خرجت شاكرا
جليل رعايته وهذه المدينة لها موقع من أجل مواقع الدنيا يشبه
أو يفوق موقع جنوة و نابولي ويقرب من القسطنطينية على ما سمعت
ومنظرها يشبه المدائن الشرقية

القول
المدس
بأوروبا
ومما يحسن ذكره من باب التفكهة انى خرجت ذات يوم
في بكرة النهار لانفرج على حركة المدينة في مبدئها ومن جملة
مارأيت فيها كثيرا من النساء يسارعن في حركاتهن وهن حفاة
الاقدام وعلى وسطهن حزام كبير بارز بروزا شديدا عن بقية
الجسم بخلاف بقية الافرنجيات فانهن يبذلن غاية جهدهن في
تحليل الخصر وترفيعه مما امتاز به هؤلاء النساء في البرتقال
انهن يضعن في أعناقهن قيطانا يتدلى الى حد وسطهن وينتهى
بصلب كبير من الخحاس وفوق رؤوسهن قطعة من القماش
ملتفة على بعضهما مثل الحواية ويحملن عليها شيئا شبيها بطست نحاسى
مفرطح جدرانها مرتفعة قليلا ورأيت احداهن تصيح بكلام
لا أفهمه فتسوفت لاستوقفها وأعرف مامعها فسألت الدليل ذلك
ولكنها لما نظرت الى حالتنا وهيئتنا توسمت أننا من لا يشتري ممامعها
فهمت بمغادرتنا ولكننى أظهرت لها قطعة من الورق قيمتها نحو

قرش صناع فوقفت وفرجتني على ما في الطست وادا به الفول
المدمس ففرحت به كثيرا ووطنت نفسي على أكلة مصرية في
بلاد أوروبا ثم استفهمت عن الاسم فاذا هو Fava Rica
أى الفول الغنى ولما رجعت الفندق أوصيت صاحبه على أن
يستحضر لى في صباح اليوم الثانى مقدارا من هذا الفول الغنى
وقد كان غير أنى اردت أن تكون الاكلة مصرية محضة وعلى
الاسلوب المتبع عند عموم المصريين فلبنت في غرفة النوم
وأقفلتها بعد أن استحضرت البصل حتى لا أكون مثل بنى اسرائيل
حينما خرجوا من مصر ولم يجدوا البصل فى التيه فتأسفوا عليه
وتألفوا ثم انى تمتعت بهذا الفطور والحق يقال أكثر من جميع
أيام سياحتى فى أوروبا

ثم قمت من الاشبونة الى مدينة كويمبرا Coimbra المعروفة
مدينة قلمرية فى كتب العرب باسم قلمرية وهى الآن دار العلم ومحط المعارف وبرتقال
فى بلاد البرتقال وقد رأيت مدارسها الجامعة ومتاحفها
وبستان النيات البديع فيها وبعد ان طقت على معظم آثارها
قت الى مدينة پورتو Porto واسمها فى كتب العرب برتقال
وبها يسمى هذا القطر برتقال كما نقول نحن الآن طرابلس

وحاضرتها طرابلس وتونس وحاضرتها تونس وكما تقول بنى سويف
وبندرهما بنى سويف والقيوم وبندرهما القيوم والمنيا وبندرهما المنيا
وهكذا فى أسبوط وقتنا وكما كان الشأن فى القليوبية وجرجا والمنوفية
قبل أن ينتقل مركز المديرية الى بنها وسوهاج (المعروفة عند
العرب بسوهاى) وشبين الكوم وساورد فى الرحلة نصوصا عربية
معتبرة تسكاد تكون مجهولة للدلالة على صحة هذا الاسم (برتقال)
وقد رأيت فى مدينة البرتقال هذه آثارا كثيرة ولكن العرب لم
يختلفوا فيها شيئا يذكر لانهم كانوا يجهونها فاتحين ثم يجوزونها الى
غيرها من البلاد ولم ترسخ فيها قدمهم غير انى رأيت دار البورصة
فيها وهى من القمامة والجلالة بمكان قد تألف التجار على انشائها
على الطراز العربى ونقشوا أكبر بهو فيها بحسب الاسلوب العربى
وزينوه بالزخارف وكتبوا فى ضمن رسومها البديعة أشعارا عربية
سأوردها فى الرحلة وفى جميع الطرازات هذه العبارة ﴿عز لالانا
السلطانة مريم﴾ يريدون عز لولائنا السلطانة مريم الثانية

وردها

إشكال
على القول
المدمس
وقد عتلى وأنا فى هذه المدينة أن أمتع نفسى بأكلة ثانية من الفول
الغنى (أى الفول المدمس) فأوصيت صاحب الفندق أن يستحضر لى
جانبا من هذا الطعام اللذيذ حتى أتغدى به فى وقت الظهر
وأوصيته أيضا على استحضار الزبد والبصل فمظر الى نظر المستغرب

وقال كيف يمكن الغداء بالفول الغنى والبصل والزبد فقطاعته
وقلت له هذه ارادنى وما عليك الا الاجابة فامتثل غير قادر على
اخفاء زيادة الاستغراب ثم توجهت لزيارة الاثارة وغير ذلك حتى
جاء وقت الظهر فأسرعت الى الفندق وأنا أتلدذ مقديما بأكلة
الفول الغنى التي أعددت نفسى لها في هذا اليوم السعيد حتى انى
لم أتناول شياً من الزاد في الصباح وقد صعدت في الحال الى غرفة نوى
فوجدت صينية عليها شئ كثير من من من الخروب
فدقت الجرس بعنف وشدة لكثرة ما عترانى من الغيظ والحرق
فحضر الخادم فقلت له ما هذا الذى فعلت يداكم فقال انما أجبتنا
أمرك وأحضرنا الفول الغنى فكررت الاستفهام فقال لى هذا
هو الفول الغنى بعينه فنزلت لصاحب الفندق وباحثته في هذا
الموضوع وأعلمته بمقصودى الذى رأيت به بكل انشراح فى مدينة
الاشبونة فأدرك السر وقال لى ﴿ياسيدى أهل پورتو يسمون الخروب
قولا غنيا ولا يعرفون ذلك الصنف الموجود فى اشبونة بل انهم
يتكلمون على الاشبونيين لكونهم يسمون الفول المصنوع بهذه الكيفية
قولا غنيا مع انه هو الخروب للشبهه بين قرن الخروب وقرن الفول
ولما كان فى الخروب ميمرة على الفول دعوه بالفول الغنى ولهم الحق
(وليتنبه القارئ الى انه منهم فلذلك هو يصوب رأيهم) وهذا

مادعاني للاستغراب حينما طلبت منى في الصباح أن أحضر لك
غداءك من الفول الغنى مع الزبد والبصل فأنشرحت من هذا
الشرح مع انى انقبضت للحرمان من أكلتى المصرية والاضطرار
للاكل على المائدة العمومية بالطريقة الافرنكية ولكن هى
السياحة يرى فيها الانسان مايسوء ومايسر

ثم خرجت منها قاصدا سلمنقة^(١) Salamanca من بلاد اسبانيا
غدا البرتغال ولم أعرض لتعلم اللغة البرتغالية خوفا من الاختلاط وكنى
والتحريف لاحظت كثرة تردد الفاء والشين والراء فيها فمثال الفاء الخروب
يسمونه القروب والبحيرة يسمونها البفيرة والصهرج يسمونه زفريش
ويسمون نوعا من الاغذية والقراء يعرف عند العرب بالحنبل بقولهم
« القامار » وهذه الكلمة الحديثة الاّن مأخوذة من الكلمة
البرتغالية المهجورة المحرفة عن العربية بمباشرة وهى « ألفبر »
ويسمون الخس « أفس » والهدية « الفدية » والحرملة وهو

(١) هذا هو اسمها الحقيقى فى كتب الجغرافية العربية القديمة وابن الاثير
فى حوادث سنة ١٤٠ فى الجزء الخامس وقد وهم صاحب دائرة المعارف حيث
سمها سلمنقة بالسين المهملة تم خلط بينها وبين بلد اخرى اسمها طلمنكة فقال انه
اسمها فى بعض كتابات العرب والصواب غير ذلك فان طلمنكة Talamanca
بليدة فى ولاية مدريدى فى وسط الابلدلس كادت من أعمال طليطلة فى أيام العرب
وأما سلمنقة فهى فى الشمال من ولاية جايقية التى قديسماها العرب غلبديسة Galicie

السذاب البرى « الفرما » وفي الخلاوة « القلوا » ويقولون في الحجة
الغاما والخياط يسمونه الفيات وأمثال ذلك كثيرة لأطيل بها الآن
وأما الشين فان معظم السينات التي في اللغات الافرنجية يقبلونها
شينا ولعل ذلك هو السبب في ان العرب نطقوا با-ماء البلدان التي
فيها سين بالشين والامثلة كثيرة يعرفها من له أقل اطلاع على جغرافية
هذه البلاد في كتب العرب وأما الراء فهي كثيرة جدا خصوصا مع
الشين حتى تكاد لغتهم بسببها تشبه اللغة النمساوية ولكن الخاء
معدومة بالكلمة

وهنا أذكر أمرا غريبا وهو اني لما كنت في سرقسطة ذكر النقود
توجهت في صباح يوم وصولي الى أجل دكان للزينة فيها وبعد
ان حلقت ذقني وأصلحت شعر رأسي وضخمته بأنواع الخلق
الاستعملة عندهم سألت الرجل عن الاجرة فقال لي ٣ ريالات
فبعت في قلبي وأسفت على مجيئي اليه ولكنني تجللت وأظهرت
تعارف الجاهل بعكس أهل البديع الذين يظهرون تجاهل
العارف ثم قلت وهو كذلك ودفعت اليه ورقة قيمتها ٢٥
فرنكا فرد لي ٢٤ فرنكا وربعا فعلت ان الريال عند أهل
اسبانيا يساوي جزءا من عشرين منه عند أهل بلادنا بل هو
أقل من القرش الصاغ بقليل ولكنني لما جئت الى بلاد البرتغال

باسبانيا
والبرتغال

ونزلت في اشبونة اكثر من عربة اوصلتني الى الفندق
ولما نزلت منها سألت ترجان الفندق عن الاجرة فقال لي ٦٠٠
ريال فقلت في نفسي هذه هي الطامة الكبرى وكيف أتظاهر
الآن بتمارف الجاهل وليس معي ورقة تساوي هذه الثروة الجسيمة
ومع ذلك تجللت وصبرت على ماض الايام واتقيت الله لعله يسهل
لي سبيل الخلاص من هذه الورطة فقلت له بصوت مبحوح
« وهو كذلك خذ النقود من صاحب الفندق » وصعدت الى
غرفتي أضرب أخصا لاسداس

ولما أصبح الصباح كان أول شيء طلبته هو الحساب فخافني
بعشرات الآلاف فقلت وأنا خائف واجم وكم يساوي هذا كله من
الفرنكات فقيل لي ان الفرنك مائة ريال فكذت آخر لله ساجدا
وصرفت الغلام لاتضرع بالشكر منقادا وقد قاسيت كثيرا من
اشتداد الازمة المالية على هذه البلاد حتى اني كنت أصرف
الفرنك الصحيح المعتبر بمائتي ريال ومائة وتسعين ومائة وثمانين
ومائة وسبعين بل ومائة وستين في قلمرية وعرفت ان هؤلاء القوم
يلزمهم عدد كبير القيمة قليلة

العودة الى ولما توالت هذه الخسائر المالية استخرت الله في الرجوع الى
الاندلس ووصلت شلمنقة ورأيت آثارها ومدارسها فانها في اسبانيا

مثل قلمرية في البرتغال ورجعت منها الى مدريد فأصابتنى النزلة الوافدة
واشتدت عليّ وطفتها حتى كدت أيتس من الحياة لولا مداركة كثير
من أصحابي وأصدقائي وعناية اطباء بشأني وقد كان صاحب السعادة ^{مقابله}
طرخان بك طلب من البطانة الملوكية تشرفي بمقابله ^{جلالة الملكة} جلالة الملكة
وأجيب السؤل ولكن المرض كاد يحول بيني وبين هذا الشرف ^{لانديس}
الاسني غير ان الله سبحانه وتعالى راف بي نخفف النازلة عني وبذلك
تيسر لي مقابلة جلالة الملكة فلا طفتني وتعطفت عليّ كثيرا وتكلمت
معي في اشتمات العلوم والادبيات حتى بهرتني من كثرة اطلاعها
ودار الحديث كثيرا على اللغة العربية وآثار العرب باسبانيا وبغيرها

(١) عقد العلامة أحمد فؤاد المشهور فصلا في كتاب الجاسوس على القاموس
أشارفيه الى بعض انتقادات جغرافية على الفيروزابادي بمناسبة ذكره لبعض
بلدان الاندلس في قاموسه وقد وقع صاحب الجاسوس نفسه في وهم أرى
من الواجب اصلاحه في هذا المقام وبيان ذلك ان المحدث كر بلدا اسمه
النبرة وقال انه من عمل ماردة بجاء صاحب الجاسوس (صحيفة ٣٠) معقبا
لهذه العبارة بالتفسير قائلا (أى مدريد) وأقول ان ماردة Mérida بلد
ومدريد بلد آخر وماردة في الجنوب الغربي بقرب بطليوس Badajos
على تخوم البرتغال ومدريد في الوسط وماردة كانت بلدا مشهورا جدا في أيام
العرب ولا يزال فيه الى الآن آثار جليلة تشهد بفخامته بخلاف مدريد
فإنها عند العرب مجريط وكانت في أيامهم عبارة عن صنن ليس الا

واستطالت المقابلة مدة تنيف على العشرين دقيقة وكان معي
حضرة السيد المفضل والامير الكريم طرخان بك وسأذكر في
الرحلة ما دار بيننا من الحديث وقد خرجت من بين يديها شاكرًا
أفضالها على هذه المقابلة الجليلة وقد أخبرني كثير من أهل
البطانة وخصوصا صاحب السعادة طرخان بك بانها أكثر من المعتاد
بكثير فشكرت الله ثم لبثت بمدريد ريثما تعافيت قليلا من النزلة
الوافدة التي ضربت فيها أطنابها الآن وحينئذ أمرني الأطباء
بالتوجه الى بعض البلاد الحارة في جنوب الأندلس والعبور منها
مباشرة الى مصر متى ظهرت آثار الصحة وعاودتني العافية

فقدت الى اشبيلية Sevilla التي كانت تسمى أيضا بحمص وقد

مدينة

اشبيلية

(١) اعلم انني تفرجت في مدريد ثلاث مرات على مقاتلة الاثوار المعروفة
عند الفرنسيين باسم Course des Taureaux و Combat des
Taureaux وعند الاسبانية باسم Corrida de los Toros
وقد عرفت جميع تفاصيلها وقوانينها وشهدت غرام الاسبانيين رجالا ونساء
بها الى الدرجة التي لا يكاد يتصورها العقل بحيث ان المقاتلين يعتبرون من
من أهم رجالهم ومن أحب الناس الى الامة التي تجل ذكركم الى حد
يحسدكم عليه سرة القوم وأمائل الامجد واني أؤخر شرح ذلك الى فرصة
أخرى لما يستوحى به من زيادة البيان مع ما فيه من الطلاوة والمباحث الرائقة
وانما أقول الآن ان أهمل الأندلس كانوا مولعين بهذا القتال أيضا وكانوا
يضارعون الاسبانيين وربما كانوا يفوقونهم

زرت جميع آثارها ودارا للقطاء فيها وكأنتسها وصعدت الى قمة المنارة
الاسلامية الفخيمة البديعة التي كانت في أحد المساجد فاصبحت
الآن مقرا للناقوس وزرت القصر الذي أنشاه الاسلاميون فأنساني
كل ما رأيته من العماير الجميلة والآثار الجميلة التي رأيته في
أعظم مدائن أوروبا وقد وقفت فيه متلهفنا وكنت كذلك الشاعر
الذي قال

قلت يوما لدار قوم تفانوا * أين سكانك العزاز علينا

فاجابت هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا ولست أعلم أيننا

ومن غريب ما في اشبيلية ان جميع دورها وقصورها لها في وسطها
فناء في غاية الاتقان مغروس بزهر الاشجار ومحفوظ بفائق العمدان
وفوقه رواق مثل ما هو معروف في الاسكندرية باسم الحضير
وعليه عمدان وحنايا مثل التي في الفناء ولقد تحسنت حتى
باعتملال هوائها حتى صدقت من انشاء مشيبيها

هواؤها في جميع الدهر معتدل * طيبا وان حل فصل غير معتدل

ما ان يبالي الذي يمتل ساحتها * بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل

ولا غرو فقد اشتهرت باعتدال الهواء وحسن المباني وهي

واقعة على النهر الشهير المعروف بالوادي الكبير *Guadilquévir*

يصعد المدفيه ٧٢ ميلا ثم ينحسر ولذلك قال شاعرهم

شق النسيم عليه جيب قيصره * فانساب من شطيه يطلب ناره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها * هـزا نضم من الحياء ازاره
ولقد صدقت حينما حلت فيها قول بعض واصفها

ان شرفها غابة بلا أسد وزهرها نيل بلا تمساح

وهذا الشرف المذكور هو اقليم من أعمالها كائن على تل
عال من التراب الاحمر ومسافته . ٤ ميل في مثلها يمشى بها
السائر في ظل التين والزيتون

واعلم ان الاسبانيين والافرنج يسمون اسم هذه البقعة هكذا
Axarafe و Aljarafe وهو الآن في الجغرافية الجديدة لتلك
الاقطار عبارة عن البلاد التي في قسم سان لوكار لا مايور رأى سان لوكار
الكبير San Lucar la Mayor وبعض القرى التابعة لمدينة
اشبيلية ثم خرجت من هذه المدينة الجميلة قاصدا غرناطة
Granada (Grenade) وأنا أردد قول الشاعر فيها

ذ كرتك يا حصن ذكرى هوى * أمات الحسود وتعنيت
كأنك والشمس عند الغرو * بعروس من الحسن منكوته
غدا النهر عقدك والطودتا * جك والشمس أعلاه ياقوته
مدينة غرناطة وصرت أثناء الطريق أمر على بلاد وقرى كثيرة تذكرني ما عهدته
وقصر الحمراء في بلاد المشرق وخصوصا المنارات التي كانت قائمة بجانب الجوامع
فصارت مجاورة للصوامع وماذن المساجد التي أصبحت نواقيس

للمعابد وصرت أئذ كرمجد العرب وعظم دولتهم حتى وصلت غرناطة
المعروفة قليلا باسم اغرناطة ويسمىها العرب دمشق من باب
التشبيه وقد وصلت الى مالم تكند تصل اليه مدينة ما فانها حينما
استولى الافرنج على معظم بلاد الاندلس انتقلت اليها بقايا
المسلمين فصارت المصر المقصود والمعقل الذي تنضوى اليه
العساكر والجنود حتى بلغ عدد فرسانها وحدها ٥٠٠٠
ورجالها ٣٥٠٠٠ من غير ضواحيها وأعمالها فقد كانت جيوشها
تبلغ بهم ٢٠٠٠٠٠ يخرجون للقتال من أهل غرناطة والبشرات
Alpujarrat (Alpuxarat) ووادي آس Guadix وقد رأيت
أن أختتم رسائلي المؤتمرية في هذه المدينة التي كانت آخر ملاذ للمسلمين
وقد وصلت بالليل ونزلت في فندق واشنطون وقد علمت فيما بعد من
أهل التحقيق والمعرفة انه قائم على نفس مكان المقبرة الملوكية
التي كانت ملوك المغرب تدفن بها ويسمىها ابن الخطيب التربة
وقد سجلت بالاضطجاع بعد ان تناوات شيئا من الزاد وحينئذ
ذهب عنى الرقاد لهجوم الافكار وتذكر ما وقع بتلك الاعصار
والتفكر في أحوال الدنيا وتقلبها باهلها حتى أنقلنى السهر وبترح
بى التعب فانحضت الجفون وما استيقظت الا على تجاوب الاطيار
فوق أعصان الاشجار كأنها تقول لى

تنبه فدمشق البهاره غاسا * كما تمه عن نوره الخضل الندى

مداهن تبرى أنامل فضة * على أذرع مخروطة من زبرجد
فصمت ونظرت الى الرياض ونبات الاشجار وتدفق المياه فقلت
لله در الشاعر في وصف مثل هذه المناظر

رياض تعشقها سندس * نوتت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدى ربا * لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جننة * وكل طريق اليها سقر
ولكنى تذكرت قول الوزير ابن عبدون الاندلسى ولا غرو فان
أقوال الوزراء وزراء الاقوال

يانفحة الزهر من سراك وافانى * خلوص رباك فى انفاس آذار
والارض فى حلل قد كاد يحرقها * نوقد النور لولا ماؤها الجارى
والطير فى ورق الاشجار شادية * كلهن قيمان خلف استار
ثم طفت بالجرء Alhambra وقصرها ومساجدها وساحتها
ونقوشها ورسومها وزخارفها التى تذهب بالجنان وتأتى بالجنون
فوقفت باهتا حائرا فاقد اللب والرشاد من هذا الاتقان الذى لم يكن
يخطر على قلبى مع ما سمعته عنها من الاوصاف وما شاهدته من
غرائب المباني فى غير هذه الدار حتى لقد اشتد بى الهيام وكنت
أمرء على الديار ديار قومي * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى * ولكن حب من سكن الديارا
ثم خرجت منها وأنا أحاطبها بقول الشاعر

ثم انتقلت من الحمراء وزرت اسوار المدينة وأبراجها وبعض
مناراتها وكثيرا من قصور ملوكها ويعلم الله انى مارأيت فى طول
سياطى شياً أدق واتقن وأجل وأكمل مما رأيت فى هذه المدينة
حتى لقد رأيت ان المقبرى لم يقرب من الحقيقة حينما مدح
غرناطة اثنا وصفه للاندلس بقوله

هى جنسة الدنيا التى * قد أذكرت دار المقامه

لا سيماء غرناطة الـ * غراء رائقة الوسامه

بروائها وبماؤها وهوا * ثها النافى الوضامه

ورياضها المهتزة الاعـ * طاف من شدوا الجمامه

وبرجها النضر الذى ^(١) * قد زين الله ارتسامه

وقصورها الزهر التى * يابى لها الحسن انقسامه

ولقد كانت غرناطة لا يعدلها فى داخلها وخارجها بلد من البلدان

(١) مرج غرناطة يعرف عند الافرنج بهذا الاسم La Vega وهى
كلمة اسبانية معناها المرج ومن الغرائب ان الدون يجيلاذ Eguilaz وهومن
أعيان أهلها ومن نباء المشتغلين بالادب والآثار العربية قد أطلعنى على صورة
إله مصرى طولها ٨ سنتيمترات ومنقوشة بالحروف الهيروغليفية وأخبرنى ان
أحد الفلاحين قد عثر عليها فى المرج أثناء الفلاحة وتقليب الارض فنهته الى
وجوب الاعتناء بهذه المسئلة وموالاة البحث لما وراء ذلك من الفوائد التاريخية
التي لا تنكر كما علمت ان القوم عثروا بمدينة برشلونة على آثار مصرية كثيرة

ولا يضاهاها في اتساع عمارتها وطيب قرارتها وطن من الاوطان
ولا يأتي على حصر أوصاف جمالها وأصناف جلالها قلم البيان
وكانت في آخر الامر قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها ويقول
كتاب العرب ان خارجها لانظير له في الدنيا وهو مسيرة ٤٠ ميلا
يخترقه نهر شَنِيل (Xenil) Jenil المشهور وسواه من الانهار الكثيرة
والبساتين والجنات والرياض والقصور والكروم محذقة بهامن
كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات
والبساتين لامثيل له بسواها ويعرف عند المؤلفين الاسبانيين بهذا
الاسم Aindamar محرفا عن اللفظ العربي

وما زلت اتردد بين هاتيك الديار واجوب تلك المعاهد وأنا
أرى في كل حجر وفي كل جدار آية ناطقة بعظمة هذه الامة
ومجدها وقد جرتني ذلك الى ذكر بعض أمور مما يدل على بلوغ
أهل الاندلس أرقى ذروة من ذرى النعميم وتأنقهم وترفعهم للدرجة
التي ليس بعدها مطلب أو غاية

فمن ذلك ان اعتماد زوجة المعتمد وأم أولاده المعروفة بالرميكية
رأت ذات يوم باشبيلية نساء البادية يعين اللين وهن رافعات عن سوقهن
الاندلسيين يخضن الوحل والطين فقالت له اشتهى ان أفعل أنا وجواري
مثل هؤلاء النساء فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد

وصير الجميع طينا في التصر وجعل لها قريبا وجبالا من ابريسم
وخرجت هي وجواربها تخوض في ذلك الطين الثمين وانالت النفس
منها ثم اتفق بعد خلعها انه حصلت بينهما منافرة كما يحصل عادة بين
الازواج فقالت له والله ما رأيت منك خيرا فقال لها ولا يوم **الطين**
تذكيرا به - هذا اليوم الذي اباد فيه من الاموال ما لا يعلم مقداره
الا الله فاستحييت واعتذرت وسكتت .

وقدم مدح بعض الشعرا يعقوب أمير المؤمنين بالاندلس بقصيدة
فيها . ٤ بيتا فأعطاه على كل بيت ألف دينار

وكان بعض ملوكهم اذا جاءته رسل من اعدائه يأمر في
الحال باصطناع برك وحولها أساد وأشجار وازهار كلها من الفضة
الخالصة والذهب المنضار ترهيبا لهم وايقاعا للعرب في قلوبهم من
غير ان يشافهم بكلمة واحدة فينال من ملوكهم كل ما يرتضيه

وقد كان عبدالرحمن بن الحكم أمير الاندلس كثير الميل الى النساء
وولع بجارية له اسمها طروب وكلف بها كلفا شديدا واتفق انها
غضت الطرف عنه ذات يوم وقابلته بالصد والاعراض وقتصرت
في مقصوراتها فأرسل يترضاها وهي لاتزداد الا اصرارا على الجفاء
حتى أرسل الخصيان يغصبونها على الخروج فتعلقت الابواب في
وجوههم فذهبوا الى الخليفة يستاذنونه في اقتلاع الباب فأمرهم
بان يسدوه بيدن من الدنا سير يرضونها عليه رضا ثم جاء بعد ذلك

يترضاها بنفسه ويعتذر اليها ففتحت الباب وانهاالت عليها الاموال
فقال لها كل هذا المال لك دون سواك ثم اعطاها حلينة قيمتها
مائة ألف دينار فقيل له ان مثل هذا لا ينبغي ان يخرج من خزنة
الملك فقال ان لابسه أنفوس منه خطرا وأرفع قدرا واكرم
جوهرها وأشرف عنصرا وفيها يقول

اذا ما بدت لي شمس النها * رطاعة ذكرتني طروبا

ومن ذلك ان محمد بن عامر المنصور وزير الاندلس المشهور
صنع قصرا من فضة صافية واهداه للسيدة صبح البشكنشية أم
الخليفة هشام وجملة على رؤوس الرجال فجلب جهابذلك وقامت
بامرءه عند سيدها الخليفة الحكيم حتى قال الخليفة لبعض
خواصه ان هذا الفتى سلب عقول حرمنا بما يتحنهن به
ومن ذلك ان الحكيم ثالث خلفاء الاندلس كان له خاصة ألفا

فارس مرتبطة على شاطئ النهر يقبل قصره تجتمعها داران

والاجب من ذلك مارواه المؤرخون من ان الخليفة عبدالرحمن
الناصر المشهور أراد الفصد ذات يوم فجلس في البهو الكبير المشرف
بأعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك وأخذ الطبيب الآلة
وحبس يد الناصر فبينما هو كذلك اذ أطل زرزور فصعد على اناه
ذهب بالمجلس وأنشد

أيها الفاصد رفقاً * بأمر أمير المؤمنين

إنما تقصد عرفاً * فيه محي العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف أمير المؤمنين ذلك غاية
الاستظراف وسر به غاية السرور ورسال عن اهتدى الى ذلك وعلم
الرزور فذكر له ان السيدة الكبرى مر جانة أم ولده وولى عهده
الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك واعدته لمثل هذا اليوم فوهب
لها ما ينيف على ٣٠ ألف دينار.

تقدم
الاندلسيين
وأمثال هذه الوقائع أكثر من ان تذكر وأقول ان أول
تبليط حصل بالمداين كان في قرطبة وكذلك الانارة العمومية بالليل
قبل ان يعرف ذلك أحد من أهل الارض قاطبة فقد كان السائر
يمشي فيها وفي أرباضها على ضوء السرج المتصلة مسافة ١٠ أميال
معارف
الاندلسيين
وأما رسوخ قدمهم في العلم والعرفان فأمر يشهد به العدو
والصديق ولا أذكر منهم الآن سوى أبي القاسم بن فرناس فإنه
أول من استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من
فك كتاب العروض للخليل وأول من فك الموسيقى وقد صنع في
بيته هيئة السماء وخيل للمناظر فيها النجوم والغيوم والعود والبروق
وصنع الآلة المعروفة بالمنقلة ليعرف الاوقات على غير رسم ومثال

وقد احتال في الطيران فكسا نفسه بالريش واتخذ جناحين
وطار في الجو مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتياي في السقوط
فتأذى اذ غفل عن اتخاذ الذنب ولم يتنبه الى ان الطائر انما يقع
على زُمَّكاه

ومما ينبغى ذكره في هذا المقام ان القوم ما وصلوا الى هذه أسوء حسنة
الدرجة الا بالعلم والعرفان وما أجدر شباننا المصريين الاذكياء
المتعلمين ان يقتدوا بأهل الاندلس في ذلك الزمان فانهم كانوا جميعا
أحرص الناس على التمييز حتى ان الجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم
يجهد ان يتميز بصنعة ويربأ ان يرى فارغا عالية على الناس وكانوا
يقرؤن جميع العلوم في المساجد بالاجرة لانهم كانوا يتعلمون لاجل
ان يعملوا الخلائق وينوروا الازهان لا لكي يأخذوا جاريا أو معلوما
ولذلك كان العالم منهم بارعا لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه
يحمه على ترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى
يتعلم ومثلهم الآن معظم علماء أوروبا

ومما ينبغى اضافته للعلم مراعاتهم للشرع الشريف حتى مراعاة
الاندلسيين لقد كان للدولة الاموية في أيام عز الاندلس هيبه وتمكين ناموس للشرع الشريف
من قلوب العالم فكان في ذلك ضخامة لدولتهم ورسوخ لاقدامهم
وقد ذكر ابن حبان وقائع كثيرة يستدل منها على توجه الحكيم

على خليفتهم أو على ابنه أو على أحد حاشيته المختص به وانهم كانوا في نهاية من الانقياد للحق لهم أو عليهم وبذلك انضبطت لهم الامور وكبرت الهمة وترتبت الاحوال وتوطدت القواعد ولما اسباب خرقوا هذا الناموس تهتك أمرهم واضمحلت شأنهم وفشلوا وذهبت دماهم وفيها أعظم عبرة ريجهم حتى قال شاعرهم

مما يزهدي في أرض أندلس * تلقيب معتضد فيها ومعتد
ألقاب مملكة في غير موضعها * كالهري يحيى انتفاخ صورة الاسد
وما زالوا على هذا الاضمحلال وهذا الانحطاط حتى تقلبت الدول
وكان الخرق لا يزداد الا اناسا فوق الاختلاف بعد ذلك الائتلاف
وأعبي العلاج حكما الرجال وعصفت عليهم ريح العدو والحرب
سجال حتى لقد تمكن منهم بالتفريق وإلقاء العداوة بينهم وبين
بعضهم بقبيح المنافسة وهرزول الطمع وآل أمرهم الى أن استقل
العمال وأقام كل واحد منهم نفسه ماسكا في بلد واحد وصاروا
يطمعون في بعضهم ويستحيشون بالاسبانيين وبطاغيتهم ويسلمونه
حصون المسلمين تشفيا لبعض غاياتهم حتى ان بعض ملوك الطوائف
واسمه المأمون قبحه الله واخزاه بعث الى ملك قشتالة أو قشتالة
المعروفة أيضا باسم قشتالية Castilla يستنصره على الموحدين
ويسأله ان يعث له جيشا من الروم يجوزبه الى العدو اي

مراً كُش لقتال يحيى ومن معه من الموحدين فقال له ملك
قشتيلية « لأعطيكم جيشاً الاعلى شريطة ان تعطيني ١٠
حصون مما يلى بلادى كما اختارها لنفسى واذا من الله عليكم
ودخلت مدينة مراكش تبني للنصارى الذين يسرون معك كنيسة
فى وسطها يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم - أوقات
صلواتهم وان أسلم أحد من الروم لايقبل اسلامه ويرد الى اخوانه
فيحكون فيه بحكمهم ومن تنصر من المسلمين فليس لاحد عليه
من سبيل» فاسعفه النذل الجبان فى جميع ماطلب من غير تبصر
فى العواقب

ويشبه ذلك أيضا ماجرى فى واقعة العقاب (جمع عقبة لكثرة
العقاب التى بجانب مدينة طلوسه Tolosa فى شمال اسبانيا وتعرف
هذه الواقعة عند الافرنج بماهو ترجمتها Las Navas de Tolosa
وقد أشرت الى الراية التى أخذها الاسبانيون منهم وهى فى برغش) وذلك
ان محمد الناصر المشؤم على المسلمين وجزيرة الاندلس بالخصوص جمع
جموعا اشتملت على نحو ٦٠٠٠٠٠ مقاتل وداخله الاعجاب والغرور
بكثرة من معه من الرجال فصاف الافرنج فكانت الدائرة عليه
وعلى المسلمين فان الافرنج دهموهم وهم على غفلة وغير أهبة وخلا
بسبب هذه الواقعة أكثر المغرب واستولى الافرنج على معظم

الاندلس اذ لم ينج من الستمائة ألف غير عدد يسير جدا لا يقارب
الالف وكانت هذه الواقعة هي الطامة الكبرى على الاندلس
بل والمغرب وما ذلك الا لسوء التدبير فان الناصر ووزيره استخفا
برجال الاندلس العارفين بقتال الافرنج وشنعنا بعضهم وظننا ان
كثرة الاجناد تغني عن دربة القواد ففسدت النيات حتى ان جماعات
الموحدين لم يسألوا سيفا ولم يشرعوا رمحا ولا أخذوا في شئ من
أسباب الدفاع ولا أهبطه القتال بل انهزموا لاول جملة الافرنج
عليهم قاصدين لذلك والعدو يبلي فيهم بلاء حسنا ويقتل فيهم قتلا
ذريعا وهم (باللندالة) معرضون عنه بل عن الدفاع عن أنفسهم
ويقول المؤرخون ان الناصر ثبت في ذلك اليوم ثباتا لم يملك قبله
ولم يزل حالهم على هذا الاختلاف حتى حينما توضع أمرهم
وضيق عليهم العدو أشد الضيق واحدق بغرناطة من كل مكان
ومع ذلك لم تنتطح شأفة الشقاق حتى كان في هذه المملكة الصغيرة
ثلاثة ملوك أحدهم في غرناطة ونفسها والثاني في أحد ضواحيها
المعروف بربض البيازين والثالث في عملها القريب منها وهو مدينة
وادي آس المعروفة أيضا بوادي ياش وبادي الآشات وكانوا قد

(١) هذا المحل سمي كذلك لكونه كان سوقا لآناس اتخذوا تربية الباز حرفة

لهم وتسمى عند الافرنج Albaicin

أحسوا بهذا الخطر احساسا لا مزيد عليه حتى انهم استبدلوا الاقوال التي كانت تستعمل عادة في ضرب السكة بهذه العبارات وقد رأيتها منقوشة على الدراهم والدنانير المحفوظة في متحف مدريد وعند الماجد الفاضل دون أنطونيو فيثس^(١) D. Antonio Vives وهو من علماء أهلها المشتغلين بالعربية وبفن النقود وذلك مثل (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيد الخير ولا غالب الا الله) . ومثل (غرناطة حاطها الله) . (غرناطة حرسها الله) . (مألة حاطها الله) . (المرية حرسها الله) . ومثل (بحمراء غرناطة) . (نصر من الله وفتح قريب) . ومثل (العاقبة للمتقين) . ومثل (وما النصر الا من عند الله) . ومثل (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم صدق الله العظيم) . ومثل (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) . ومثل (الامير فلان أعانه الله ونصره) . أو (أيده الله ونصره) وجميع هذه العبارات لم تكن مستعملة في نقودهم قبل الایام الاخيرة التي

(١) انظر النبذة التي وضعها بخصوص أسماء الاعلام صحيفة ٣٧٩

(٢) هذا الاستخراج مما ينبغي الالتفات اليه وأقول انه مما لم يتنبه اليه أحد من العلماء الباحثين على ما أعلم وهذا من ضمن القوائد التي تنتج من علم النقود والمسكوكات

أعقبها انقراض دولتهم وما زالوا على هذه الفتن حتى انحس أثرهم
من الجزيرة ولقي من بقي فيها من أنواع الاضطهاد والهوان ما أسفله
في الرحلة ان شاء الله

ولقد صدق على العرب ما قاله أحد ملوك فرنسا حينما فزع
إليه أكبر دولته لما رأوا امتداد فتوحاتهم وسرعة توغلهم في
البلاد فانه قال لهم مامعناه - (الرأى عندي ان لاتعترضوهم في
خروجتهم هذه فانهم كالسهم يحمل من يصادره وهم في إقبال
أمرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد وقلوب تغني عن حصانة
الدروع أمهلوهم حتى تمتلي أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن
ويتنافسوا في الرياسة ويستعين بعضهم على بعض فينبذ تتمكنون
منهم بإيسر أمر) - فكان كذلك بالفتن التي استدامت بين البربر
والعرب وبين العرب وبعضهم وصار بعض المسلمين يستعين على
بعض عن يجاورهم من الأعداء وانقلب الموضوع وتبدلت الأحوال
فبعد ان أجلى المسلمون في أول الأمر جميع أهل الجزيرة واقصوهم
إلى آخر حدودها شمالا حتى لم يبق منهم الا ٣٠٠ رجل مع ملك
يسميه العرب بلاي ويسميه الاسبانيون بلايو Pelayo فالتجأ
هذا العدد القليل بمكان يعرف عند العرب بالصخرة ويعرف عند
الافرنج الآن باسم جبل كوفادونجا Covadonga ولم يزل

المسلمون يلحون عليهم بالقتال حتى مات أصحابه جوعا وبقي في ٣٠ رجلا و ١٠ نساء ولا طعام لهم الا العسل يشتمرونه من خروق بالصخرة فيمتقون به حتى أعيا المسلمين أمرهم واحترقوهم وقالوا ٣٠ علجا ماعسى ان يجيء منهم وما علموا ان الأستلاف والاتحاد من جهة القشتاليين والتغابن والتخاذل من جهة ابنائهم واعقابهم جعل لهؤلاء «الثلاثين علجا» من القوة والكثرة مالاخفاء به حتى قهروا العرب واجلوهم بالمرّة واذاقوهم أنواع الذل والهوان مما هو مستطور في كتب التواريخ وسألتهم بعضهم في الرحلة ان شاء الله

هذا وقد رأيت في أخلاق أهل اسبانيا أخلاق العرب أخلاق
اسبانيين وشهامتهم وكرامتهم فقد لقيت فيهم حسن الوفاء وحيد
الطباع والتحبب الى الغريب والفرح بافادته واعانتته سواء كانوا
يعرفونه أو لا يعرفونه وذلك ما يجعلني أفضلهم جهارا وأشهد على
رؤس الاشهاد بان أخلاقهم أدمث وأطف وأشرف من جميع
الامم التي طفت ديارها في هذه الرحلة المستطيلة وسأشرح ذلك
بالتفصيل عند الفرصة اعطاء لكل ذي حق حقه وتقريرا للوقائع
كلها حتى اني وجدت فيهم من الطباع النبيلة ما قد نساء أهل
البلاد العربية وانى اذا تعصبت لامة من الافرنج فانما يكون ذلك

لاهل اسبانيا حياهم الله و بياهم فقد آنت فيهم وفي بلادهم
خصوصا أيام كنت أجهل لغتهم وليس لي من صديق فيهم وقبل
وصولي الى مدريد مايجعل لساني يتلو آيات شكرهم في كل ناد
ويفصح بمفاخرهم وآثارهم في كل واد على توالى الاماد وأ كرر قول
الاندلسي على جميع البلاد

تلك الجزيرة لست أنسى حسنها * بتعاقب الاحيان والازمان

(كلمة الرسالة السابعة)

وهي

﴿بئذ في امتزاج العرب بالعجم في اسبانيا﴾

﴿والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالقب﴾

اعلم ان كثيرا من أشرف العائلات الاسبانية الاصلية امتزجت بالعرب امتزاجا كليا ودخلت في دين الله القويم ولكنها لم تغير ألقابها الخاصة بها لما كان لها بالطبع من الجاه والحسب وقد نبغ منها كثيرون مثال ذلك ابن بونه وهو اسم لكثير من أدباء الاندلس وأصله الاسباني Bono و Bueno ومعناها الطيب والجميل - ولاتزال عائلات اسبانية كثيرة بهذا الاسم الى الآن ومثل ابن بيش (وهذا هو الاسم الذي دعاني لتحرير هذه الكلمة) وهو اسم لجلة أدباء اندلسيين منهم الغرناطي الغوري الاديب أبو عبد الله محمد بن بيش Ibn Vivax من شيوخ وزير الاندلس المشهور بابن الخطيب وأصل اسم العائلة من كلمة اسبانية لاتينية Vivas و Vives مشتقة من فعل معناه الحياة والعمر والمعيشة - وربما كان صاحبنا الدون أنطونيو فيفس المذكور بالمتن (صحيفة ٣٧٥) من نسل هذه العائلة فاذا صح ذلك الظن تكون أصلها اسبانية ثم استعربت ثم استسبنت أي صارت اسبانية

كما كانت ويكون الحكم كذلك في بقية العائلات المذكورة في هذه النبذة - ومثل ابن بشكوال Ibn Paxcual وهو الشيخ العالم أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال من مشاهير المؤرخين من أهل قرطبة وله كتب كثيرة بجزلة الفائدة منها كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثهم وفقهائهم وأدبائهم وهو حجة ثقة واسمه مشتق من Pascual من كلمة لاتينية Paschalis ومعناها المنتسب لعيد الفصح ولا يزال باسبانيا وأوروبا عائلات كثيرة بهذا الاسم - ومثل ابن الأقسطين وهو لقب لكثير من الأندلسيين منهم الأديب محمد بن موسى بن هاشم وهذا الاسم من كلمة اسبانية Agustin فرنساويتها Augustin ولا تينيها Augustinus ومعناها العظيم الجليل - ومثل ابن الباذش وابن البيذش Ibn-al-Pedex وهى كلمة اسبانية لاتينية نص ابن الأبار على ان معناها القدمان أى الرجلان Pedes وهو لقب لأديب غرناطى توفى سنة ٥٢٨ - ومثل ابن برال Burriel أو Borrel وهو أبو بكر من مشاهير أدباء الأندلس ولا يزال لقباً لعائلات اسبانية كثيرة - ومثل ابن بشتغير Ibn Baxtagair وهو من أدباء الأندلس واسمه أبو جعفر ولقبه من كلمة لاتينية Bastagarius معناها الموكل بنقل أمتعة

الدولة أو الكنيسة في الاحتفالات العمومية - ومثل الرشاطى وهو النسابة الاندلسى أبو محمد الرشاطى Arroxati وهذا الاسم مشتق من كلمة اسبانية Roseta بمعنى الوريذة تصغير وردة ومثل ابن الرومية وهو لقب لاحد مشاهير علماء النبات من أهل اشبيلية وبما ان عادة العرب النسبة الى الاب لالى الام الا فى احوال استثنائية قليلة جدا فذلك يخيل لى انهم ابقوا له هذا اللقب دلالة على أصله كما فعلوا بالنسبة لابن القوطية أحد مشاهير كتاب الاندلس فان العرب أطلقوا اسم القوطية La Goda بالاسبانية و La Gothe بالفرنساوية على سارة Sara حفيذة الملك القوطى و يتزا Witiza المعروف عند العرب باسم غيطشه وربما كان الرجل من نسلها - ومثل ابن غرسية وهو لقب لكثير من الاندلسيين منهم الفقيه العلامة عبد الرحمن بن أحمد وهذا اللقب اسباني محض Garcia وكان فى القديم يكتب هكذا Garsea و Garsia و Garseas و Garseanus ولازال لقباً لعائلات اسبانية كثيرة - ومثل ذوالوزارتين السرقسطى ابن غندشلاب وكان صاحب جاه عظيم ونفوذ كبير فى دولة بنى هود بمملكة النغر الاعلى أى مملكة سرقسطة وله شعر جيد وهذا الاسم اسباني محض Gonzalo و Gonzalve و Gonzalez الخ ولازال لقباً لكثير

من العائلات الآن - ومثل ابن فورتش وهو لقب لبعض علماء
الاندلس ولايتنيته Fortis بمعنى قوى شديد ولا يزال لقباً لكثير من
العائلات الاسبانية الآن - ومثل ابن كنبراط Comparath
وهو من أهل بلنسية العارفين بالطب وعنه أخذ القاضي أبو
الوليد بن رشد Averroès فيلسوف الاندلس المشهور . وهذا
اللقب اسباني محض - ومثل ابن ليون لقب لابي عثمان العالم
الاديب الناشئ بمدينة ألمرية Almeria ولا يبه أبي جعفر من
علماء الفلاحة المبرزين ومن شيوخ الوزير ابن الخطيب . وهذه
الكلمة اسبانية محضة Leon تجي من اللاتينية Leo, nis
بمعنى الاسد ولا زالت لقباً لكثير من العائلات الاسبانية الآن -
ومثل ابن سلطور من مشاهير علماء الاندلس وهو لقب مستعمل
اليوم وهو بالاسبانية Salvador وبالطليانية Salvatore
وبالفرنساوية Sauveur ومعناه الخالص والمنقذ والمنجي وهو علم
في العادة عند النصارى على سيدنا عيسى عليه صلاة الله
وسلامه - ومثل ابن فيره لقب لعالم اندلسي وقد نص ابن
خلكان على انه لقب اسباني معناه الحديد واعلم ان الحديد
يسمى عند الفرنسيين Fer وعند الطليانيين Ferro وكان
يسمى كذلك في القديم عند أهل اسبانيا مشتقين له من اللفظة

اللاتينية ولكنهم اليوم حرفوه فلا يقولون « فيره Ferro » اذا
 أرادوا ذكر الحديد بل يقولون من باب التحريف « Hierro
 هييره » وهم لا ينطقون مطلقا بحرف H مقابل الهاء ولكنهم يقولون
 عن السكك الحديدية Ferrocarriles و Caminos de hierro
 فترى ان كلمة « فيره » لازالت باقية عندهم في بعض
 التراكيب - ومثل ابن فوربون وابن مورجون لكثير من علماء
 الاندلس وهما لقبان اسبانيان محضان لا يزال مستعملان الى
 اليوم Fortun و Morejon وقد اطلعت على أسماء كثيرة
 للاندلسيين وليست من العربية في شيء على الاطلاق مثل تومرت
 وانجلينو واشقيلولة ومردنيس وهمشك وكشير غيرها ولكنني لم
 يتيسر لي ارجاعها الى أصولها الافرنكية وسأستوفي ذلك في فرصة
 أخرى ان شاء الله

ومن الامور التي يجب ذكرها تسمية هذه الكلمة ان أهل
 الاندلس المسلمين تفردوا بزيادة الواو والنون في آخر القابهم بخلاف
 المشاركة كما تفرد بعض الاعجم بزيادة « ويه » في سيويه ونفظويه
 وعمرويه وخالويه ومردويه ومزرويه وحيويه وشاهويه ودرستويه
 وراهويه ورزقويه ومادويه وقاذويه وشيرويه وككويه
 وجويه ورجويه الخ وكما تفرد الارمن بزيادة « يان » و « ان » في
 آخر اسمائهم وكما تفرد الروس بزيادة « أوف » و « إييف » ولا حاجة

لايراد الامثلة هنا فانها مشهورة سوى اني أقول ان بعض أهالي
ايران والجرکس وغيرهم من التابعين الآن للروسيا ملزمين
بإضافة « أوف » أو « ايف » على اسمائهم وقد لاقيت في
المؤتمر عالما فارسييا من هذا القبيل اسمه « أحمد اغايف »
ونظير هذين الحرفين « الواو والنون » في اللغات الافرنكية
وخصوصا الاسبانية أى on اذا وضعنا في اخر كلمة افرنجية
أفادها القوة والشدة والتفخيم وكأني بالاندلسيين أرادوا ذلك
ومثال هذه الاسماء مضافة الى لفظة ابن : بدرون . برون .
بكرون - جبرون . جلفون - جبرون . حبنون .
حسون . حضرون . حفصون . حكون . حمدون .
حنون . حيون - خلدون (١) خلفون . خيرون - دحون -

(١) أذكر هنا من باب التفكهة ان أحد شعراء الاندلس وهو أبو علي الملقب
هجا الامة ابن خلدون يهذين البيتين

ياشاعرا يتسامى * وجده خلدون

لم يكف انك خل * حتى يانك دون

وهذا شبيهه بالشاعر الذي ذم نبطويه والقاتل أبو عبد الله محمد بن زيد بن
علي بن الحسن الواسطي المتكلم المشهور

من سره ان لا يرى فاسقا * فليجتهد ان لا يرى نبطويه

أحرقه الله ينصف اسمه * وصير الباقي صراخا عليه

قال ابن خالويه ليس في العلماء من اسمه ابراهيم وكنيته أبو عبد الله سوى
نبطويه وهو بكسر النون وفتحها والكسر أفصح لقب بذلك لدمامة تشبهه بالفظ

رزقون - زرقون . زقنون . زكون . زيدون - سحجون .
سعدون . سلبون . سلون . سمجون . سمجون .
سهلون - ضيقون - عبدون . عييدون (وفي هذا الاسم
تصغير بالعربي وتكبير بالافرنجى) . عجلون . عسلون . عفتون .
عمرون . عيسون . عيشون - غدرون . غلبون - فحون .
فلون . فرحون - قلمون . قنون - لطفون - وهبون -
يسعون . يشعون . يحيون . واعلم ان زيادة الواو والنون تعدت
أيضا الى بعض أسماء النساء نذكر لك اسم الشاعرة زنهون وهى
من أشعر نساء الاندلس ومن أكثر المشتغلين بالنظم بديهة واجادة
كانت تسكن بغرناطة ولها واقعة حال مع شاعر أعشى من المشاركة
تدل على شدة بديعتها حينما طارحته الشعر فى حضرة بعض الامراء
ولولا ما فيها من بعض الاخلال بالادب لذكرتها من باب التفاخر
بها ولكن ذلك لا يمنع الطالب من البحث عليها فى كتاب نفع الطيب
ونذكر اسم شاعرة أخرى مشهورة وهى سعدونة فقد أضيف الى
اسمها علامة التأنيث

والاغرب من ذلك ان بعضهم أضاف على اسمه حرفى الواو والسين
وهما علامة الانتهاء فى اللغة اللاتينية Us ومثال ذلك : أجدوس

أنسوس - عبدوس . عروس - طحاوس . طماوس - فالوس
فرعوس . فرغوس - قبتروس . قُبَيْسُ ومنهم من يسمي
جديس وهذا الحرفان الانتهاءان هما من خصائص اللغة
اللاتينية is كما لا يخفى على العارف . واعلم أن هذه الاسماء التي
ذكرناها هي أعلام لعلماء ترى تراجمهم في كتب ابن البار وابن
الغرضي والضبي وابن بشكوال ونفع الطيب وابن خلكان ودائرة
المعارف و آثار الادرهار ومجموعة القطع العربية التي انتخبها العلامة
الاسبانيان لرتشندي وسمونيت Lerchundi y Simonet
والمعجم العربي الاسباني الذي ألحقاه بكتابهما المذكور

ولسأل أمر بقاياهم بالاندلس الى منتهاه من التلاشي والاضمحلال
وتناسوا اللغة العربية وأساليها مرة واحدة أهملوا لفظة « ابن »
واستبدلوا بعلامة الاضافة في اللغة القشتالية وهي « دو » فكانوا
يقولون فلان دو فلان أي من أو ابن فلان وقد استبدلوا لفظة
السيد بالكمة المقابلة لها في اللغة القشتالية (الدون) كما يفعل الآن
بعض العوام من وضع كلمة موسيو الفرنسية امام الاعلام العربية
في الكتابات والمحادثات على ما هو مشاهد اليوم ومثال ذلك عندهم
الدون عيسى دو جابر الفقيه الاكبر والمفتي بجامع شقوبية Ségovie
في سنة ١٤٦٢ أفركية فانه ألف كتابا جليلا في الفقه الاسلامي باللغة

الاسبانية وطبعته جمعية التاريخ الملوكية بمدريد في سنة ١٨٥٣
(في الجزء الخامس من مطبوعاتها) وعندى نسخة منه تدل على
غزارة فضله وواسع علمه وقد بلغنى من بعض العلماء أن بعض
المراكشيين المتوطنين على الساحل يستعملون ذلك اليوم والاغرب
من هذا وهذا ما بلغنى في مدريد من بعض أهل السياحة والتحقيق
ان الاعراب البدويين المتوطنين في صحارى مراکش (أى بعيديا
عن الساحل بمسافات شاسعة تمتع خيال الظن بوجود أى تأثير
للاختلاط مع أهل أسبانيا الآن) لا يزالون يستعملون هذه الطريقة
في التسمية أى وضع كلمة « دو » في المكان الذى يضع فيه بقية
العرب لفظة « ابن » وهذا دليل على اتصال نسبتهم بالاندلسيين
الذين أخرجوا من ديارهم هذا وقد رأيت عند الدون پابلو خيل
حججا شرعية وصكوك معاملات ووقفيات مكتوبة باللغة الابعجمية
(انجيا) وفيها « الدنيا عائشة » أى السيدة عائشة والدون
فلان وهكذا

ثم أقول من باب الاستطراد غير متعرض في هذا المقام الى
استكمال البحث فإني أريد توفيقه في فرصة أخرى ان الاسبانيين
وقع منهم مثل ما وقع من العرب فان الناظر الى اسمائهم
لا يعسر عليه ان يتعرف فيها اعلاما عربية قديكون بعضهم مأخوذا

بالوراثة وبعضها عفواً أو لمناسبة أخرى ومثال ذلك Codera وهو
قديرة (ولايزال الحاج قديرة والحاج قدور من اسماء أهل طرابلس
وتونس والجزائر ومراكش) ومثل Zaidyn = زيدبن و Abad
اي عمادو Alvarez = الفارس و Alvarez del Campo اي
فارس الميدان و Baguer = الباقرو Moreira = مريرة
و Sofi = صوفي و Ferran = فران و Almenara اي
المنارة و Alcayde = القائد و Alcalde = القاضى (ولايزال
هذا اللقب عندهم مرادفاً للمحافظ والمدير وحاكم البلد كما كان
يسمى عند العرب بالقاضى اذ له اختصاصات كثيرة في الشرع
الشريف ويسمى عند الفرنسيين Alcade وان كان
الاسبانيون اضافوا الـ L من باب التحريف في قولهم Alcalde
لاظهار تفخيم الضاد) و Rabadan = رمضان (الباء حلت
محل الميم العربية) و Nasarre = نصار (والاسبانيون ينطقون
بحرف S سيناعلى الدوام مهما كان موقعه بين الحروف الاخرى)
و Calaf = خلف و Maymon = ميمون و Alvaro =
البرّ و Meaza = معازة و Alfageme = الخمام الخ
وهذه الاعلام كلها لاناس موجودين في اسبانيا الآن
رأيت بعضها في كتب الدلالات وعرفت بعضهم بنفسى ومن
ينظر الى اعلام الاسبانيين الآن يرى في آخرها هذين

الحرفين Ez وهما على ما تأكدته علامة على البنوة فكل
اسم في آخره ذلك يكون معناه ابن فلان مثل Fernando أى
فرندو ثم Fernandez أى ابن فرندو وهكذا في جميع الاسماء ولم
أر ما يشبه ذلك في بقية اللغات الا فرنجية التي أطلعت عليها وهذا
ما يدعوني الى الظن بأنه أثر باق من آثار العرب الذين يتقربون
على الدوام الى الاب مع لفظه ابن وهذه الزيادة في اخر الاعلام
الاسبانية تشبه تمام المشابهة لفظة « زاده » و « أوغلى » التي تضاف
على أواخر الاعلام التركية

(الخاتمة)

بعد ان زرت غرناطة وكتبت رساتي الاندلسية التي لم يتيسر لي
أن أو رد فيها جزأ من عشرين مما وقفت عليه من أحوال الاندلس
وما رأيته فيها من آثار العرب وبقية أخلاقهم وغير ذلك مما قد
يستغرق مجلدا ضخما يقت الى قرطبة وشاهدت معاهدها وبقاياها
وأهم ما رأيته فيها هو المسجد الجامع الذي لانظيره في العالم
الاسلامي وقد بقيت معالمه الرئيسية على ما هي عليه وأقسم بالله
انني أكرت من البكاء المرحينما درت في صحونه وبين عمده انه
ووقفت في محرابه وتأملت ما فيه من غرائب الاتقان التي لا تخطر
على بال مع الفخامة والضخامة وهو متجلبب بجلباب من الجلالة
يوجب المهابة التعمدية في نفس الزائر ويجعله يشعر حقيقة بوجود
خالق معبود قسم الخطوط وقدر الارزاق وأراد ما أراد ولا أتصور
ان الخشوع الديني والخضوع التعمدي يحدث في نفس أي انسان
في أي معبد من المعابد التي اقامتها جميع الامم على اختلاف
نجلها ومقالاتها بكيفية أكثر وأظهر وبانفعال أتم وأكمل
مما رأيته في هذا الجامع الذي يحتوي على اثني عشر ألف عمود
من مختلف الصوان وكلها منقوشة التاج والقاعدة بكيفية

تختلف بعضها وأما المحراب فهو مصنوع من أحجار دقيقة مختلفة
الالوان متر كبة مع بعضها على نظام الفص والفسيفساء فتحدث
منها أشكال متناهية في الجمال وآيات قرآنية وأحاديث نبوية
وإذا نظرلها الانسان من ذات اليمين رأى ألوانا وأضواء وأشكالا
وترا كيب تختلف كل ما يراه لو وقف جهة الشمال وكذلك الامر
فما لو وقف في الوسط أو تقدم أو تأخر وهكذا وخلاصة القول اني
أتصور هذه القبلة من كبة من أحجار كريمة مرصوفة بجانب
بعضها باكمل ذوق وأحسن أسلوب

ثم خرجت من قرطبة الى مدريد الى سرقسطة الى برشلونة
Barcelona الى مارسيليا فبقيت بها أياما شاهدت كل ما يجوز
للغريب وعابر السبيل ان يراه وفي أول فبراير سنة ١٨٩٣
امتنع الحبارون عن اصطناع الخبز الخلاف في التمثين وقع بينهم
وبين البلدية فكان لذلك منظر من أغرب المناظر واستمر الحال
ثلاثة أيام كاد الناس يقتلون بعضهم فيها ثم انحسرت النازلة على
أحسن حال

ثم فت الى مدينة نيس (Nice) المعروفة عند العرب باسم
نيقة فانهم قد احتلوها هي وشواطئ فرنسا الجنوبية زمنا مديدا
وهي من أجمل المدن وأظننها وأنظفها وغاية ما أقوله عنها الآن

اننى شاهدت فيها الاحتفال بالكرنقال (أى عيد المرافع) وهو
أعظم احتفال يحصل فى العالم كله من هذا القبيل اذ تجيى اليها
قطارات مخصوصة لحضور هذا اليوم المشهود من لوندرة وباريس
وبرلين وويانته ورومة وغيرها من مدن أوروبا كلها بل ويحضرها
فى هذه الفرصة كثير من أهل أمريكا ويحفل به الاهالى والبلدية
احتفالاً يشمل جميع أجزاء المدينة ويدفع التجار رسماً معيناً للمعاونة
البلدية على تنظيم الاحتفال والانوار باعرب ما تتصوره العقول
ومتى حلت أيام المرافع ارتفع سلطان العقل من آفاقها وذهب موليا
الادبار طالبا النجاة بنفسه فى غير هذه الديار ثم يحتملها سلطان الجنون
بجنوده فتسقط التكاليف وتمتع الحيات ويمبق الناس كلهم كلهم
فى درجة واحدة فرحين مستبشرين ضاحكين ساخرين وهم
متشحون بغرائب الملابس ويتخذون لوجوههم ورؤسهم صوراً
ما أنزل الله بهامن سلطان ويرقصون جميعهم فى الشوارع محتلطين
نساء ورجالاً وعتادى وأطفالاً ويسترامون بقصاصات الورق
Confetti والارز والفصولية وباقات الازهار وغير ذلك مما لا تحيط
به الافكار وهم يسرون زرافات ووحداً وامتاشة وركباناً ويتخذون
عربات غريبة الشكل تضحك الشكلى وتزبل طوعاً أو كرهاً تقطيب
الوجه العبوس ويصطنعون سفناً تجرها الافراس والخلاصة انهم

يركبون من الرقاعة والخلاعة كل متن ويذهبون فيهما كل مذهب
ومع ذلك ترى النظام سائدا والادب العموي ضاربا أظنابه في قواعده
الكلية فقط وهم في هذه الايام لا يعرفون الزعل أو الكدر أو الغيظ
أو الخنق أو المضايقة أو غير ذلك مما هو من مستوجبات الطبيعة
البشرية ولهم في ذلك نظامات ورسوم معلومة لكل يوم من أيام
الاحتفال ولاشك ان شرح ذلك بالبيان الذي يجيش في صدري
يستوجب رسالة ضافية مطولة لا يسعها المقام الآن

ثم قمت الى مدينة موناكو ومنت كارلو ورأيت جمال مناظرهما
الطبيعية وصفاء البحر تحت أقدامهما وبهاء الجبال فوقهما ونضرة
الاشجار في جميع جهاتهما وغير ذلك من المنازه الطبيعية والصناعية
التي تنبسط لها النفس وينشرح منها الخاطر ومدينة منت كارلو
مشهورة بالمتدى الذي هو من أكمل وأجل مقتنيات العالم في لعب
الميسر (القمار) وقد زرته للوقوف على حقائقه وأحطت علما
بقوانينه واجرا آتة

ثم خرجت منهما قاصدا بلاد ايطاليا فررت على جنوة فيبشة
فروسة وأقت بها ثلاثة أيام ورأيت فيها الاحتفال بالكرنقال
وشاهدت حرب الزهور Combat des fleurs ولكن احتفالها

مع جسامته وفخامته لا يساوى جزءاً من عشرين مما رأيته في نيقية
Nice ثم ركبت البحر عن طريق برندزي ووصلت الى الديار وحدث
الله علي ما حصل من توفيقه لي وعناية بي أكثر مما كانت تحوم
حولهُ آمالي

* * *

والناظر الى هذه الرسائل يعلم انني بارحت القاهرة في يوم ١٤
اغسطس سنة ١٨٩٢ ورجعت اليها في يوم ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣
فتكون مدة رحلتي ستة شهور بالتمام قد لاقيت فيها حراً ورباً ووجاراً
كأشد ما يكون وقاسيت بردها وصبارته فوق ما يقدر عليه شرقي
مشرق في أوروبا والاول مرة ويرى انني زرت مرتين ثم تبتين
خمساً من عواصم أوروبا وهي رومة وباريس ولوندره ومدريد
ولشبونة وتقايات بمسلي ليفربول وتشرفت بلقاء ملك البرتغال
ومملكة الاندلس وانني زرت أكثر من أربعين مدينة زيارة تدقيق
وتحقيق وتعلمت لغة أهل الاندلس الحالية حتى توصلت الى الكتابة
والخطابة بها على قدر الامكان وزرت مناجم الفحم وبلاد الاندلس
بالتفصيل وكتبت شيئاً يسيراً مما عرفته عنهما ففتحت هذا الباب
وشاهدت ثلاث مدائن مخصصة لطباعة العلم فقط وهي أكستوردي
النجارة وقلمرية في البرتغال وشلمنة في إسبانيا وحضرت عيد الميلاد

في مدريد وعيد رأس السنة في لشبونة وأكلت الفول المدمس وحضرت
جلسات مجلسي النواب والشموخ في فرنسا وشاهدت الاحتفال
الرسمي بافتتاح مجلس نواب بلاد البرتغال وحضور الملك والمملكة
والقاء الخطبة الملوكية وشاهدت قتال الأتوار في اسبانيا واعتصاب
الخبازين وامتناعهم عن عمل الخبز مدة ثلاثة أيام في مارسيليا
والاحتفال بالكرنفال (المرافع) في نيقية Nice ورومية وغير
ذلك من الامور الكثيرة المتعددة التي لم يتيسر حصولها مرة واحدة وفي
رحلة واحدة لمصرى قبلي وان ما ذكرته وخصوصا عن الاندلس في هذه
الرسائل هو قليل جدا في جانب ما أتوسل الى القادر الكافي نوات نعمائه
ان يوفقني ويعينني على تحريره وتدوينه في الرحلة الكبرى لتكون
هي وهذه الرسائل وسيلة لحث بنى الاوطان على السياحة والافادة
والاستفادة وعسى ان كل واحد يذهب في أوروبا من طريق غير
الذي رسمته يكتب لنا عما يراه وعماتنبه به احساساته ليتسكون في
لغتنا العربية مجموعة سياحات توقف القارئ على أحوال هاتيك
البلاد التي أصبحت منبع التقدم ومقر العرفان

* * *

والمسؤل في وجه الله الكريم المنان ان يوفق أبناء الوطن الى
توفيقته حقه من الخدمة في ظل نخر الانام وعماد الزمان ولي العصر

ومليك مصر مولانا الاكرم و خديونا المبجل عباس باشا حلي الثاني
أدامه الله كهفا للعالي فهو الذي تفضل على بمنظره العالي وانعامه
المتوالي حتى كتبت هذه الرسائل وبنيتها في قومي قياما بما وجب
له من فرائض الشكر على عبده

المخلص
احمد زكي

(استدراكات)

(١) أنبه القارئ الى اننى أشرت فى صحيفة ٦ عند الكلام على جزيرة أفریطس مايشعر باحتمال اشتقاق لفظة القند بمعنى السكر عند العرب من اسم هذه الجزيرة الآن الذى هو كنديا لاشتهارها باصطناع العسل الجيد - ولكننى تحريت ذلك فرأيت انه غير حق ويجب على تلقاء الذمعة ان أبادر بالرجوع عنه بنفسى وأذكر الصواب وهوان المسلمون لما فتحوا هذه الجزيرة فى سنة ٢١٠ اختطوا بهامدينة سموها **الخنديق** ثم حرف الروم والافرنج هذا الاسم الى كنديا وتعارفه العرب بهذا الاسم وتناسوا الاسم العربى القديم كما حصل مثلاً فى «دارالصنعة ودارالصناعة» فانه اسم عربى معتبر يدل على المكان الذى تصنع فيه السفن ذكره بهذا المعنى المقربى وابن بطوطة وابن الاثير والادريسي وابن خلدون وابن جبير والمسعودى وغيرهم وهو عند العرب يدل أيضاً على المكان الذى يصنع فيه شئ من الاشياء ولكنه بالسفن أخص حرفه الاسبانيون الى Darsena و Atarzana و Arsenal ونقلها الطليانيون هكذا Arsenal و Darsena والانكليز الى Arsenal والفرنساوية الى Arsenal و Darse ومن المعلوم ان أهل مصر فى هذا الزمان أى من أيام محمد على استعملوا فيما يتعلق

بمن البحر كلمات كثيرة نقلوها عن اللغات الافرنجية وأخصها
الطليانية فلم يلتفتوا الى ان كلمة Darsena أصلها عربي بل اضافوا
لفظة (خانة) التركية وقالوا ترساخانة لاعتيادهم على اضافة «خانة»
على اسماء جميع الاماكن العمومية الاميرية بالنسبة لتأثير اللغة
التركية في ذلك الزمان ثم انهم أحسوا ببعض المخالفة بين لفظي
(ترساخانة) و(دارسنا Darsena الطليانية) فحذفوا خانة
واقصروا على قولهم «ترسانة» ومثل هذه الكلمة كثير نقله الافرنج
الى لغتهم ثم استرجعها العرب من غير أن يعيدوا لها شكلها بل
أبقوها بكيفية لا يكاد يتعرفها الباحث

* * *

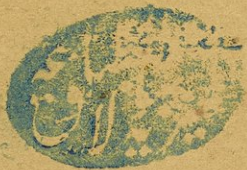
(٢) ذكرت في صحيفة ٤٦ ان كلمة Chapeau ومعناها عند
الفرنساويين البرنيطة ربما كانت محرفة عن كلمة عربية وربما
كانت هذه الكلمة هي «قبعة» وهو وهم محض فان الكلمة
الافرنجية مشتقة من كلمة لايتنيه Caput بمعنى الرأس - والذي
أوقعني في هاتين الغلطتين اني أوردتهم - ما في كتابتي اثناء الاسفار ولم
يكن معي منها شيء استعين به على المراجعة فوجب الرجوع عن ذلك
والحمد لله

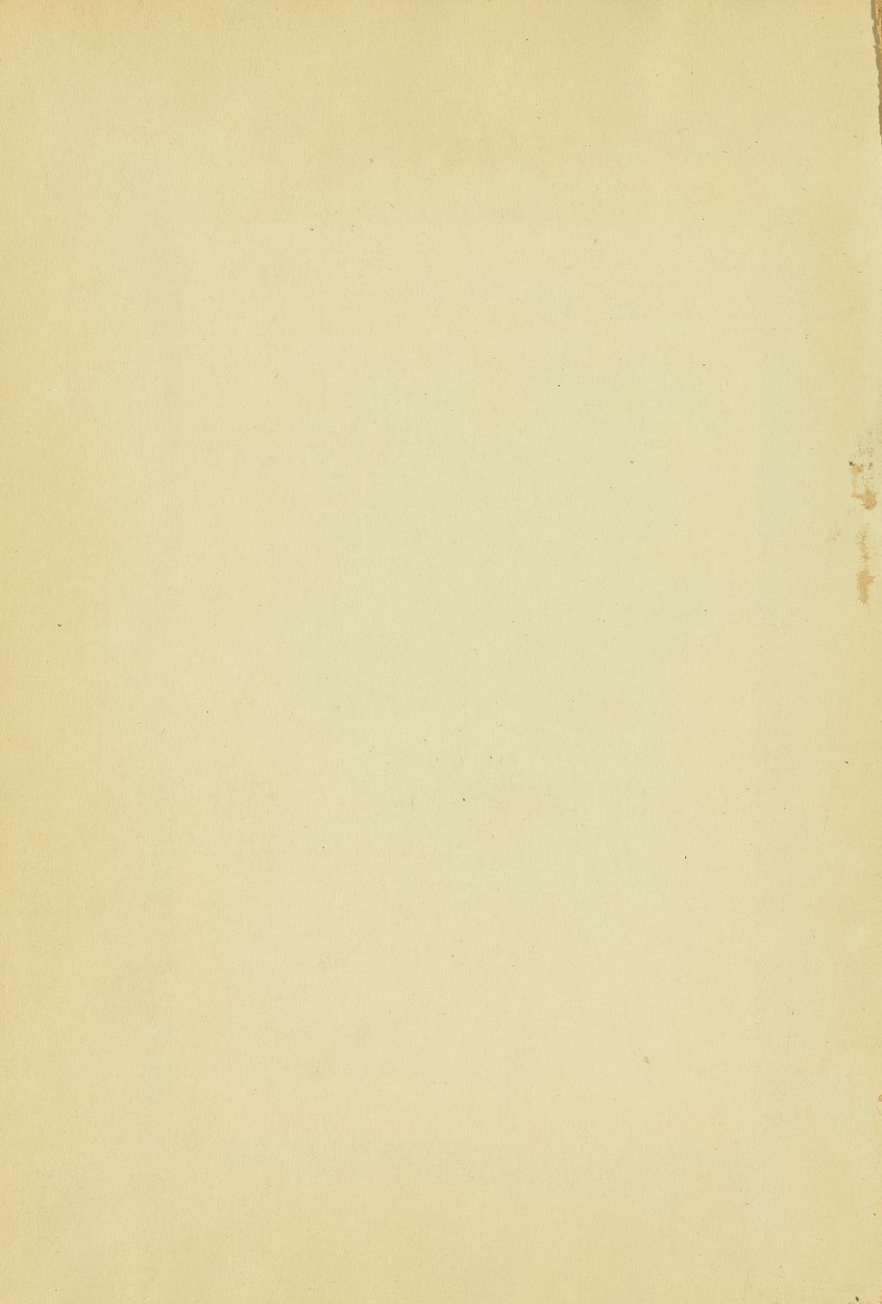
* * *

(٣) قد سقطت عبارة من المطبعة أثناء طبع صحيفة ١٨٦٢ في منتهى الكلام على قبر (هيلوييس وأبيلا) ولزيادة الايضاح وجب علينا استدراك ذلك فالرجا من القارى ان يضيف العبارة الآتية على منتصف السطر الثالث من صحيفة ٦٨٢ المذكورة وهذه هي «وهذا الرجل من مشاهير الفلاسفة واسمه ورد بهذه الاختلافات Abailardus, Abaulardus, Abaielardus, Belardus, Abélard, Abeillard, Abailard, Abaalardz, بل و Baillart وهو من كبار الفلاسفة اللاهوتيين المعلمين وله مذهب مشهور في الفلسفة وابتكارات ومصنفات مفيدة في الموسيقى وكان يعيش في منزل شماس له حفيده من أشرف فرنسا بارعة في الجمال واسمها هيلوييس فكأنه ان يتم تعليمها ويؤدبها فكاف بها ابيلا حتى لقد كتب في هذا المعنى يقول «ما كان لنا سوى بيت واحد فللمننا ان صار لنا فؤاد واحد» وبعد زمن قليل أحست الفتاة بالحبل فكشفت استاذها (أوخيلها) بذلك فهرب بها ذات ليلة واخفاها في شمال فرنسا عند اخته فوضعت ولد اسمته بطرس اسطرلاب وحينئذ أراد الرجل أن يتزوج عشيقته ولكنها رفضت قائلة بان ذلك وخيم العواقب على محبوب قلبها وقد كتبت له (ان أصحاب المسدرك ونوابغ الرجال لا يصح لهم ان يربكوا أنفسهم بالعائلة

ومشاغلها) وأيدت رأيها بنصوص من أقوال اللاهوتيين من
اللاتينيين واليونان ويقال انها أجابت بعد كثرة الحاحه في آخر الامر
ولما اطاع الشماس على هذا السر شرع في الاقتصاص من الفيلسوف
فارشى خادمه ودخل عليه بالليل ومعه نقر من ذوى قرابته وصحابته
ثم أوثقوا كتاف ابيه لاروجبوا خصاه فالح الفيلسوف اللاهوتى
المخصى على خليلته أو زوجته بان تترهب فاجابت ثم لحق بها في
الدير واسس دير الراهبات وما زال يمارس التعليم والتدريس بما ينطبق
تارة على أفكار اللاهوتيين ويخالفهم أخرى وهو يوالى وداداه لصاحبه
التي بقيت أصدق الناس على ولاءه

تم





893.785
Z13

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0040282953

BOU D

JAN 18 1956

